

موسم الغنى يسبق

القارئ السري

أعند
من الشرق والغرب

مفتوح علی حوائج . المرحوم . مفتاح
فتح . وفتی . الفکر . الفکر .
المفتوح . المفتوح .

دار الفكر العربي

محمد عبد الغنى حسين

أعلام من الشرق والغرب

مفتي القاهرة - المصطفى - المنشأ
الدرويش - الظفر - إسحاق - أسامة
أبو الفوارس - الظفر - المصطفى - الخ



الناشر

دار الفكر العبرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

بين دفقي هذا الكتاب بضعة عشر علما من الشرق والغرب ، لم يفرد الكتاب عندنا لهم التراجم وإنما تأتى سير أكثرهم متفرقة مبعثرة في أسطر قليلة هنا وأسطر قليلة هناك . فلا يستطيع القارىء أن يقع لأحدهم على ترجمة مستقلة له يمكن أن يعول عليها أو يرجع إليها مرة واحدة .

ومن عجب أن أكثر هؤلاء الذين اخترتهم من الشرق لم تترجم لهم كتب التراجم المتداولة بين أيدينا . كتراجم مشاهير الشرق لجورجى زيدان وأعيان البستان لحسن السندوقي ، وتراجم أعيان القرن الثالث عشر لأحمد تيمور باشا ، وأعلام المقتطف ، ومرآة العصر لألياس زخورة - لا إنكارا لفضلهم ولا جحدا لمحاولهم في نواح مختلفة من نهضتنا الحديثة التي بدأت تأخذ مسيلها منذ عصر محمد علي الكبير .

ولكن كاتب التراجم معذور حين تزدحم عليه الأعلام فلا بدري أيها يأخذ وأيها يدع ، كمن يدخل الروض فيتجهر فيه أينجنى الورد أم يجنى الأفاحا وعذري عند كرام القراء قائم أيضا حينما تخيرت هؤلاء البضعة عشر علما فلم أزد عليهم ، ولو قد زدت لما ظننتني قمت ببعض ما في نفسي من الوفاء لأعلامنا جميعا . فهو مدى لا يصل إليه جهدى ؛ ولكنني دخلت من باب أرى من الحق أن يشركني فيه غيري حتى تؤدي لأعلام نهضتنا ما يجب لهم في أعناقنا من دين .

ولا يثلمن كاتب على أنه أحب بعض الناس فأغضبهم بفضله من وقته وعاش معهم بالروح وحيي معهم بالفسكر ، قرأ لهم وتبع إنتاجهم ثم أخذ يعرض ذلك في كتاب ، بل اللوم على من يستطيع أن ينى — ولو بعض الرفاه — لترات أدبه وأعلام أمته ورجال لغته ثم لا يهنض لذلك قدما ؛ ولا يحرك في سبيل ذلك قلبا .

ولا أدعى هنا أتى أحيت من رجال نهضتنا مغمورا ، أو نشرت مغمورا ، فتلك دعوى لا أجزئ نتائجها لمثل هؤلاء الرجال الذين أسعفهم الزمان في حياتهم بأعماهم ولم يسعفهم في منافعهم بالتراجم المستقلة لهم ؛ ولكننى أغور كل القصر حينما هيا الله لى أن أصير بعض الصبر فأجمع أشتاتا من سير هؤلاء الأعلام ، آخذها من بطون الكتب وأقطفها من ثمرات أفكارهم في آثارهم ، أو ألحقها على قرب من عاصرتهم . فأجعل منها هذه الدراسة المستقلة التى أرجو أن يرضى عنها أصحابها فى رضوان دهم وأن يرضى عنها الحق الذى كنت أنشده دائما حينما وجهت نفسى إلى هذه الغاية .

وكذلك كنت مع الثلاثة الأعلام الغربيين الذين ضمتهم إلى أعلامنا الشرقيين فى باقة واحدة . ففسد لاحظت أن كثيرا من أمثال برناردشو وويلز وميجو وبوشكين قد ترفوا إلى أدبنا العربى بفضل من ترجموا لهم وصرفهم إلينا من أدبائنا ، على حين يزوى من الميدان أمثال هنرى دافيد ثورو كاتب الطبيعة وعابدها ، وجايمس رسل لويل الذى يعد من طلائع النهضة الأدبية فى ولاية New England ؛ وإدجار والاس الكاتب القصصى المخامر المغمور . فمشت مع هؤلاء زمنا كما عشت مع رجالنا الشرقيين . وكان من ذلك كله هذا الكتاب الذى أقدمه إلى أرواح هؤلاء الأعلام

محمد عبد القوي عيسى

مصطفى مختار بك

أول وزير المعارف المصرية

١٨٠٢ - ١٨٣٩

ليست أهمية مصطفى مختار بك في تاريخ التعليم المصرى لأنه أول ناظر للمعارف المصرية ، ولكن لأنه أول وزير للثقافة فى مصر جرسى على يديه بصفة رسمية الاتصال بثقافة أوروبا وأخذ المصريين من مواردها . فتم بذلك على يديه نوع من العلاقات العلمية والأدبية بين مصر الناهضة وبين الغرب المتقدم . وهى تلك العلاقات التى رأى المفكرون أن تسود بين الأمم - صغيرها وكبيرها - على شكل يضمن بينها قيام نوع من التعاون الفكرى الذى يهدف إلى سلام عالمى . وقد ظهر هذا الاتجاه فى قيام مؤسسة بعد الحرب العالمية الأولى تدعى « منظمة التعاون الفكرى بين الأمم » :

Organisation Internationale de Coopération Intellectuelle

وهى تلك المؤسسة التى تمكنت أخيراً بعد الحرب العالمية الثانية عن

هيئة الأونسكو التى تعرف باسم

"United Nations Educational, Scientific and Cultural Organisation"

ومصطفى مختار بك من أعضاء بعثة محمد على الأولى إلى فرنسا سنة ١٨٢٦م

وقد بلغ عدد أفرادها أربعة وأربعين عضواً ، فبحوا جميعاً فى المهمة العلمية

التي أرسلوا لها فاعادوا خمسة منهم المرضى أو ضحف الكفاية من مداومة

التحصيل فأعيدوا قبل إتمام دروسهم .

ويجمع المؤرخون لعصر محمد على - مصريين وأجانب - على أن

بعثة سنة ١٨٢٦ هي البعثة الأولى ، ويخالفهم في ذلك المغفور له الأمير عمر طوسون الذي يجعل بعثة « نقولا مسابكي » وزملائه إلى إيطاليا سنة ١٨١٢ هي أول بعثة لمحمد علي . ويجعل بعثة « عثمان باشا نور الدين » وزملائه إلى فرنسا سنة ١٨١٨ هي البعثة الثانية ، ويجعل بعثة سنة ١٨٢٦ إلى فرنسا ثالثة البعثات المصرية ، وهي تلك البعثة التي سافر فيها المترجم له .

ومهما يكن من أمر هذا التقدير فقد سافر مصطفى بك مختار عضواً في البعثة وواحداً من رؤسائها الثلاثة للإشراف على بقية الأعضاء في فرنسا . والرئيسان الآخران هما : حسن باشا الاسكندراني ، وعبدى شكرى باشا . وسافر معهم الشيخ رفاعه العظمى إماماً لهم ومرجعاً في شئون دينهم .

ولم يفد الشيخ رفاعه العظمى في كتابه النفيس « تلخيص الأبريز » إلى تلخيص بارز ، أن يذكر هؤلاء الرؤساء الثلاثة بالخير ، ثم يشير إلى أن « حضرة الأفندية الثلاثة يتحدون أيضاً كالباقي ، لحضرة الأفندى المهر دار سابقاً - عبدى شكرى - يشغل بعلم تدبير الأمور الملكية ، وحضرة الأفندى الدوبدار سابقاً - مصطفى مختار - يشغل بعلم تدبير الأمور العسكرية ، وحضرة الحاج حسن أفندى الاسكندراني يشغل بعلم القبطانية والهندسة البحرية » .

وكانت رئاسة الواحد منهم لأعضاء البعثات بفرنسا يوماً بالتناوب ، ثم صارت الذوبة شهر أشهراً ، حتى استقل بها عبدى شكرى في النهاية ؛ ولم تمنع هذه الرئاسة مصطفى مختار ولا زميله من الدأب في التحصيل بفرنسا . فقد شهد له ولها رفاعه بك بقوله : (ولسائر الثلاثة اجتهد زائد وتحصيل بالغ ، مع أن الإمرة في الغالب تأتف من ذلك)

ولا شك أن محمد علي باشا كان مهتما بهذه البعثة لأنها أول بعثة منتظمة كثيرة العدد . فاختار لها المسيو (جومار) للأشراف عليها وكان هذا العالم الجليل يدرس أحوالهم واحداً واحداً ويكتب التقارير عنهم . وقد نشر ذلك التقرير في (المجلة الآسيوية Journal Asiatique) سنة ١٨٢٨ م .

وكان مختار بك موضع عناية خاصة من المسيو جومار . فقد أفرده بالذكر في تقريره عن فرقة الإدارة الحربية . ولم يكن المسيو جومار مهتما بالترجم له وحده ، فقد كان كثير العناية بأعضاء البعثة ، وكان يشجعهم بألوان من التشجيع ، وأقام لهم في سنة ١٨٢٨ حفلاً لتوزيع المكافآت عليهم . وخطب فيهم خطبة قال فيها : (وأتم جيبكم شعرتم وتتمشرون كل يوم بعظم ما أرسلتم من أجله ، وجميع جهودكم متساوية ، ولكن هنالك فروق بينكم في دروس لا يتسنى للشبان الشرقيين أن يتساووا في النجاح فيها وإن الامتحانات التي جرتوها كانت شديدة الرقابة بقدر ما كانت غريبة عنكم ؛ وهذا مما يجعل كعب الذين فازوا فيها ، على أن كلا منكم سيمثل دوره في الفخر كما أمل ، وذلك ظاهر من الإرادة القوية التي تشجلى فيكم ، والعزم الماضي بكم إلى بلوغ الغاية التي نصبناها لحكومتمكم السامية)

واستمر جومار في تشجيعه مستمداً وحيه من محمد علي باشا الذي كان يرغبهم ويحبي عزائمهم نارة ؛ ويوبخ من يثبت عليه التفسير تارة أخرى . وقد أشار إلى ذلك دفاة بك الطمطاوى في قوله : (جرت عادته — أي ولي النعم — من مدة خروجننا من مصر بأنه كان يتفضل علينا ببعثه لنا فرماناً كل عدة أشهر يحثنا فيه على تحصيل الفنون والصنائع ، فن هذه فرمانات ما كان من باب ما يسمى عند العثمانية إحياء القلوب . . ومنها ما كان من

باب التويخ على ما كان يصله منا ويبلغه عنا من بعض الناس حقاً أو غير ذلك)
ولقد امتاز مختار بك في البعثة بكثرة نشاطه وشدة إقباله على العلم فوق
ما امتاز به من حدة الذكاء التي لفتت أنظار كل المتصلين به وخاصة المصير
(هاموند) مدير مدرسة الطب البيطري.

وكان نسق الحياة الذي يعيش عليه مصطفى مختار بك في فرنسا مدة
بمستته هو ذلك النسق الذي كان يحياه أعضاء البعثات جميعاً ، وهو النسق
المنظم الموضوع تحت إشراف دقيق ورقابة شديدة ، حتى لا ينصرف
الطلاب عما أوفدوا من أجله . ولم يكن عليهم محمد علي باشا في سبيل تعليمهم
وفي سبيل تهوين العربية عليهم ؛ حتى كانت النعمة تبدو عليهم ، ويقول في
ذلك رقاعة بك : (ونحن نعد هناك من المرسرين بل من الأغنياء لتجملنا
بالملبس الغريب عندهم . ولنسبنا لولي النعم)

وبلغ من كرم محمد علي وحفاوته بهم في غربتهم أنه أرسل من مصر
إلى فرنسا ثلاثة خيول جياد لرؤسائهم عدي ، ومصطفى مختار ، وحسن
الأسكندراني . وقد بلغت النفقة على هذه الجياد في المحجر الصحي بمرسيليا
١١٧٣ فرنكا ... ونفقتها ونفقة سواها إلى باريس ١٢٦٥ فرنكا ، ونفقتها كل
شهر هناك حوالي ٧٥ فرنكا ... !

وكان في مختار بك ميل إلى الموسيقى .. فأرسلت إليه ساعات دقاقة منها
واحدة تحدث فيها موسيقياً ، كما اشتريت له آلتان للموسيقى بـ ١٨٤ فرنكا ،
وكتب أمامها في دبتة الملاحظات : « ثمن ميزيكة باسم مختار بك عدد ٢ »
وهكذا لم يكبت في مترجما هري في خاص قد يقال إنه يعطله عن أغراض
بعثته ، ولكنه شجع فيه إلى أبعاد الخلود ..

. قلنا إن مصطفى مختار بك هو أول ناظر لديوان المدارس ، وأول وزير للمعارف في مصر ، فإهو هذا الديوان الذي يرد ذكره كثيراً في كل كتاب يتحدث عن مآثر محمد علي الكبير ؟

الواقع أن هناك « شورى المدارس » و « ديوان المدارس » . وكانت أمور التعليم في مصر ترجع إلى ديوان الجهادية حتى سنة ١٨٣٦ م . وهي السنة التي صدر فيها أمر محمد علي بتأليف « مجلس عام للنظر في تنظيم المدارس » ولم يكن هذا المجلس إلا لجنة مؤقتة اختير لرياستها مصطفى مختار بك بعد عودته من البعثة بقليل ، وكان من أعضائها : كلوت بك ، وكيان بك ، وأرتين أفندي « باشا » وأسطفان أفندي ، ورفاعة الطهطاوى ويومى أفندي أستاذ الرياضة بمدرسة المهندسخانة ، وفارين ، وحكاكيان ، ولامير ، وهامون ، ودوزول .

ويلاحظ أن رجال هذه اللجنة من العلماء الأجانب ومن المصريين الذين أنعموا دراستهم في الخارج ، وعادوا لتسلم إليهم مقاليد الثقافة في وطنهم . وبعد زمن غير طويل تحولت هذه اللجنة المؤقتة إلى لجنة دائمة برئاسة المترجم له أيضاً ، ولكن هذه اللجنة ظلت تابعة لديوان الجهادية وسميت « شورى المدارس » .

وكان في مصطفى مختار نزوع شديد إلى الاستقلال في كل أعماله ، فلم تكلم تصدر قوانين هنا المجلس في ٩ من ذى القعدة سنة ١٢٥١ هـ حتى أرسل إلى نظار المدارس يطلب منهم أن يعرضوا عليه جميع الشئون المختصة بهم ... فكانت تلك أول خطوة في محاولة انفصال المجلس عن ديوان الجهادية .

وظهر استقلال هذا المجلس في المكان أيضا... فقد كان يشغل حجرة من المكان الذي يشغله مجلس الملكية بالقلمة، ولكنه انتقل إلى مكان خاص في الأزبكية بقصر الدفتردار

ولم يأس مصطفى مختار من محاولة الانفصال عن ديوان الجهادية حتى تستقيم لإدارة التعليم في مصر شخصية مستقلة. وقد تم ذلك بالفعل في ٥ من ذي القعدة سنة ١٢٥٢ هـ - سنة ١٨٢٧ م، حيث اجتمع مجلس المدارس برئاسة المترجم له وعضوية عشرة أعضاء، وتلا عليهم الأمر العالي « بتفريق كافة المدارس من ديوان الجهادية وترتيب ديوان خاص لها. ومنذ ذلك التاريخ الموافق لشهر فبراير سنة ١٨٢٧ م أصبح مصطفى مختار بك مديرا لديوان المدارس أو ناظرا له. وبهذا شهد تاريخ المعارف المصرية مولد أول نظارة المعارف وقيام أول ناظر لها.

ولم تطل مدة وزارة مصطفى مختار بك، فقد اختتمت السنة ١٢٣٩ هـ وهو قائم على نظارة الديوان. ولكن عهده القصير كان بركة على حركة التعليم الناهضة. فقد أنشئ في نظارته كثير من المدارس والكتاتيب كما يذكر الأمير عمر طومسون في كتابه. وكان مائلا للنشاط العجيب الذي لازمه منذ كان طالبا في بعثة باريس، فلم يحتاج إلى وكيل لوزارة ناشئة حملت عليها الأقدار عبء النهوض بأنشاء جديد، ولهذا لم تعرف وزارة المعارف منصب الوكالة إلا في عهد ثاني وزرائها « ابراهيم أدم بك » باشا الذي تول الوزارة سنة ١٢٣٩ هـ بعد وفاة مصطفى مختار بك، فقد كان أدهم كثير الاسفار إلى إنجلترا، فاضطرر ذلك حكومة محمد علي باشا إلى تعيين « أحمد بك » وكيلا للديوان، فكان بذلك أول وكيل لنظارة المعارف المصرية

لم تكن نظارة ادواوين — أو الوزارة — في عهد محمد علي منصبا فيه كثير من منادح أو جاهة والراحة ، وإنما كانت عملا فيه صعوبة البداية وكانت عين محمد علي لا تغفل عن محاسبة الطار مهمما قربوا إليه بالشفاعة أو اسعوا إليه «الوسيلة» . وكان يتبع أحبار دواوينهم والعروع التابعة لها حتى لا تكاد تفوته صغيرة بما يحدث . فقد أثبت الامتحان السنوي لتلاميذ مدرسة نبروه الزراعية أن معلوماتهم ضعيفة محصورة ، وأنها لا تتجاوز المعلومات التي وحدوا آراءهم عليها ، ولمع ذلك مسامح محمد علي ، فأرسل إلى مختار بك ، مدير ديوان المدارس كتابا شريدا للتهجئة بنه فيه إلى ضرورة التنبيه على نظر المدرسة بالاهتمام بعمله ، وإلا عرله وجعن مكانه من هو أصبح منه . ثم تشتت الشكوى من تلك المدرسة فيذهب محمد علي إلى نبرة نبروه بمديرية الغربية ليطالع بنفسه على موطن الضعف في المدرسة وليتخذ الأسباب لإصلاحها .

ولم يكن مجلس شورى المدارس أو نظارة ديوان المدارس فيما بعد أول عمل مصطفى مختار بك بعد عودته من البعثة النمسية في راس سنة ١٨٣٣ . وهنا تختلف المراجع اختلافا لا يصعب معه كشف الحقيقة على وجهها الصحيح فإن الأمير عمر طوسون يذكر أنه عين عصرا في المجلس الأعلى للحكومة ويذكر عبد الرحمن الرافعي بك أنه عين رئيسا لمجلس الأعلى في عهد محمد علي باشا حلفا لعبدى شكرى باشا . وكان هذا المجلس المؤسس في سنة ١٨٣٤ يتألف من طار ادواوين ورؤساء المصالح راتنين من العلماء يختارهما شيخ الجامع الأزهر ، واثنين من التجار يختارهما كبير تجار 'عاصمة' ، واثنين من ذوي المعرفة بالحسابات ، واثنين من الأعيان من كل مديرية من مديريات

الفطر المصرى يتجهما الأهالى . وكان أول رئيس لهذا المجلس عبدى شكرى باشا زميل المترجم له فى البعثة وأحد رؤسائها الثلاثة كما سبق القول

ويذكر مرجع آخر أن تحت ذلك كان فى السنة الأولى من إنشاء شررى المدارس ناظرًا « لمجلس الملكة » وهو مجلس لم أهتد إلى طبعه عنه بجانب المجلس الكثير الذى انشأها محمد على باشا .

وسواء أكان هذا المجلس نصائياً أم داريأياً بما لا شك فيه أن مصطفى مختار بك قد صُرف فى بعض وظائفه عما تخصص به فى بعثته فرنسا . فقد أرسل تعلم الإدارة الحربية والأموال العسكرية ، ولما نراه بعد هودته بوضع فى ميدان غير الذى كان يجب أن يكون فيه . فما كان له شأن بالتعليم ، ولا لإدارته الملكية التى تخصص فيها رتبة فى البعثة عبدى شكرى باشا . وسكنه على كل حال نفع فى نظاره المعارف وفى الإدارة المدنية على الرغم من عدم تخصصه فى دراستها .

على أن أكثر ليادين اتصالاً بدراسته كان نظارة الأشغال العمومية التى ولها بجانب نظارته للمعارف ، كما ذكر ذلك « بورخ » فى تقريره عن النظارة ، وبما لا جدال فيه أن كثرة تنقل الموظفين وعدم وضعهم فى الأعمال التى تخصصوا فيها كان مما لفت أنظار الأجانب فى مصر من زعم غير قريب . . .

ولا شك أن أكبر خدمة أسداها المترجم له إلى التعليم هى كثرة عنايته بالكتب الملائمة لتلاميذ المدارس الابتدائية ، فقد لاحظ الدكتور

« Bowring » في تقريره أن المدارس تعرفها المكتبة الأولية المناسبة إلى حد يدعو إلى الرثاء . . . وتأشد المترجم له — وكان معاصراً له — أن يعمل على تلافى ذلك النقص ؛ وقد وعدته مصطفي مختار بك وأنجز ما وعد في الحدود التي تسمح بها ظروف مطبعة بولاق الأميرية التي كانت في ذلك الحين تابعة لليونان امدارس ، والتي كانت منحة بالمطبوعات الرسمية وما كتب الأدبية القديمة ، والمكتبة المترجمة في العلوم المختلفة للمدارس الخصوصية . ولا يذكر تاريخ التأليف والترجمة في عصر محمد علي باشا أن مصطفي مختار بك قام بنفسه بعمل في هذا السبيل . . فهو ليس من أعضاء البعثات المؤلفين والمترجمين أمثل على باشا مبارك ورفاعة بك الطبطبائي ، ومحمد يوسفي المهندس ، ومحمد علي انبقل باشا وأحمد حسن الرشيدى بك الطيبين ولكنه نبغ في الإدارة ، دوماً عظيماً ، لولا ما كان فيه من « حدة » يقول لسيو هاموند أنه اكتسبها في أثناء إقامته في فرنسا . . . وأغلب الظن أنها طبع فيه . وكثيراً ما جئت عليه هذه الحدة فاصطدمت مع محمد علي باشا ، ولست أذكر العاهل العظيم كان يقدر مواهبه فلا يلبث أن يعقوب عنه . ومن ذلك ما حدث عند ما كان ناظرراً لمجلس الملكية « فإنه لم يصغ إلى إرادة الجناب العالي الأمرة بأن يقتصر عن تنفيذ ما يصدره المجلس من قرارات الأحكام فلا يكتب بنفسه مذكرات ، بل ركب رأسه ونادى في اتباع عاداته . . فكتب مذكرات تنافي أحكام مجلس مناعة أوقعت أصحاب المصالح في الارتباك . . وسكبه لم يقطع أماله هذه المرة أن أن ينتهي عن شرط جبرونه واستبداده ولا في أن يزل فيندمج في صفوف بني آدم ، ولذلك فقد صرف النظر عن معاقبته » .

وقد ظفر بعضوية بعثة محمد علي باشا اثنان من أسرة المترجم له : أولهما
ابن أخيه أحمد الذي أرسل مع عمه في البعثة الأولى إلى فرنسا سنة ١٨٢٦
مباشرة لترغخ الطنجي وعلم المعادن ، ولكنه أعيد قبل إتمام دراسته
سنة ١٨٢٤ لارتكابه بعض المخالفات لحرمة علي الزما في باريس . وثانيهما
ابنه مصطفى باشا مصص مختار الذي سافر إلى فرنسا في بعثة سنة ١٨٤٤
لدراسة العلوم الحربية ، ثم عاد بعد إتمام دراسته ، فتقلب في وظائف كثيرة
مها وكالة للاحذية سنة ١٨٦٦ ، وعصرية مجلس لأحكام سنة ١٨٦٧ ثم
عين مديرا لفرقة سنة ١٨٧٣ في عهد الخديو إسماعيل باشا .

ولم يتميز مصطفى بمكانة بين رجال عصره بمرية أدبية أو عقلية كتابية
كما امتاز رفاعة بك الطحطاوى وعلى باشا مبارك والشيخ نصر الطوريني العالم
اللعوى المشهور الذي كتب أماما لبعثة سنة ١٨٤٤ في باريس ، كما كان
الشيخ رفاعة بك عندما لبثته سنة ١٨٢٦ . فلم يعرف عن المترجم له أن له
حبيصة أسلوب أو مرة أديب ، والسبب في هذا واضح كل الوضوح فأنه
لم يكن من رجال الأزهر كما كان رفاعة بك والشيخ نصر ، ولم يعرف حياة
النسب في المكاتب وفي السكنايت كما عرفها علي باشا مبارك . ولم يحفظ لقرآن
كما حفظه . ولكنه أتقن إلى مصر من «قولة» «أعما» وأخير للبعثة وهو في
الزمان والعشرين من عمره . ومن هنا كانت معرفته بالأدب العربي غير
وثيقة الصلات . ولكنه استعاض من ذلك بجوانحه في الهندسة العسكرية
ونبوغه في الإدارة ، مما جعل الوالي الهميد النظر محمد علي باشا يطمئن إليه
في القيام بأوبرة ليعرف في مصر .

ولم تنفعه دنايته الوزارية في بطون المعارف ولا شعاع أن يأخذ
بصديه من ارتب العسكرية بحكمه ، كان من طبيعة بعثته الحربية في باريس

فأصبح عليه الوالى برتبة أمير اللواء . كما أصبح عليه برتبة السكوية . ومن عجائب
الافساد أن القدر لم يمهله في خدمة الوالى العظم حتى يظهر برتبة الباشوية ،
التي ظفر بها ولده مصطفى باشا الذي سبقته الإشارة إليه .

ولم تزل مدة مختار بك في وزارة المعارف ، فقد توفى إلى رحمة الله
وهو قائم بالقطارة في مايو سنة ١٨٣٩ كما يذكر المؤرخون ، وقد تابعهم في
ذلك مؤلف كتاب التعليم في مصر في عصر محمد علي ، ولكلنا نجد أنفسنا
أمام نصيب آخر من معاليم . فقد ذكر المرحوم أمين سامى باشا أنه انفصل
عن الوزارة في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٣٨ . ومفهوم هذا النص أنه توفى في
سنة ١٨٣٩ بعد انفصاله عن وزارة الديوان . وذكر المرحوم الأمير عمر
طوسون باشا أنه حصل من بشاره الديوان في ١٧ مايو سنة ١٨٣٩ . ويذكر
أمين سامى باشا أن إبراهيم أدهم باشا قد حلف مختار بك في قطارة المعارف في
١٥ مايو سنة ١٨٣٩ فهل معنى هذا الذي ذكره أمين سامى باشا أن منصب
الوزارة ظل شاغرا من نوفمبر سنة ١٨٣٨ إلى مايو سنة ١٨٣٩ أى حوالى
سنة أشهر في وزاره ناشئة لم يكن فيها وكيل بصرف أمور هاتى ذلك لتاريخه .
قلت إن مصطفى مختار بك لم يكن له مشاركة في الألب والحياة الادبية
بمصر إلا ما كل من جهوده التوجيهية في سياسة التعليم في وزارة حمل أول
أعمالها ، وأسبغ إلى خلفائه من بعده ليعملوا الامانة في عنيب بما يحقق لمصر
ثقافة ، يليق عاصيها وحاضرها . ولكن الأدب كان له نصيب في تجميع ذلك
أرائد الأول ليعمل في فقد مسح الشاعر محمد شهاب الدين إمام شعراء ذلك
العصر والشاعر ارميى للحدوي عباس باشا الأول بقصائد عديدة منها
قصيدة طريقة يهنا منها بيتان في وصف همة ذلك الزائد التلميذ الأول
عزيمة كالخسبام قطعا تمر كالسحب إذ تسير
وهمة دونها الثريا وهي ظا في الزرى مسير

الشيخ محمد شهاب الدين

شاعر عباس باشا الأول ١٧٩٥-١٨٥٧

ذكرتنا المقدمة البسيطة التي قدم بها الدكتور حسين هيكل باشا ديوان البارودي بواحد من شعراء مصر الذين كانوا نواة ظهور محمود باشا سامي البارودي ولمرساء بعدد من كبار الشعراء المصريين؛ أمثال إسماعيل صبري باشا وأحمد شوقي بك وحافظ إبراهيم بك وخليص مطران بك هؤلاء الشعراء الذين أنزلوا مصر في الشعر صراحة أدبتها من منزلة العراق ولشام والأندلس والحريرة العربية في أيام نهضتها الأولى

وهذا الشاعر الذي حطرت بالمال هو الشيخ محمد شهاب الدين ، شاعر الخديو عباس باشا الأول ، والشاعر الرسمي لمصر الخديشنة بعد أيام محمد علي باشا بقليل

ولم يكن هذا الشيخ ربيب الأهر ، ولا أليف العلم في أول شبابه ، وإنما كان ورعاً صريحاً في أسواق البيع والشراء ، يمتدح القرب والعاقب ، ويكتدل ويكيل ، ويقبل الساس على الوزن عمده نذمة عرفت فيه وأمانة اشتهر بها .

وكان هذا الوزن المائتي في الأمواق النافقة واسكاسنة كان نميلنا للوزن المعنوي في سوق « لقريض القصيد » . فقد أصبح هذا لورن شاعراً ورسماً ، للحديد ، ياب القصيد ، ويقطع الأبحر والنفاعيل ، ثم يغني الناس بشعره وينسامرون ، لما اشتمل عليه من فكاهة مصرية خفيفة ونكتة شعبية لطيفة .

والشيخ شهاب لدين مصرى المولد ، مكي الأصل والمختد ، كما أشار هو إلى ذلك في مقدمة ديوانه الذى طبع بمصر سنة ١٢٧٧ هـ سنة ١٨٦١ م . ومن العرب أن ميلاده بمصر أكسبه انكته الباصرة واليدية الحاضرة . فطار اسمه في كل ناد وداع صوته في كل حفل ، حتى تسامع به الخديو عباس الأول فأحب أن يراه ، فإد به يرى شيخا معمار يروى كثير . ويشتد كثيرا ، ويحفظ كثيرا من النكات السريعة ، ومن اللطائف الأدبية . وهو مرق ذلك صاحب ظل خفيف وذوق سليم ودكاه دادر ، فأجبه وقربه إليه وأسماه من مجلسه وحده صاحب أسناده وكبير مدعائه . وكان يراجع إلى محسبه ويظمن إلى حديثه . وأباح له الدخول عليه من غير استئذان فهو به حتى كريم

ولقد بلغ من دكاه الشيخ الشاعر أنه صادف من نفسه هوى إن نعلم الموسيقى ، فأخذ يتملأ صولطا ويتلقن قواعده ، حتى أحادها وبرع فيها البراعة كلها . وألف كتابه المشهور دسمة الملك ونقيصة النعت ، جمع فيه كثيرا من الموانب ودوائر الموسيقى وأودعه كثيرا من مقاطيع الروابط وقصائد الضوابط . وكان الشيخ س . بعد حفظ كثير يتنذر في مجالسه بالشارد من أبيات العرب ، ويدير على آذان السامعين أثر ما كثيره من شعره وتلحينه ونواذره وطرائفه فلا يمين له مجلس ولا تنصرف عنه أذن ، ولا يتلفظ عنه قلم . وقد بلغ من أعجاب الخديو عباس به وتعلقه بنواذره وبدائع طرائفه أنه أعد له في كل قصر من قصوره حجرة خاصة به يقص فيها هاره ويبيت فيها إليه كلما طلبه للخدمة ، أو أراد به على المفاكرة والمحادثة ، وتلك منزلة لا تعلم أن شاعرا وصل إليه في عصر النهضة الحديثة منذ أيام محمد علي . إلا ما كان من أمر الشيخ عن اللي

وعجب جدا أن يرجع الشيخ شهاب في الكتابة ويظهر في الشعر ويتناز

في المتأخرة وهو لم يتعلم العلم الذي كان معروفاً في زمانه ولا سار على طريقة
أهل عصره . ولكنه حسن نفسه على القراءة . وراصها على المظالعة ،
حتى دل له كل جناح . وانقاد به كل صعب . وملك ناصية اليل . وأصبح
يصرف الكلام في الأدب على فنون من القول ، لاتساع مدى محفوظه .
ودبوا انشباب يصور لنا أجمل تصوير وصدقته حالة مصر الاجتماعية
في من عباس باش الأول . وبصور لك كذلك اتجاه الشعر وحرية على
طريقة كتب له أن يتجرس بها على يد البدوي ومن أخذوا أحده . وهو
مقسم إلى سبعة أجزاء : الأول في مدح النبي عليه السلام ، والثوميل بحامه
والناس الشفاعة عنده . وهي طريقة شاعت في مصر في عهد المماليك
والأثرات ، ولا أقصد المدح وإنما أقصد الإكثار منه وتخصيص جزء
كبير من ديوان الشاعر له . والابن المسح البوي قديم من أيام لأعشى
الذي يقول مخاطباً فاقته :

متى مانأحي عند باب ابن هاشم تراحي وتلقى من فواصله ندى
نبي يرى مالا ترون . . وذكره أعار لعمرى في البلاد وأنجما
وأكثر أقسالم الديوان وأمزما هو قسم مدائح أرباب الدولة وأصحاب
الجاه والشوكة ، وليس هذه عرياً في عصر الشاعر ولا مستهجاً منه
عقد كان مما يقرب الشاعر ويحفظه أن يمدح وأن يطيل في المدح ، وأن
يلتمس عند كل واحد من أصحاب لتفرد بتحقيقاً لأماله ومساعدة له .

وأول من مدحهم الشيخ شهاب صاحب السلطان الأول في مصر
وهو ولي نعمتها الخديو ، وهو يبدأ هذه المدائح حينما ربت له الكسوة على
نحو ما كان معروفاً في ذلك العصر . ثم يدخل في المدائح وانتهى في المساميات

السعيدة والفرص التي يسقط الله على المموجين .. من شفاه من مصر ،
أر عودة من حجع أو فرح بختان ، أو اجتماع شعبي عام .
ولقد مسح الشيخ شهاب الدين مؤسس الأسرة العلوية — محمد علي باشا
وولده إبراهيم باشا . وهما البطل الفاتح إبراهيم عند هودته من حروب
الشام بقصيدة بونية . يقول فيها :

يا عريراً لا يضاهي أبداً عزه يكسو العدا ثوب الهوان
كم حروب كشفت عن ساقها خاضها طرفك مطواع العنان
بجروش شمرت عن مساعد ماله يوم نزال من نوان

وفي الحق أن اتفاده بالخدوي عباس الأول يرجع إلى ما قبل تنصيبه
والأى على مصر . وذلك حينما كان عباس باشا كخديوا لجدده محمد علي . يمكن
الشاعر رحمه الله في كل مناسبة . ولعلت هذه الأتاني المتعاقبة نظر عباس باشا
إليه . فلما صدرت إليه ولاية مصر بعد عمه إبراهيم استنعاها وأذناه .

وكان في الشيخ شهاب حراً على الخديو عباس ودالة عليه . يسأله في
كل شأن من شؤنه أو في كل حاجة تعرض له ، فيعطيها له الخديو قصداً
الكفين بالمطالب المحقق لرغائب .

وبعد القارىء هذه الأبيات التالية من تلك القصيدة الطويلة يستطيع
أن يحكم على حمة روح صاحبها وأن يتبين منها مواضع البراعة والاحتبال
في السؤال حيث قال :

تمت عن مدح غير بابك يا من أنت ذخري ومرئى وثمانى
وتجردت عن سواك نعلى أكنسى حلعة السنا المتلالى
وترجيت من جميل العطايا فضلة حالها يلى بحالى

إن بدا لي ركوها نمت عجبا في ارحمها وجهته واحتيال
أر بدا لي ارتباطها باحتلاها في بحار انجاس زين بحال
فمنصن ومن رأيهم على من هو عبد من بعض عبد الموالى
ولما آلت الولاية إلى سعيد دائما فصل الشاعر به ومدحه وهناه في كل
منصة عرضت أو فرصة سبحت . إلا أنه لم يحز في عصره ما حازه في
عصر عباس الأول ، ولم يبق منه مثل الذي لقيه

ولم يكن مدائح شهاب الدين مقصوده على الولاة ، ولكنه مدح من
دوهم من رجال الحكم والجاه ، أو الشرف والسب . فمدح الشريف محمد
بن عوف ، والشريف عبد المطلب بن غالب شريف مكة لما أنشأ أبعه
حصن في طريق لمدينة امبورة لتأمينه ونشر السلامة فيه . وامتدح
براهيم باشا بكى ، وامتدح محفل لقاهرة ، وامتدح قطر اسواوين وخاصة
مظفر الوقت والمعارف

والعجيب من أمره أنه كان يسم شكواه ووعرائضه ، وطلاماته إلى
الحكام شعرا لا نثرا . اومن العجيب أن يبيع الشعر لكل هذه الاعراض
ضاققت به الامور يوما ويحوى واسمه وسكتب إلى (حازن خريفة
الحدوي) واسمه عبد الباقي ع يطلب منه صرف مرتب شهرين ويقول :

أصبحت في مصابيح من هافة وعصب
وصرت محاسبا إلى نوالك المستعنف
وأنت باق الحكما وخير ساي الرقب
فأصرف إلى مالكا من هصة أو ذهب
حتى أعود ساعيا في بهم شمس الحبيب

وله مدح في مصطفى بك مختار مدير المدارس ، وفي آدم باشا من كبار رجال المعارف في ذلك الحين .

ويظهر أن هذا الشاعر قد أجاده من الشكوى من سيق العيش ، وتأخر المرتب أو قلته ، وعدم غناؤه بحاجات العيال . وكان يطيل في ذلك العرض القصائد وسجعها ، وهو في ذلك يحايط الشكوى بملح ، ويمزج اللوعة بالتهنئة وكأنه يرضى لمرض لا للهتة في الدنيا ، ويمدح لحاجة في نفسه ، لا لأن المملوح يستحق منه ذلك ويستوجبه .

تأخر عليه مرة صرف الشهيرة أي المرتب . ويظهر أن ظلم المرتبات والحسابات ومر جفها والنفقة في أدائها لم يكن شأنها في ذلك الحين فكتب إلى : آدم باشا يقول من قصيدة بحيرة طويلة :

وهدر إلى شكوى وقل أن صاحبي عا دمه عصص الرياح الزوامس
وفد صاقت الديق عنه وأطلبت وكان شهابا في الديسج لسوامس
فوسع عليه بالدى أت أهله وخلصه من أشراك صيق المناس

كان العصر الذي نشأ فيه الشيخ محمد شهاب الدين عصر صناعات عظيمة ومحسنات بدعية ، وهو أثر من آثار عصر الأتراك الذي تنه فيه الشعر إلى هذا النوع من الكلام اتخذها قصص من قيمته وحط من شأنه ، وجعله مجرد ألفاظ مرصوفة ومن مصفوفة لا عناية فيها معنى جليل أو فكرة أو حسن دقيق .

وكان من الطبيعي أن يحول الشيخ شهاب الدين في هذا الميدان ويحول ما دامت الأنواق لا تزال على حالها من ولوع بالجارح القوية والريبات اللفظية ، ولهذا ترى ديوان هذا الشاعر زائرا ، ينقص لا نهاية له من هذه

المحسنت ، هو يتكلمها تكلفا ، وتصيدها هيدا ، ويحصل في الوصول إليها بكل حيلة ممكنة لديه .

ومن الظواهر العربية في شعره أنه أخذ من اسمه ، شبهت ، آله ميسورة لاصطناع الكناية الرقيقة أو التورية الخفيفة أو الجناس لدى يحلو حيث ويسمح أحيانا

هو يقول في ص ٢٩ من ديوانه الذي لم يطبع غير مرة ، وحدة مادحا الخدير عباس الأول قبل توليه حكم مصر .

هك هني خريدة بنت فكر ما اعترتها بد احشا بماس
لو اتاه الشيطان يمدرك المسجع رماه «شهاها» دتلكس ..
فهو هيا يحشر الشيطان حشرا في القصيدة لكي يسلط عليه اسمه وشهادته
مشير بذلك إلى قوله تعالى في سورة الجن ، (وأما كما تقعد منها مقاعد
للسمع من يستمع الآن يجد له شهاها رصدا)

وقد تكون هذه التورية مستباحة ومقبولة لو أن الشاعر لم يكثر استعمالها ، أو يطن من إثارة المداخل عليها . فقد أهلكك ذلك حتى كادت تكون مخلولة في الأذن ، مرفودة ثقيلة على السمع ، فهو يقول مادحا ومهثا أدم باشا مدير ديوان المدارس بمناسبة عودته من أوروبا :

هاك مني وصييفة بنت فكر مثلها خادم ومثلك يحمد
حرمست في سماء حسن حلاها (بشهاب) به الشياطين ترجم
ويقول في مدح الشيخ أحمد الصائم شيخ الجامع الأزهر وتمنيته بالسلامة
من مرض اعزاه :

هذا «شهاك» بالمرصاد يقب من يستمعون وتزدهم فوافيه

ويقول مورياً أيضاً باسمه شهاب :

لَبَّ بَيْنَ الشَّهَابِ وَالْبَدْرِ بَرًّا هَلْ تَسَاوَى فَرْعٌ وَأَصْلٌ أَصِيلٌ
أما الجنس — وهو اتفاق الكلمتين في اللفظ مع اختلافهما في المعنى
شائع في شعر الشهاب ، ولا شك أنه كان يحمله عملاً استجابة للسوق
عصره . فالشعر في ذات العصر كان يقاس وبوزن عا حوت قصائده من
هذه الصاعته الكلامية التي لا تعدل شيئاً في زماننا . وأعلب جناسه كان
في مفتتح قصائده ومستهل أماته ومقطعاته . ولو أخذت نحصى عليه ما استعمل
من أنواع الجنس لخرج بنا القول عن المقام ، فنكتفي بإيراد بعض الأمثلة
للدلالة على ما نقول :

وهو يخاطب عباس باشا الأول ويستهديه « بعله » بقصيدة أولها :
أَكْتُمُوسُ بَحْلِي سِنْتَ (الدوالي) أُمُّ شَيْهِ لِرِصَابِ فِيهِ (الدوالي)
والدوالي الثانية وهي مركبة من كلمتين . الدوا وأصلها الدوا ، ومن حروف
الجر مع ياء المتكلم « لي »

ويقول « محسناً » أيضاً في مطلع قصيدته يهني بها عباساً بعدودته من
الاستماتة :

شرح الصدور قدوم أعدلي (وال) فأدد مدام الألس صاحو (وال)
ويقول في مطلع قصيدته يهني فيها الخديو أيضاً بسلامته من
الطواء الأصفر :

تاب الرمان وقال إني (نادم) فادع النملاي والمدام (ونادموا)
ويقول أيضاً في تهنئته بمولده لمحمد الصديق :

جاء الرمان وأبدى ليه (القدر) وضع نجل حين الثمان (والقدر)
وهكذا نرى التكلف المزدوج في استعمال الجرس واصطلاح الألفاظ
التي بها يتم مادها، ولله وقصده وقد يكرر الجناس في قصائده أكثر من
مرة، فتراه يستعمله في هذه القصيدة أو تلك، وتحس حين يشرقه بسياحه
النعمة المسكرة، وتقل الكلام المردود، وأحسن مثال على ذلك التكرار
جاس كلمة «الدوالي» فقد أعاده في قصيدته التي ينتهي بها عيسا بقوم
الأميرة شقيقته من الاستانة حيث يقول :

صاح بها كائنات (الدوالي) واسفلها فأب فيها (الدوالي)
علي أن بعض هذه الجناسات والتورية كان يحتق من مطالع قصائده
ويظهر في أثناء التقصدي وسط الشعر، كقوله في مدح صبحي «ت نجل
عبد الباقي ملك الذي كان في ذلك الحين أميناً لخزانة الحبيب :

كم أرى «سائل» دمعى في حبي فضلك يُنهر
والتورية في كلمة «سائل» غامضة واضحة، وفيها إشارة إلى قوله تعالى :
«وأما السائل فلا تنهر»

وأعرب من ذلك كله هو إعراف هذا الشاعر في استعمال مصطلحات
العلوم وخاصة علم النحو والصرف، فهو يذكر «الحال» مورياً بين الحال
بمعنى الشأن والحال التي هي من منصوبات الأسماء في علم النحو، ويذكر
«الضمير» ويوري بين الضمير الأساني Conscience وبين الضمير
النحوي Pronoun ويذكر الأمر والنهي ويقصد مدلولهما في علم النحو.

اسمعه يقول في مدح مصطفى خنار بك مدير المدارس :
رأيت «حالا» «دمعى» «فعل» «أبرر» في «شأنه» «الضمير»

فكل كلمة بين هاتين في هذا البيت تحمل طعناً أو به نحوه من حال إلى فعل ماض إلى إمرار الصمير إلى صمير الشأن . وهي كلها مصطلحات في علم النحو

واسمعه يقول مادحاً سامي بأشأ ناظر الوقائع
هو الفلأث المحيط بكل معنى وفيدض الفضائل في الأنام
(بيان) حل (منابه) (بديع) وسحر حديثه حكم الكلام
فهو يورى هذا في شطر واحد من البيان والمعاني والبديع
واسمعه يقول مدحاً حسن بأشأ محامد العصمة ومروية في الحقيقة
والبحار من علم البيان :

ما لأيديه في « الحقيقة » شبه إذ « بحار » النوا في « درس »
فاستمع من هاتيك الحقيقة والبحار المرسل وهي من مصطلحات علم البيان
ويقول في القصيدة نفسها مشيراً إلى عمل أنصرف النحوي :
عن الصرف في الضرورة تلمى كعب ذو الصحة احتاراً يعتن
ويورى في قصيدته لأبراهيم بك رؤفت وكيل ديوان المدارس بعض
مصطلح الحديث فيقول :

إن على دعوى الموى والحب لي صحيح قوية
(وحديث) أشواق إليك « مسلسل » « الأولى »
وكان الثبات أوسع فيما أوسع به من محنتاب الكلامية باستكثاب
الكثيرة فهو لا بدعو القمر لراً ولكن بسميه « سلب الشمس » ولا
يسمى البحر خراً ولكن يدعو هاء اسم لسكرم « ولا يسمى قصائده قصائد
ولكن يسميها « وصائف » أو « أمكاراً » أو « أواس » أو « إليها » .

لأنها من بنات أفكاره . ولا يسمى المطر أو الماء باسميهما ولكنه يقول .
(السحاب) (وان المرن) .

اسمه يقول من قصيدة لمبدى بك حارن الخزانة الخديوية :

روجت « بان مزنة » « بنت كروم العنب »

ويقول بمسح السند محمد الكرى شيخ السادة السكرية وتقيب الاشراف

في وقته :

« بنت كرم » عذراء شهيد لها « كشذا المسك في مذاق انصار

ويقول في القصيدة نفسها :

روجوها « بان السحاب » جومت من درارى حباها بنزارى

وهذا المعنى لطيف ، وإن آخر لما مر جيت ، الماء حدث من هذا المرح

أو الزواجر ذرية كثيرة على الجانب الذى يلقون على وجهها كالدرارى المشورة

ويقول في مدح طارف بك شيخ لإسلام فى تركي

أرجو قوبه وصيصة « قد قلت بحلاك عقداً لم تنه وصائف

فهو هنا يكتفى عن قصيدته بالوصيفة .

ويقول في مدح الخبير عباس كاول :

هاك منى حريدة بنت دكر ما اعترتها يد الخنا بميام

ويكرر الشطر الأول منه في قصيدة أخرى يمدح بها الشريف محمد

ابن عرب ولا شك أن هذا التكرار الكثير فى الألفاظ والأنشاد والمعاني

والجناس والتورية وغيرها ليس دليل قدرة عند الشاعر ولا علامة تمكن

ولا إحاطة ولكن دليل الجبال المحدود غير المحدود فهو يقول للشريف

هاك منى خرمدة بنت فكر بهرت فى منصة رداف

والشطر الأول هنا كالشطر الأول من قصيدة عباس .

وعاد سبب إليه الشيخ محمد شهاب الدين في شعره استعمال « التاريخ » وهي بدعة شاعت في عصره الشعر المتأخرة ، وكان ما في ذلك الزمان شأن وأى شأن . وإذا ، اجعنا دويون الشعر أم منذ أيام محمد علي ، انشا إلى العشر الأولى من مطلع القرن العشرين وجدناها مفتوحة باستعمال التاريخ الشعري ولم يسلم من ذلك شاعر واحد . حتى امتدت العلوى إلى شعراء في العصر الحديث نعدم من الفحول ونخصهم في شعراء الطليعة كالمرحوم إسماعيل صبري باشا في إن المتصفح لديوانه الذي طبع أخيراً في ثوب من العتيه والرواق على يد المرحوم الشاعر أحمد لرب — يرى الشاعر الكبير يستعمل التاريخ في بعض مقاماته .

على أن هذه البدعة الشعرية قد ماتت في زماننا هذا ، ولم يعد محمد افقه من ييكى عن موتها أو يتطلع إلى إحيائها ، ففقه أدرك شعراء العصر الحديث ما تقتضيه صسعة التاريخ الشعري من التكلف والعنت والعزورات التي قد تضحى باللفظ العمم النليل ، أو الأسلوب العالي المستوى إلى لفظ ساقط أو أسلوب ركيك لتستقيم « أحسنه النارية » وتصفط « عملية الحساب » لقد عى الشيخ شهاب « التاريخ » شعري عذبة فائقة ، واحتص به جر ما كبيراً من ديوانه . فهو يؤرخ لكل سادقة في زمانه أو لكل مناسبة من مناسبات عصره البيتين أو الثلاثة إلى الخمسة . ولم يؤرخ شعري من تؤرخه على ستة أبيات ، ولم يقل عن بيتين .

فهو يؤرخ ببناء القناطر الحيرية سنة ١٢٦٢ هـ ١٨٤٦ م في حمسة أبيات ويؤرخ اتولية عارف بك منصب « شبيحة الإسلام » في تركيا بيتين ، ويؤرخ

مقنطرة جدها ابراهيم باشا نجل محمد علي باشا سنة ١٢٦٤ هـ ويؤرخ لستر
الكعبة المشرفة سنة ١٢٤٣ هـ ويؤرخ لوفاء الأميرة حواء هانم آحت
احديو عباس باشا الأول سنة ١٢٧٩ هـ ويؤرخ لكثير غير ذلك مما عظم
أهـ هل من أحداث إرمان .. يؤرخ لانشاء مطبخه أو بناء حمامه أو
وصع غلام ... !

ويظهر من مطالعة ديوان الشيخ شهاب الدين أنه كان خفيف الظل ،
بارعاً في الطلب ، وكثيراً ما عاد من مطالعته بحاج الدعاة ، محققاً لرجاء ، فهو
يعطى بغنة من الحديو عباس - كما صاف القول - في شعر لطيف خفيف
فتجانب حليته وكان له السمن ، نادر الوجود في زمن من الأرماء فيكتب
قصيدة طويلة الى عبي بك حسدب أمين جمره ، ولحق بطالبه بمقداراً من
السمن بالحق .. ويقول فيها :

أليت بالسمن أو بزبدة لله در أصحاب الحليب
لأعرض الخال للمقي الذي رجاء من يرجوه لا يحجب

ولقد مدح الشهاب كثيراً من أعلام عصره مثل محمد علي باشا و ابراهيم
وعباس الأول . ومدح آدم باشا وعقتر ملك نظري المعارف أو هندري
أدارة المدارس كما كان الاسم في ذلك الحين . ومدح الشريف ابن عوى
وعادف بك شيخ أهلام مركيا والسيد محمد البكري . عيب الأشراف والعبداء
الضايخ محمد العروسي وحسن العطار وحسن القويضي وأحمد الصائم شيوخ
الجماع الأهر ، والشيخ محمد العباسي المهدي المقتي . والشيخ محمد عيش
شيخ السادة المالكية وغيرهم

وكان يخاطب بسوجيه بالسكى المشهورة لأسمائهم ، فيخاطب علي

بأبي الحس ، ويحاطب عمر بأبي حفص ، ويحاطب عبد الرحمن بك مظهر
بأبي عوف في قوله .

هائسره أبا عرف ، بعفو وحطوة وطلب طربا واشرب على رنة المزهر
وعلى الخمة فهو مثال جيد لشعراء مصر في النصف الأول من القرن
الناصح عشر الميلادى ، وشعره صورة مصححة عصره ومراة صادقة لبيئته
التي كانت خاتمة لعصر سبق وعمودا لفتح عصره الحديث

و لقد جمع الشهاب ألى الشعر الكتمانة فأشهر فى عصره بالبيعة فى
الأنشاء بما جعل ولاية الأمور يستندون إليه رئاسة محرر (الرفائع المصرية)
بعد أن تغلى عنها السج حس العصر حينما أسند إليه شقيقه الأزهر
أشريب وانتقل الشاعر بعد ذلك من تحرير الوقائع إلى ريسه التصحيح
بالمطبعة الأميرية .

وكانت فى الشباب ناحية موسيقية بارزة جعلته أستاذ هذا الفن فى عصره
فتتبعه عنه الكثيرون ، وأحدوا أصوب الموسيقى العربية وقواعدها على
يديه . وله فى ذلك كتب « مهينة الملك » . وهو فو كويه جامعا لفن
الموسيقى والأغاني يشتمل على كثير من الشعر العربى الرقيق وقد طبع فى
القاهرة عدة طبعات .

ولا شك أن اتصال الشهاب بالحديث عباس قد أصفى على شعره من
الخط ما جعله فى مقام الصدارة فى عصره . ولكنه على كل حال كان أحق
من سواه من الشعراء بمرتبة لم يسم إليها معاصروه

وأظن أننا نكف : حال ذلك العصر شططا إذا طلبنا منهم أن يكونوا
أحودى وصيورا إلىيا . فقد كرتهم بينهم التي استنابوا لها على أحسن
ما يستطيعون . ثم مهدوا السبل بعد ذلك لمارودى الذي اجتمعت له
ولعصره نسب الإحياء فى الشعر العربى ، فكان بحق معى الشعر الحديث .

هر في بيور الصقانة

الشيخ محمد عياد الطنطاوي

١٨١٠ - ١٨٦١

في سنة ١٨١٦ أنشئ في تروغراد عاصمة روميا فرع اللغات الشرقية ، وكان الفضل في ذلك راجع إلى « أرقاروف » صاحب مشروع الجمع لأمميو .

وأخذت العناية باللغات الشرقية تظهر شيئاً فشيئاً في روميا حتى سنة ١٨٥٤ بفضل اهتمام م . بوشكين باطر معارف تروغرد ، وكانت تدرس فيه بجانب العربية اللغات العارمية والتركية وبلغرية والعينية و الأرمنية وغيرها من لغات الشرق .

ورفي بعد ذلك بمصع سواب - « و على التحدد - في سنة ١٨٦٣ أن يشوى هذا القسم بإنشاء شعبته لتدريس تاريخ الشرق ، حتى تكون دراسة اللغات الشرقية متمشية جنباً إلى جنب مع دراسة تاريخ أقطارها . وأُسندت رئاسة هذا القسم إلى الأستاذ « جريغرياف » الذي رأى أن الاستعانة بالأساتذة المشاركة أنفسهم هي أجدى وسيلة لتعليم اللغات الشرقية ولراغبين فيها من الطلاب لروس وغيرهم من الأوروبيين .

وفي أول العقد الخامس من القرن التاسع عشر عرفنا أدهياً مصرعاً اسمه لشيخ محمد عياد الطنطاوي يعلم اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية بمدينة طهر سبرج . وأصبح به بعد تشرقي عصره صلات وأيقية حتى تملك عليه نضر منهم

من هو هذا الشيخ الططاولي لمخامر الذي ترك الأزهر ، وترك التدريس فيه ، وترك مصر ورحل إلى بلاد كن ملج العم عنها قليلا وعاش فيها حياته الأدبية النعيمية ، إلى أن أدركته منيته هناك ، ودعاه أجله إلى تلك البقعة النائية من الأرض ، فدفن في مدينة « بطرسبورج » بمقدار المسلمين ؟

ذكر الأستاذ توما ديبو المعروف في مقال له عنوان « تاريخ علم المشرقيات العربية » أن اسمه الشيخ محمد عياض . بالصاد لا بالذال ، وأطن أن الأستاذ توما ترجم اسم الشيخ المصري عن حروف لاينية برسم هكذا *Avvmed* خمس حروف *D* صاد آ بدلا من جعله دالا على حقيقته والصواب أن اسمه عيبد لا عياض . وأن اسمه الكامل هو محمد بن سعد بن سليمان ابن عياد المرحوم - نسبة إلى محلة مرحوم من أعمال مديرية الغربية ولست لمحلة بنار مولده ، ولسكنها دار أبيه . أما مولده في قرية بحريه من أعمال مركز طنطا ولكن غيب على اسمه النسبة إلى مدينة طنطا عاصمة مديرية الغربية . فصار مشهورا بهذا الألقاب في الجامع الأزهر بالططاولي

وليس هناك معلومات وثيقة عن نشأة الشيخ عياد وحياته الأولى . وقد لقي المرحوم أحمد بيمور باشا عنا كبر أحيانا ترجم له في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق حتى لقد استقى معلومات هائلة من الشيخ عبدالمعطي السقا أحد علماء الأزهر « مجموعة مباحثه هذه واستخلصه من مؤلفاته »

ويعد الشيخ محمد عياد الططاولي من أواثن علماء الأزهر الذين انجذبوا في التدريس وجهة أدبية ، بعد أن لم يكن لذلك مكان في الأزهر ، ولقد

حيا الشيخ عياد في هذا حذو أستاذة الشيخ حسن العطار التي كان عنده من اللازمات الأدبية ما جعل له مقاماً ملحوظاً في شامع الأزهر وفي غير الأزهر في ذلك الوقت .

وما من شك في أن هذه الميول الأدبية في بيئة الأزهر كانت إلى ذلك الحين تعد قطعاً على العالم الأدهري . وتوجه مسجلاً للدين يريدون أن يالوه فقد نصب على الأستاذ الشيخ حسن العطار حجة من علماء الأزهر بسبب «عاهة الحديدية» وميله الأدبية ، ولقي من إخوانه طريقاً يؤيده ومريقاً يعارضه . وكان من مؤيديه الشاعر الشيخ محمد شهاب الدين شاعر الخديو عباس الأول الذي صور هذه الخصومة بقوله :

كم زهط اجتمعوا نطقاً ووره والله كان متمم الأبور
لم يطغروا يوماً بفيل رامهم ولعيطهم عصوا على الأطفار
وما من تمت أبصاً في أنه كان بدءاً في ذلك الحين أن ينصرف بعض
إلى التمسر والأدب بدلا من إعرافهم في مباحث العقيدة والحديث .
و - الصنطاوى م يزال لما اصطلح عليه شيخ عصره وعلماء زمانه ومضى
في طريقه مدرس لطلابه في الأزهر مقامات الحريري وبشرح لهم غريب
أماظها . والله كان يصرفهم بمواطن حسن والقسم فيها ، فقد كان فيه توفيق
يدل على حسن تدقيقه للأدب .

وليس عجيباً أن يكون الشيخ عياد الطنطاوى ممن يدركهم تشنرل آدمس
وأن يخصه بصفة سطور في معرض حديثه عن المحاولات التي دلت لإصلاح
متاهات الدراسة الأزهر (١) .

(١) الإسلام والنجديد في مصر — تأليف تشنرل آدمس — ص ٢٩

ولهذا كان رجال السعفات من الأهر قد أقروا من معاصريهم في زمن محمد علي باشا كثرآ من اخود والمقاومة فإن الشيخ الططاوى لم يلق من المعارضة مثلهم ، لأنه كان معتدلاً في نزعه ، ولأن ثقافته إلى ذلك الحين كانت عربية خالصة . فما عرف شيئاً من التيارات الجديدة التي سبقت إليها وملاؤه الأزهريون العائزون من السعفات .

ويظهر أن أثر الشيخ حسن الططار — وهو العالم المستنير بشهادة الأستاذ هولتز^(١) — لم يكن وحده كل شيء في تكوين ذلك الشيخ المجدد فقد أتبع الطنطاوى من الاتصال بالأوربيين في مصر ما لم يتبعه غيره من شيوخ الأهر . ونعرف إلى رئيس « الإرسالية البروتستانتية » لما اشتمل مدرساً مسرهماً في القاهرة ١٨٣٥ وفي ذلك الحين تعرف عليه من المستشرقين الواصلين على مصر الدكتور « برون » الفرنسي Perron أستاذ لطبيعته والكيمياء بمدرسة الطب المصرية ، وكان يعرف العربية كسنة وقرأة وحدثاً ، كما تعرف عليه الدكتور هراش R. FRAEMH الألمانية الذي كان أبوه مدرساً للمشرقيات في كلية قازان الروسية ، والمستشرق حسناف فيل Weil لدى كان مدرساً لتاريخ المشرقيات في كلية ميديج ، وله من الكتب : تاريخ الخلفاء في ثلاثة مجلدات ، وتاريخ العباسيين في مصر في مجلدين . ومن الذين تعرف عليهم الشيخ المستشرق الفرنسي « فلنجانس فرين » F. Fresne . وله بحث في آثار بابل وترجم لامية العرب لشاعر « الشنفرى » إلى اللغة الفرنسية . وبطول صحبة الشيخ عباد المستشرقين عرفوه وردد اسمه في دوائرهم

(١) دائرة المعارف الإسلامية. اللغة العربية — المجلد الثاني من ٢٥

فلما احتاج معهد اللغات الشرقية في بطرسبورج إلى مدرس لـ لغة العربنة وقع الاختيار على الشيخ ، وكلفت دوائر روسيا الخوارجة بطرس بكني^(١) مندوبها القنصلي في القاهرة ليقنع الشيخ بالسفر . ويظهر أنه كان متردداً في أول الأمر ، كما كان عبد الله باشا فكري معه متردداً في السفر إلى مؤتمر المستشرقين الثامن بأستوكهم . ولكن وساطة الخوارجة بكني نجحت ، وسافر الشيخ ليتبوأ له مقعداً بين أساتذة اللغات الشرقية بجامعة بطرسبورج أو قروغراد .

ولا يعلم بالضبط تاريخ السنة التي عاين فيها الشيخ القاهرة إلى روسيا ، ويغلب على الظن أنها حوالي سنة ١٨٤٤ ، فقد كتب نسخة من كتاب دمشق البريد ، لأبي العلاء المعري وهو في الحجر الصحي بالعاصمة التركية . وذكر في ختم الصفحة المختارطة أنه نسخ سنة ١٢٥٦ هـ بمقابلة لسنة ١٨٤٠ م ومن المؤكد أنه كان في روسيا عام ١٨٤٣ حينما ولد القيصير اسكندر الثاني ولد اسمه نيقولا في حياة جده القيصير نيقولا الأول ، فنظم الشيخ قصيدته في هذا الميلاد ويزدج به بقوله :

أدعو الآلهة مهساً ومؤرخاً للروسا رغد بطلع نقوله
ونقد دشرت هذه التهنئة لتنايحية في كتاب للشيخ اسمه « أحسن النجب في معرفة لسان العرب » وهو كتاب يدور حول ألفاظ وجنس وأمثال

(١) طرس بكني كان مندوباً قنصلياً Agent consulaire لـ دولة الروسيا بـ مصر ، وكان معروفًا بقصص المكول في مصر . وهو من أسرة سورية قديمة اشتهر أفرادها بمهارة القنات الأسيديه وكان يئنه وبين الشاعر شهاب الدين المصري صلة ود . بدأها بطرس نفسه بزيارة الشاعر من غير معرفة سابقة . فذبحه الشاعر بأبيات تقرب في ديوانه من ١٦٥٠ ، وله نشر خمس الأناشيد غيرها في كتابه « الأدباء العربية في القرن التاسع عشر » ثلاثه حيتي من ٨٥

وحكايات ورسائل تبودست بيته وبين أصدقائه في مصر وقد أُرخب بعض هذه الرسائل تاريخ ١٢٤٧ هـ - ١٨٤١ م . وهذا يرجح عندى أن يكون سفر الشيخ إلى روسيا قبل هذه السنة .

وإذا كنت سنة سفر الشيخ عياد إلى روسيا غير معروفة على وجه اليقين فإن سنة وفاته هناك قد حارتهم ، انشئون بين الشك واليقين .

وقد ذكر الأب لويس شبجو اليسوعى أنه توفى سنة ١٨٨١ م^(١) ، وذكر الأستاذ كليمنت هوار^(٢) C. Huard صاحب تاريخ الأدب العربى ، أنه توفى سنة ١٨٧٩ ، وذكر أمين أفندي فكرى^(٣) رواية عن والده عبد الله باشا فكرى أن والده تقابل مع المستشرق الروسى يوسف كوتوالد^(٤) .

وسأله عن الشيخ محمد عياد الصنطارى ، فأجبه كقول هذا : « أن الشيخ محمداً كان بالمدرسة الكبرى ، ويدبّر الخارجية فى بطرسبورج معطى غاية التعميم ، يحترمها إلى الهايه ، مرتباً له معاش عظيم ، وكان له ولد وزوجة ، وأنه مات فى سنة ١٨٦٢ م على ما يتذكر ، وذكر المستشرق الروسى المعاصر أنطيوخس كرتشكوفسكى أن الشيخ عياد الصنطارى توفى فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٦١ م^(٥) .

هذه أقوال مختلفة فى تاريخ وفاة شيخ مصرى جاهد فى روسيا طويلاً

(١) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ص ٦٢ طعة بيروت سنة ١٩٢٦

(٢) كتاب . . . Littérature arabe Page 420 . طبع باريس سنة ١٩٠٢

(٣) كتاب أرشد الأبيالى محسن أوروبا ص ٦٠٩ - ٦١

(٤) هو الأستاذ M. Goltzow المستشرق الروسى ، وقد نشر معاً للفران السكرك

فى نازان سنة ١٨٦٣ وتوفى بها سنة ١٨٦٧

(٥) راجع مجلة الحبيب الطبى العربى دمشق المجلد ٤ - ص ٥٦٢ - ٥٦٤ عدد

ديسمبر سنة ١٩٢٤

لنشرها في لغة العرب . أما ما ذكره الأب لويس شيخو فهو خطأ مطبعي بحرف عن سنة ١٨٧١ بدلاً من سنة ١٨٨١ كما جاء في العليمة الأولى من كتابه . وقد تابع الأب لويس شيخو الأستاذ المشهور هيواري هذه الرواية ، وكلاهما أخذ عن كتاب الأستاذ « بروكبان » مؤرخ الأدب العربي المشهور

وهذه الروايات تختلف عن رواية « كرنوب » أو « جونوالد » التي ذكرها المرحوم عبد الله مائيفكري ، وقصده ولده أمين باشا ، يمكن أن سمعها من والده ، وهي سنة ١٨٦٢

وقد يكون هذه الرواية أقرب الروايات إلى الصحة ، لأنها قريبة من سنة ١٨٦١ وهي لغة الصيغة التي اعتمدها الأستاذ لروسي كراتشكوفسكي وليس محتملاً أن يدخل الشيخ محمد عبيد القنطاري في أعلام النهضة الأدبية في تقرب لتاسع عشر ، وهو من الطلائع الذين خرجوا على طريقة الأحرار في التدريس ، واتجه في دروسه للأدب والشعر وحبته جديدة . وهذه تسعت هذه الطريقة فيما بعد عن يد الشيخ حسين المرصفي صاحب كتاب « البرية الأدبية » الذي تلقى العلم بالأحرار وتولى التدريس فيه وتوفي سنة ١٨٨٩ م .

ولم تصح دراسة علوم اللغة وآدابها وصناعة الإنشاء فولا وكسامة حادثاً رسمياً في الجامعات الأحرار إلا في عصر الخديوي عباس الثاني ، فقد أصدر أمره في العشرين من المحرم سنة ١٣١٤ هـ بتدريسها وتدرس غيرها من مبادئ الهندسة وتاريخ أدبيات الإسلام^(١) ولا شك أن ذلك

(١) كتاب لغة في تاريخ الأحرار للدكتور علي عبد الواحد وابن س ٢٢

كان استجابة لدعوته بدأها الشيخ حسن العطار ثم أعقبه تلميذه الشيخ محمد عياد الطنطاوى من بعده .

راى الشيخ عياد فى الأديب أثر ظاهر ملموس ، إلا ما كان من دروسه فى الأثر ، وقد شرح فى هذه الدرس مقام الخرى كما سلف القول ، وديوان الخمسة . وسكنه لم يترك شئ شاملاً لمحاوفاً لأحد هذين الكتبيين على أن منزله الأدبية رجع إلى الروح التى مهد بها فى الأثر لتدريس الأدب والشعر (ولم تكن مثل هذه المواضع تدرس فى الأثر من قبل^(١)) وقد اشتهر الشيخ عند المستشرقين دراساته فى اللغة والنحو حتى وضعه « مايوارد الفرنسى » فى « علماء الشرق بين^(٢) » . وله فى ذلك بعض الحق . فقد برز « الشيخ من مثالياته المحطوطات : (١) حاشية على شرح الشيخ خالد على متن الأثر به فى علم النحو (٢) حاشية على متن الرمح فى الصرف (٣) حاشية على كتاب النكاح فى علمي العروض والقوافى . ومنها نسخة خطية فى مكتبة بتروغراد وأخرى فى مكتبة بلدية الاسكندرية .

وقد كانت حياته لتشيخ فى روسيا جهاداً فى سبيل العلم^(٣) . وبعد بضع سنوات من سفره إلى روسيا - وعلى التحديد فى سنة ١٨٤٧ - دعى للتدريس فى كلية مطرسبورغ وكان هو الأستاذ الأول لمادة اللغة العربية ودعى المستشرق الروسى فروتشكى ليكون مساعداً له . مرضى بذلك .

(١) كتاب الإسلام والتعدد فى مصر - انتشاروا آدمز ص ٢٩

(٢) Literature Arabe صفحة ٤٢٠

(٣) ذكر الأديب الشيخ الطنطاوى دعى إلى التدريس فى مطرسبورغ ١٨٥٤ وبعد ذلك منه عدة رمسيس المصرية . والصواب ما ذكره كرنشكوفسكى من أن ذلك كان سنة ١٨٤٧

وقد ذكر الأكابريسي شيجو أن الشيخ الطنطاوى كان يسعف الأستاذ
فروتسكى في تدريس اللغة العامية فصحيح الأستاذ أعطوس كرتشكوفسكى
ذلك القول بقوله : (وكان - أى الشيخ عياد الطنطاوى - لمعلم الأول
وكان فروتسكى معاوناً له وليس بالعكس)^(١)

وكان من الطبيعي أن يتخرج على يد الشيخ عياد الطنطاوى نفر من
المستشرقين الذين تعلموا في مدرسة بطرسبرج الجامعية ، والذين أسهموا
بعد ذلك في الأبحاث العربية ههنا . ومن هؤلاء العلماء المستشرق
العثماني الأصل : فالن Wallace الذى كان من رواد الجزيرة العربية في
القرن التاسع عشر ، وابتدى جاب البلاد في مصر وسورية زحفاً طويلاً
متجداً اسم « عبد الولي » . ولقد دارت بين هذا التلميذ وأستاذه الطنطاوى
رسائل جمها ، فالن « نفسه وطبعها مترجمة إلى اللغة السويدية . وهناك
مجموعة أخرى من رسائل الشيخ عياد الطنطاوى محفوظة في مكتبة جامعة
هلسنكى HELSINKI التى أصبحت فيما بعد HELSINGFORS هلسينجفور -
عاصمة فنلندة .

والأوربيين وأرضهم وطرق معيشتهم ونظام حساباتهم أثر في الشرق
حيثما يمتد إلى بلادهم . وقد أثرت باريس في رفاة الطنطاوى أحد
روابع مصر في القرن التاسع عشر فكتب فيها كتابه « تحييص الأبرار إلى
تلخيص »^(٢)

وأثرت لندن وباريس في الشيخ العلامة أحمد فارس الشدياق فكتب

(١) مجلة الجمع العلمى العربى بدمشق ، عدد ديسمبر سنة ١٩٢٤

هم ما كمانه الطرّيق « كشف الخفا عن دنون أوروبا، وهم من كبار الرحلات
لمشعة في القرن الماضي .

«هـ» ترك لنا الشيخ عياد طططاوى أثراً من آثاره الثغنية الأدبية في
« طر سوسج » وآثاره، ومعلم وطرق الحياة فيها كما صنع رفاة الطططاري
وأحمد الشدايق ؟

كنت أظن أن لطططاوى لم يترك لنا شيئاً في هذا السنين . وسكر
الروفسور ج . حولتسكي مدرس اللغة القبطية في معهد العلوم الشرقية
بالجامعة المصرية في أمدس كتب إلى في سنة ١٩٤٦ يخبرني أن الشيخ ترك
من لسان بستان : « نعمة الأدكيا بأخبار بلاد روسيا » وأن هذا المؤلف
لا يرد مخطوطاً إلى الآن . وتوجد منه نسخة في دار الكتب الجامعة
استبول - على حين أن مخطوطة الشيخ لأولى التي كتبها يده مصورة
في لندجرا .

وفه ترك لنا الشيخ عدد رسالة إلى رمله في الجامع الأزهر وصديقه
رعاة ملك الطططالوى يذكر له فيها شغفه بكمية معيشة الأوربيين ،
و«سماطهم وحسن إدارتهم وبرئيتهم ، خصوصاً ريفهم وبيوتهم المحذقة
باليساتين والأنهار» .

ولقد خُفرت مكتبة نزعرا - أو لندجرا اليوم - بمخطوطات
كثيرة لأمج عياد ، بعضها من تأليفه ، وبعضها من نسخ يده كما ظهر
زربها بحسده لراحد هك في قبره ، شاهداً على نفس عربية تعيرت « الجند
والباس الشديد ، في بلاد العجمة والجلاذ والمجلية .

شاعر مصري مؤثر في الأدب

محمود صفوت الساعاتي

١٨٢٥ - ١٨٨١

كان المرحوم لأديب الشاعر محمود صفوت الساعاتي من أعلام النهضة الأدبية في عصر إسماعيل . بل كان من طلائع النهضة في الشعر العربي الحديث ؛ ولكنه لم يكن حصه في كتب لتاريخ الأدب ؛ ولم يظهر بما يستحقه في كتب التراجم . فتركه جورجى بك زيدان وهو يؤرخ لأعلام القرن لمصر في كتابه ١ - (تراجم مشاهير الشرق) وهو الكتاب الذى ترجم فيه لسبعة وثمانين علماً من أعلام الشرق في نواحي مهنته المختلفة ؛ وتركه من روضة في كتابه ٢ - (مرآة العصر) الذى ترجم فيه مائة واثنين وخمسين علماً من أعلام مصر .

على أن محمود صفوت الساعاتي لم يسهل لأهل كنه ؛ فضلاً عن الله أن لا ينسى الاسم مصر التى نسي فيها كل شيء بعد حين . فإليك راجد في بعض كتب الأدب والتاريخ إشارات قصيرة جداً ، إلى شعر صفوت الساعاتي وإلى مكانته الأدبية .

ولولا الترجمة الرجيعة التى صدرت ، ب أول طبعة من ديوان الشاعر في حياته سنة ١٨٩٠ لما عرف الناس شيئاً . وهذه الترجمة عني إيجارها كانت مرجعاً للكاتب المشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى حين ترجم للشاعر في

الطبعة الثالثة من ديوانه التي طبعت بمطبعة المعارف سنة ١٩١١م والواقع أن المنصوص على لم يرد على الترجمة الأولى شيئاً يذكر. فقد نزلنا ما يقرب من نصفها الأول، وأضف إليهما مقدمة موجزة أيضاً في الشعر العربي ومكانته عند العرب، وانتهى الشعر مع بقية الألف العربية من حال البداوة إلى حال الحضارة. وحلص من ذلك إلى دخول الصناعة الفعنة في الشعر العربي الذي صار على تولى القرون وفي آخره ما كالاتي القصيدة أو الصنعة التي يضعها الميراثون في ديوانهم على أطراف مواعيدهم. ظهر أدهم وأدهم وأدهم وأدهم وأدهم. وتهيئ للمنصوص على من ذلك إلى رسم التجديد الذين نشروا "شعر العربي من قديمه، ونفضوا غباره، وكان الساعاتي أحسن أولئك الرسل الكرام".

والحق أن مكانة الساعاتي في الشعر العربي الحديث لا ينكرها منصف، فقد جاء بعد السيد سماعين الخشاب والسيد علي النوريس من شعراء مصر في عهد محمد علي، وأدرك شذراً من حياق الشيخ محمد شهاب الدين وإبراهيم بك مرزوق من شعراء مصر في عصرى عباس الأول وسعيد باشا وهم شعراء متهيزون كثيراً من شعراء من قبلهم في العصر العثماني، بل جازوهم في مذهبهم لتقليدية التي أصارت الشعر إلى صناعية لفظية لا حياة فيها ولا روح، وجازوهم حتى في عباراتهم التي لم ترتفع إلى المستوى الديق. فكان ظهور شاعرنا محمود صقوب بروحه الشعرية القوية وديانته الرصينة إيذاناً بأن الشعر العربي قد بدأ ينزع إلى مسيل تعود به إلى مبعده الأول، تلك السيل التي قطعها محمد دساي البرودي بعده شواطئ بعيدة في حولة التمييز وشرع القصد.

وإذا كانت مكانة البارودي في تجميد الشعر العربي والعردة به إلى نفسه القديم ما لا يختلف عليه اثنين، فإن الإحصاء يقتضي أن نقول إن الصفحة الأولى من ذلك البحث كانت من مشور الشعراء الساعى . وإذا كان البارودي — كما يقول الدكتور هيكل باشا — قد فسر مقبرة سماه إلى مكان تنحوى من الشعراء الأولين في الجاهلية والمصور الأولى من الإسلام^(١) فإن لصفوت الساعى فصل الخطوة الأولى على نصرها . وهي حصوة لا يشكره . هيكل باشا حين يقول : « كان محمود صفور — الذى أسلم معاصره ديباجة وأقومهم عبارة ، لولا ما فيه من المدح ومن الأتوال المعادة . وهذه المكانة للساعى الشاعر قد سجلها له المنصفون ، فقد ذكر عنه الآب لويس شيخو أنه . (لزم الآداب واشتهر بنظمه ونثره حتى عد فيها من المقدمين)^(٢) . ووصفه الشيخ محمد حسن باني المرصى بأنه . (كان شاعراً من كبار زمانه ، ذا ملكة رفيعة ونطق أبق)^(٣) » ونقل يوسف سركيس عن الآب شيخو كلامه في كتاب . (معجم المطبوعات) . وذكر المنفلوطى في معرض المسألة بين شعراء وشعر الأمة العربية في عصره . (أن المرجح من التفصيل ما لا يقل عن فضل كل مصحح جديده ويحترع محب)^(٤) .

على أن الساعى مزية أخرى وهي بدء ظهور الروح القومية في شعره ، وهي روح حبها محمد عى وإسماعيل باشا ، فكان لابد أن تهب لها صدى

(١) د.ون البارودي طبع وزارة المعارف ١٣

(٢) الآداب العريقة للآب شيخو ٢٠ ص ١٨

(٣) أدب اللغة العربية للمرصى ج ٢ ص ٣٢٥

(٤) ديوان الساعى طبع المعارف ص ٥

في نفوس بعض الشعراء من أمثال رفاعة رافع الطهطاوى ذلك الذى كانت
هزة مصر في عهد « محمد على » مصدره لمسام شعره وأناشيده الوطنية
الحماسية اسمع الساعاتى وهو يقول في مدح الخديو اسماعيل :
هل مصر إلا دوسة بل حنة والنيل نهر والحقيقة كثر
وبها المواكب كالكواكب حوله ومن الاسنة أجمع لا تخسر
ويقول عن « محمد على » من قصيده في مدح الخديو اسماعيل .
البالغ النسيات بالهرم التي نشت مأثر مصفا الاسكندرا
جعل المكتائب لبناوك كناية : الأرض رقا والعساكر أسطرا
أحييت مراسمه الرسوم وثبتت عزماته في الكون ملكا أكبرا
أليس ذلك الملك الأكبر بما يتطعم المصرون اليوم إلى إعادة
مجده العظيم ؟

شأن وثقافته .

ليست الأعوام العشرون الأولى من حياة الساعاتى مما يهوى مصه البحث
في ترجمته وثقافته . وكل ما تذكره المصادر الموجزة أنه ولد بالقاهرة
سنة ١٢٤١ هـ ١٨٢٥ م وأنه نشأ بها إلى الثانية عشرة من عمره ، حيث ارتحل
مع أبيه إلى الاسكندرية ، فأقام بها ثمانية أعوام إلى أن بلغ العشرين من
عمره . ولكن « إذا كان يصح بل أن يبلغ تلك السن ؟ وفي أى المدارس
تعلم ؟ وعن أى الشيوخ في ذلك العصر لقى ثقافته اللغوية ؟ ذلك ما سكت
عنه المصادر . ولكن صاحب كتاب « الأعلام » يقول إنه لم يتعلم النحو
ولا ما يؤمله للشعر . وسكته مستظير ديوان المتناهى وبعض شعر غيره
تنظم ما نظم .

والساعات في هذا يختلف عن شعراء عصره ، أدبائه ، فقد تفقه الشعراء
محمد شهاب الدين وعلى البني وعلى أبو النصر على شيوخ الأدهري في وقتهم
ودرس الشاعر الناثر عبد الله فكري باشا في الأدهري على الشيخ إبراهيم
السقا الذي كان يدرّس الطلاب على حلقة ، كما تردد على حلقة الشيخ علي
القوصي والسيد علي حلي الأسيوطي^(١)

على أن لقبه بالساعاتي قد بقى بعض الصبغ على حبه لاوي ، فيقول
جامع دونه الأول عبد الحميد بك نافع أنه تعلق بعمل الساعات فاشتهر
بالساعاتي ثم تركها ، ويقول امرئى إنه نشأ في عصره محباً لإصلاح
الساعات^(٢) ، ولكن أكان ذلك العمل مورداً لكسبه ومراداً لذاته
أم تحببه هوى له ؟ يقول صاحب « الأعلام » به ، واشتهر بالساعاتي
لراغبته ورغبته بعملها ولم يحترفها . وعنه قتل إبراهيم ذلك في كتبه
عصر « إسماعيل » ج ١ ص ٢٧٩ .

وهو لا يحترف صناعة الساعات أفخط ذلك من قدره ؟ وهبه لم يلق
اللغة من أستاذ ولا الأدب من معلم ، أجنب ذلك أنه طبع شعره مما دنى
به الفحول في قوة التبسيط وسلاستها ؟ وزد كان قد حترف صناعة
الساعات فليس ذلك عيباً ، فالسرى الزفام الشاعر الموصل كان في صباه يرفع
الناب ويظهر في ذلك الموصل ، ودلح به الأمر أنه يصل بسيف الدولة
ان حدن وبأمرام بمناذ وورثها ، والرجاج النجوى تنيب لمراد صاحب
كتاب « الكائن » كان يحترف الزخام قبل أن يتعلم اللغة والنحو ويصنع
فيها .

(١) عبد الله فكري : عصره وحياته وأدبه . محمد عبد الفتاح حسن ص ٧

(٢) أدبه اللغة العربية للرسى - ص ٢٣ ص ٢٣

ويشعرك مع محمد د صغوت الساعاني في هذا اللقب الشاعر ابن الساعاني
من شعراء القرن السادس الهجري ؛ وكان أبوه محترفاً لهذه الصنعة ؛ وهو
الذي عمن الساعات التي كانت عند باب الجامع بدمشق صنعها أبا
نور الدين محمود بن رنكي فكان له منه الإهداء الكثير (١)

شاعر المؤسفة في الحجاز

لما أتم الشاعر من حياته عشرين ربيعاً بدا له أن يقوم بهزيمة الخج ؛
فسافر إلى الحجاز سنة ١٨٤٥ م . وهناك تسدأ مرحلة جديدة في حياته .
فقد لفت إليه أظار الشريف محمد بن عون أمير مكة في ذلك الحين . وكان
الأمراء كمدتهم يحبون الشعراء ويقرعونهم بالبحر ؛ ولعل الحجاز قد
فرح بأن يجذب إليه شاعر مصرية ناشئ بليغ بواكير شعره بأشبه
الغزوات ؛ فأكرم الشريف مشواه و دناه منه وأصبحه دمه في وقائعه المعروفة
في نجد واليمن ، وقد كان للشريف محمد حروب مع أمراء نجد وقد أثاره
عليهم جماعة من رؤساء أهل القصيم وكان فيهم عداوة قديمة للسعوديين
وأناهم ، فرسوا للشريف أنه إن سار إلى نجد يثب أميرها فيصل ،
فقطع الشريف في ذلك وخرج من مكة ومعه خالد بن سعود — ابن عم
فيصل ؛ وكان حار على ابن عمه (٢) . وكذلك كان لشريف محمد وقائع في
اليمن وعسير أنهم فيها إلى عساكر الترك . وفي هذه لوقائع اشترك الساعاني
بشعره في كثير من قصائده التي تذكرنا شعر اميرت عبد الحميد في القديم
وعند البادية في الحديث . ولاحظ أن شعر الساعاني في هذه الباحة
كان على الطقة ؛ اسمعه يقول في غزوه بني سليم :

(١) عنوان الأبيات في طبقات الأصفياء ٢٠٠ ص ١٨٤

(٢) عنوان الحمد في تاريخ نجد . لابن جرير الخطيب - ٢٠ ص ١١٠

كردتم على أهل اخیال بتلها جبال رجال سیرت بالوكانه
وكانت عليهم لاطم؛ فرقا بهم لاسياكم ترو بعین مراقب
وما تذكروا لا قلیلا وذلروا وأبطالكم ما بین صار وصدوب
رأوا باتراب البيض نغمه فیهمو ونخرج من أصلاهم والترائب
فلأوا ونالوا للهرة بعددها رطم على أرواحهم میل فاهب

واسمه یقول فی مدح الشریف محمد بن عوی :

دا تاق برق السیف فی یده أصررت فیتهدم الأبطال مدسفا
مقوم کل معرج بصارمه هكل حصم لهذا صار منطرحا
یحكم السیف فی الأعداء فیصغفهم حتی إذا رجوا عن ظلمهم صفحا
یرمی الکاه موح من عزائه یوم الهیج وبحر الحرب قد طفحا

واسمه یقول فی مدح الشریف عبد الله بن الشریف محمد

کئی إذا التفت لوشیع علی العدا روی کل هلم من همام طائر
متی عقد الرايت روی حسامه وین حل أرضاً غصبا بالعساكر
یزف - کازف العقاب - لوافه علی کل فسر من کجاة اناسر
نعم أیاده أعادیه رحمة وأحسن ما فی الجود رحمة قادر

ظل الشاعر فی ضیاء الشریف بالخجاز حسیة أعوام ، وب عزل الشریف
عن الإمارة وهاجر إلى مصر حام معه المترجم ، ثم سافر معه بعد ذلك إلى
القسطنطينية وصاحبه فیها إلى سنة ١٨٥١ م حيث تركه هذت وعدد وحده
فی القاهرة ، فالتحق بمجیه الخدیو عباس الاول ، وظل الشریف فی عسمة
الخلافه یدون شاعره إلى سنة ١٨٥٦ ، حيث صدر من سوم الخليفة بنعادیته
إلى أماره مكة .

قطعة:

هنا مصمم المصادر مرة أخرى عن سر هذه القطعة من الشاعر وبين
الشريف . لماذا تركه في عاصمه لخلقة معزولا وعاد إلى مصر؟ ومن كانت
القطعة؟ أم الشعر أم من الأمير المعروف؟ يغيب عن الطل أنها كانت
من الأمير بشهادة الشاعر نفسه في قوله :

وحبري بعديا بقضية أكذا يكون تكرم وحياه ؟
وفي قوله أيضاً غلطاً الأمير

فهي الحمد بعدي الوجب بقصده

إليك رقة جوزي بم هو أعظم

ونال الذي قد كان رجوه وانقص

أمانيه منكم والسلام عليكم . . .

السلام عليكم ! هي كلمة الوداع يقولها الشاعر للأمير الذي غي رماه ،
أنشيد وقائعه . وهذا فراق بينه وبين أميره الحجازي ، ولكنه يعود إلى
مصر فيظل مقبلا على حب الشرف وولديه من بعده عبد الله وحسين
ولا يزال في مصر — على حال من الحب — يتاح أخبارهم ويستخبر
لركبتهم ، فتراه يمدح الشريف عبد الله بإمارة مكة بعد وفاد أبيه الشريف
محمد ويعرض بحامديه في مصر (١) : —

شدت لكم بعد الإله عرائني فكنت عليهم بالصدقات شديدا
وأقرب عيذ النفس بعد عفوكم وإن جن ذنبي أو مكنت بعينا

(١) في القديان من ٢٤ من الأبيات في مدح الشريف محمد . وهو خطأ سواء انتهى مدح

أبيه الشريف عبد الله

وتراه مرة أخرى يرسل إليه عن مصر مدحة تقول فيها .
 متى قام بن مشوق رمتني عراقق من القدر الجارى فأصبحت مقعد
 عليك ابن عون كل يوم وليلة سلام من الله السلام ترددا
 فألم أروح على العبد محاصاً وإن طار عهد البسوا شقت محبدا
 ويظهر أن مطامع تسعر في الشريف محمد وأولاده كاست كبيرة ، وأنه
 رام أن يظفر عندهم بما لم يله في مصر ولكن حظه جنى عليه . أوكا
 يقول هو : - حتى عليه ذكأؤد . كما يدل عليه قوله يسدح الشريف حسين
 أمير مكة بما أحياه عبد الله .

بلى متى وإل كم لا أرى رمى إلا كذا بين قريب وثعيد
 قالوا ذكأؤد عسود عليك كما يروى ، فقامت حديث غير موجود
 وكما يدل عليه قوله مستعظماً الشريف محمداً :
 من ل يحط الأغنياء فلقى عز الدواء لها وجل الداء
 ولم يحف الشاعر هذه الآمان التي كانت تجيش في صدره . فقل يحاطب
 الشريف محمداً :

أوليتي الآلام ثم تركتني مثل الذي حلت به الأولاء
 ما كان ذا أمل الذي أملت فيكم وأنتم سادة كرماء
 أولسمو أدرى بما كنتم به تعدوني ومتى يكون أداء ؟
 ويس هذا البيت الأخير استعطافاً ولكنه من أشد مراحل انحناء
 وما فيه أشاعر بدعير « هذه الوعود » ويحلم بها ، فقل يحاطب
 الشريف حسيناً .

علت نفسي غرورا بالواعد فكان تحليلها عنوان قصيد

كم التعامل والآمال كاذبة . وهن عمى وردت في غير توديد
وعجل إلى أن الشاعر الساعى قد أرحص نفسه كثيراً وعناهاهما لا طائل
تحت ولا جدوى منه وقد كان أكرم به لو سكت حين رأى الصود ، . لا
من التحسر على الآمال ، والوعود ، . وليكنه ظل شكوكي ، وصرح
بالحرمان ، والضحك في النوال من الشريف عبد الله والشريف حيدر من
بمده ، حتى كانت تهبط طرته من الشكوى في مثل قوله :

وقد شكوت الذي في للحين عسى ^١ نال بالقصد منه بعض مقصودتي
فلما أحس بالأس مأ في به لجأ إلى الله قائلا :
هنا هي أيتها المتجني لا يحرم العبد يوماً فضل محبوب

إلى الوطن

عاد الشاعر من عاصم الخلافة إلى مصر سنة ١٨٥١ بعد الذي كان
بديه وبين الشريف ابن عون ، عاد في نسمة لراية من حكم عدس باشا
الأور ، وهو من ست عرف مؤسسه بتقديره للأدباء والعطف عليهم ؛
فمن الشعر هو خلفا ديوان المحبة ومما ، ولما تولى الخديو سعيد باشا ألقاه
في محبته .

وفي حكم سعيد أي ، غير أنه عاقى موطعا في مجلس لأحكام المصرية
وهو المشقة القصائفة التي شككت في عهد محمد علي باشا باسم جمعية الحقانية .
ثم تمت سنة ١٨٤٩ مجلس لأحكام ، وهو المجلس الذي كان له شأن كبير
في عهد سعيد وإسماعيل وكان رئاسة الهيئة الامتتافية لعليا في البلاد (١)

(١) مصر اسماعيل بعد الركن الراسي بك ج ١ ص ٤٨

ولا شك أن محتيا أدناه من طراز الساعات في مجالس الأحكام المصرية
 أعان كثيرا على تهذيب دعائها الدوائية التي وصلت إلى حد الركائز
 والعروض . ولعل أثر الساعات في لغة الدوائيين كان أول من أثر عند الله
 فكري لدى كان له في المكتبة الدينية أباد لا تنكر فقد كان عبد الله
 فكري في هذه الساحة شيخ الكتاب في عصره الذي هو عصر الساعات .
 وقد أورد الأستاذ عزيز حامكي بك فقرة من الأمر الصادر بترتيب مجلس
 الأحكام يعرف منها أحوال السبئية التي وصلت إليها المكتبة الدوائية في
 تلك العصر ، وهذه هي :

« إن قراءة المصلحة يصير لسمع بالأذن القليه ، ويكثروا مبرين عن
 الصيانة والحجبة وأيضاً من العلم من رائق السانبة . ويعطى لها صورة مرسمة ،
 وإذا كان أحد من أبواب المجلس يريد يستعمل المجلس لدعى غرض
 وبهسانية ويتم أحد الدوائين الذي يكون مستقيم الأطوار استناداً سعيه
 في خلاص المذهب من باب التصاحب ، فإذا تظاهر ذلك فلا يصير إغماض
 العينين يصير الإظهار من الفرض ويصير إصاحه أولاً للمجلس » (١)

وقد تعاقب على رئاسة المجلس — مجلس الأحكام — رجال ممن عرفوا
 بانفطنة والاستقامة والعدل ، فأُسند التوالى سعيد باشا رياسته سنة ١٨٥٦
 إلى الأمير إسماعيل — الخديو إسماعيل فيما بعد — وهو الذي مدحه
 شاعراً بقصيدته في أثناء رياسته للمجلس ، كما تولى رياسته المرحوم علي باشا
 ذو الفقار الذي لجأ إليه الشاعر لموظف في قضاء حاجة له بعد أن صال
 الثرقب في يأس وفي أمل ، (٢)

(١) المكتبات الذهبي للشيخ كرم الأملية ١ - ٨١ (٢) النوراني ص ٢٤٢

منافسات ومناظرات

لم تخرج حياة الساعاق على نسق هدى . ولكن متلات بمنافرات
ومنافسات منه وبين أدياء عصره . وقد بدأت هذه المنافسات في الحجار
حينما مدح الشريف محمد بن عون ؛ وكان شعراء الحجار وأدياءه يقفون له
بالمرصاد ويتناولون قصائده بال نقد . ولما قال في انشريف هدا البيت
من قصيدة .

وأبصر في كف ابن عون مهندا يرويه قزم بلصراب حبير
اعترض عنه الشيخ زين العابدين المسكي بأن الصراب في اللغة هو النكاح
وليس هو الضرب أع الطمس في الحروب - فرد الشاعر بأن الضراب هو
الضرب . واستشهد بقول الخارث بن ظلم المرى ؛
وقوى - إن سأت - نولوى بمكة علموا الناس الضرايا

كما استشهد بقول المتنبي :

كل السيوف إذا طل الضراب بها يمسها نغير سيف الدولة - السأم
وهت المسكي - فوق الاستشهاد بالشعر القديم - أن انضراب مصدر
قياسى من الفعل مضارب . وأن ورود الصراب في كتب اللغة بمعنى انكاح
لا يمنع قياسية المصدر بمعنى الضرب بالسيوف .

واعترض عليه الشيخ زين العابدين في القصيدة نفسها يصف أعداء
الشريف الممدوح :

كأنهم فوق السوابق غررد لمن متون الصفات حردور
أن في تشبيه الأعداء بالسام خط قدر الممدوح ؛ فأى فضل لرجي

بحار نساء سردا . فرد عليه الشاعر بأن هذا المعنى فالوف وقد سبقه إليه
التي في مدح سيف الدولة بقوله :

مصبوهم ولبسهم حرير ومصاهم ووسطهم تراب
ومن في حكه منهم قناة كمن في كفه منهم خضاب

كما سبقه إليه الإمام الموصري في ردة مدحا . رسول العربي عليه السلام . —
رأيت قارب العبداء أباء بعثته كسبأة أجمعت غفلا من العم
ولقرآن يقول . (حر مستنفرة ، فرت من قسورة)

وكانت هذه المناظرة أول قيم المنافسة بين الشعراء وبين الشيخ زين العابدين
وهي منافسات تثير دواعي الزاقي إلى الأراء واسطوة لديهم . وقد ظلت
المنافسة بين الاثنين على حاها حتى هاجر مع الشريف إلى عاصمة الخلافة .
فقام بينهما منافسات هناك من جديد ؛ ويغيب على ظني أن هذه المنافسة
كانت سبباً من أسباب القطيعة بين الشاعر والشريف . على أن تلك المنافسات
كانت نبعت أحيانا من عوامل الدعاية والتشككة . وقد كان أشراف مكة أنفسهم
يتبرعوا ليخفوا منها موقف المتلذذ . فإنه لما نفقت فر من للشيخ زين العابدين
على طريق جدة ، أمر الشريف عبد الله شاعرنا أن يخرى الشيخ فيما يشعر
فكاهي على سبيل المعاملة .

إلا أن هذه المنافسات التي متى بها في الحجاز وفي القسطنطينية لم تمنع
الشاعر أن يكون على صلوات حسنة مع بعض أدباء عصره كالسيد علي أبي نصر
والشيخ أحمد فارس الشبقي الذي أثنى عليه في « الوقائع المصرية » (١) .

(١) كبر المقاتل في مناجات الخواص ج ٣ ص ١٣٥

أغراض من الشعر

طلع الساعات على ناس عصره بنفس شعري جديده طال عهدهم ، وطلع عليهم بتفحات قومية لم يسموا مثله إلا في بعض من أشعار الشيخ - فاعية رافع الطهطاوى ، وبكسفه يخرج على أغراض الشعريه ، مدح كما مدحوا وتغرل كما تغرلوا ، ورجا واستعطف وعاناب وشكا ورتى ونظرف في شعره كما فعلوا ، ولكنه عرف بالاعتدال في المدح وعدم الإسراف فيه ، وبالرفقة وخاصة حين تنكرو ويحتب ، والملاحظة حين يصف المعارك ، إلا أنه كان يصرح في مدائحه بطالب النوال كقوله :

أفريت عمرى في طلاب أولى الحدى منعللا بحسى يجاب بدماء
وقوله للشريف محمد ،

منى المدح والمنائح منكرو لاغبين إرب كليهما آلاء
ومده الحمالية الحساية البسيطة يرى الشعب أن المنحة ثم البدحة
فلا تبين في الخالين بين المتقيضين
وكقوله في مدح الخديو توفيق :

أريد ورودا من نداكم لأرتوى كما يطلب الصادى على النعد موردا
ولا يتعارض هذا التصريح بالنوال وبطلب العطاء مع أصدق في المدح
ووصف الممدوح بما هو فيه ، فإن طالب النوال لا يصر في عرف المعنى
والاعتدال إلى المبالغة في المدح . وقد أشار الشاعر إلى ذلك في مدحه للشريف
حسين بقوله :

إنى امرؤ أتجرى الصديق فى كللى ولست أحمد إلا كل محمود

ام عتابة فقد بلغ فيه الرقة ومزجه بالصراحة التي قد تصدىء بعض
لقوب أو يجعلوها كقولها :

ك وكتم فأكثرنا ربارسكم ونحن مثلان في فقر وإفلاس
كانت مناسبة الحدين تجمعهما ومن يدوم على سأل من الناس
وهو كلام يذكرنا بمور شاعرنا محمد حافظ إبراهيم في عتاب اسيد محمد
البيلاوي نقيب الأشراف :

قد كان بابك مفتوحا لقاصده واليوم أروى دون القصد الباب
هلا ذكرت بدار الكتب صحفا إذ نحن رغم صروف الدهر أحباب
وكقولها على لسان من يعاتب صبرا :

قلبتكم تحسرون النبل إذ حسنت لنا الطوب وكان الود موصولا
رأيت وصمكم قطعا ، وحكمو بعضا ، ونهركم للصهر تحسيدا
وهو عتاب يذكرنا بقول البها زهير الشاعر المصري الرقيق :

إذا كان هم في الأقارب فاعلمك فإذا الذي أبقيتمو للأبعاد ؟

وعلى الرغم من ظهور برا كبر التجديد في شعر الساعاتي فإنه لم يتخلص
بجولة واحدة من استعمال التواريخ الشعرية ومن ذكر مصطلحات العلوم
، المحسنات الدينية ، على نحو ما كان يفعل شعراء عصره ؛ ولكنه لم يكن
منها كما أكثروا ؛ ولعل أكثر تواريخه الشعرية اتصالا بالتاريخ القوي هو
ما قاله قارحيا لفتح قبة السريم ، وهو لم يفعل في ذلك أكثر مما فعله الشاعر
السيد على أبو النصر في افتتاح قناطر التقسيم لمروط مسنة ١٢٨٨ هـ
ومنة ١٨٧١ م (١) .

(١) ديوان السيد علي أبي النصر ص ١٨٧

أما مصطلحات العلوم فكان يستعملها مقلا من سبيل الظرف كقولها
 إن كنت نجزم بانكسارى إتنى بانصب أرفع قمقى إن أنكس
 فقد جمع بين الجزم وانكسر والتصبيو الرقع فى بيت واحد . وهى من
 مصطلحات النحاة ؛ وقد بلغ من ولوعه بالبديع أنه نظم مدح بوية صنب
 مائة وخمسين بوعا من البديع على نحو ما صنع ابن حجة الجوى فى بدعيه ؛
 وقد شرعها عبد الله فكبرى باشا فى نحو ثلاثين كرامة ؛ ولكنها لم تطبع ولم
 أقف لها على أثر عند حفده ذلك الورير الجليل

طبقات الرواة :

طبع ديوان الساعانى أول طبعة على الحجر فى حياة الشاعر سنة ١٨٣٠ م
 باسم مختصر ديوان الأديب محمود صفوت الساعانى ، وقد قام بهذه الطبعة
 عبد الحميد بك دافع فى ٩٠ صفحة . وذكر صاحب « مجمع المطبوعات »
 أنه طبع ثانية سنة ١٣٠١ هـ ١٨٨٣ م فى ٩٥ صفحة ؛ ولم أطلع عليه ؛ وفى
 سنة ١٩١١ أعاد مصطفى بك رشيد طبعه فى مطبعة المعارف بالقاهرة ،
 وأضاف إليه ما لم يدر من القصائد قبل فى ١٧٦ صفحة من القصص المتوسطة ،
 وهذه الطبعة مقدمة للكاتب الشيخ مصطفى لطفى الأنفاه طلى وكالة محمد بك
 المؤيدى ؛ وقد ذكر جورجى بك زيدان أن هذه الطبعة كانت فى سنة ١٩١٢ م
 والصواب ما ذكرناه .

ومات الساعانى فى سنة ١٢٩٨ هـ التى يدعى فيها عاما ١٨٨١ م ، ١٨٨١ م
 أى أنه قصص إلى زه قبيل الثورة لعمريته وما أعقبه من سلكه الاحلال
 ولا يدري أحد إلا الله ماذا كان يفعل بعد الله عن القوم لولا أنه شهد الثورة
 فتدافع فرجها السيد عبد الله البديع صاحب الحمسة ، ويتهمهم عبد الله باشا
 فكبرى ، الذى اشتبك فى وزارة محمد سامى البارودى — وهى وزارة القردة .

السيد على الترويش

١٧٩٦ - ١٨٥٤

مهمبر

بلغ الشعر العربي في أحرى العصر لمثاني - أي في أواخر القرن الثامن عشر - درجة من الضعف ولا بد أن جعلت الناس يزهون في سماعه ويرغمون عن إصداحه ؛ وجعلت الأبرام من الممايلك - في حرومهم وانتقاض بعضهم على بعض - يزهون فيه ويشعلون عنه .

وكان لما وصلت إليه مصر من سوء الحالة الاجتماعية في ذلك الحين أثر في ذلك الركود الشعري فلم يجد الشعراء أمامهم متفهماً في تلك القرضى التي خيمت على البلاد .

وكان ظهور شاعر واحد من السيد إسماعيل الخشاب كفيلاً بأن بلغت إليه الأقطار ، ويرهف إليه أسماع العلماء المتنورين كالشيخ حسن المطار شيخ الجامع الأزهر ، الذي أعجب بديوان الخشاب ، فقام على جمعه ونشره في مطالع عصر محمد علي الكبير .

وساء عصر محمد علي في سنة ١٨٠٥ بعد صراع صيف مع الفرنسيين من ناحية ، ومع المماليك من ناحية أخرى . . . واتجه نظر الوالي إلى العلوم لعمية والفنون الخيرية يتخذ منها أساساً لبناء مصر الحديثة . . . فصاع نغم الشعر في ضجيج آلات التي أدخلها محمد علي إلى مصر ؛ ولم يكده يسمع له صوت إلا في آيات التهنئة التي نظمها الشعراء تغليداً

لا تنصارت العقل الفاني إبراهيم باشا ، أو تسجيلاً بمآثر محمد علي في منشأته الحديثة .

ولكنها أبحاث وقصائد لم تسع من القوة ما يسر إلى حالة عصر القوية بأسطوطها وبحيثها ، فكانت في التاريخ الحديث .

ولقد أدرك الشعراء « سماعيل الحجاب » عشر سنوات من حكم محمد علي ، وكان هو الشاعر المصري الوحيد الذي سجله تاريخ الأدب في ذلك العصر ، وظلت الأيام تعمل من جديد على تكوين شاعر قومي ، حتى تم ذلك في أوائل عصر عباس باشا الأول بظهور الشاعرين المصنفين : « السيد علي الدرويش » و « الشيخ محمد شهاب الدين » . فأدناهما التواني من مجلته واحتضنهما ، حتى كان كل منهما يلقب بشاعر عباس باشا ، الأول .

وكان الشعراء يمثّلون حالة الشعر في عصرهما أصدق تمثيل . فلم يحرّحوا به عن أسنن الذي ألفه منذ مئات السنين ، ولم يحدّثوا به جديداً . . . وربما كان لها فضل تعريفه في الأهرام ، وفضل تقدير انصاف له وحسن الاستماع إليه والإقبال عليه ، فقامت لناس على قصائد « الدرويش » و « شهاب الدين » واستمعوا لها في كثير من كشوة والسرور على الرغم من طريقتهم التقليدية القديمة ، واهتم لوال هذا الشعر ونقائله . . فأصبح للشعر مكانة عوضت عنه ركوده الطويل . وأعادت له الحركة التي ظهرت على يد « إبراهيم بك مرزوق » و « السبعي اللبي » و « الشيخ علي أبو النصر » و « محمود صفوت ساعاني » ثم أعدته من بعد ذلك الحركة لإحياء التي ظهرت على يد « البارودي » وهي تلك الحركة المبكرة التي انصرفت عن الشعر العربي غبار السنين

ترجمه

لم يظهر « علي الدرويش » ، ترجمة مفصلة له في كتاب من كتب الأدب أو التراجم ، لولا السطور القليلة التي كتبها تلميذه « مصطفى سلامة النجار » ، في آخر ديوان « الدرويش المسمى » « لأشعار بهيميد الأشعار » ؛ ولولا الأسطر القليلة التي كتبها الأستاذ حسن السندوني في كتابه « أعين البيان » ، والأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه « الأدب العربي في القرن التاسع عشر » ، وحرر جي مكريديان في كتابه « تاريخ الأدب العربية » ، وكلها مأخوذة من تلك الترجمة الموحدة التي كتبها النجار في ذيل ديوان المترجم له .

ولقد ولد الشاعر في القاهرة سنة ١٣١١ هـ - ١٧٩٦ م ، ودخل الجامع الأزهر كما كان يدخله الراعيون في المم في ذلك الحين ، واستقامت له من سموات الأزهر ثقافة دينية عميقة . . . إلا أن الأدب غلب عليه ، فأعطاه من عايته واهتمامه أكثر مما أعطى لبقية المواد . وقد كان المترجم له معجباً بأشاعر « الخشاب » ، ومعجباً بالحنف « الشيخ حسن العطار له » ، وهو شيخ كان موصيغ السكريم والإجلال من محمد علي باشا ، لم يكن فيه من دكان ووطنه ، وكان العطار فوق نأجته الدينية الكبيرة من شيوخ الأدب بمصر في عهده . واشتهر في الإنشاء وأمر أسلحت بأسلوبه لدى كان نموذجاً لسكنانة في ذلك العصر . ولهذا نجد المترجم له يفتي « العطار » ، عشيقته الأزهر سنة ١٢٤٦ تقصيده بها هذا البيتان :

أنت السيادة سهلة مقددة لإمام هذا العصر أو حدد الزمن
والسعد ساعده وقوى عزها والمفضل أرخ شيخ أزهره حسن
وكان « الدرويش » ، على يسار من العيش : حسن المسك والعقار ؛ ولم

يتكسب بأدبه وشعره ، وظل بعيداً عن خدمة الديوان في عهد محمد علي ؛
 قبل جاء عباس باشا الأول أراد أن يلحقه بخدمته ، فأتته الراشون هذه
 الفرصة ، وأتبعوا أنه غير راض عن خدمة عباس باشا الأول خديو مصر ،
 وأنه صانع مع سعيد باشا بن محمد علي باشا الذي كان يحكم سنه ولي العهد عامر
 وفكان سعيد معصوباً عليه من عباس الذي اضطره أن يلزم لاسكندرية
 ويقيم في قصره هناك بالقبارى .

وسكن شاعرنا كذنب هذه الوشاية ، وقبل خدمة عباس بسرور عظيم
 معلناً ذلك في قصيدة يقول فيها :

عباسنا وولى بعثنا له نعم بعثت عن نبي العباس
 فأيامه دائماً في عزة ومخالفوه هم بنو الإنعاس
 لما أتى أمر المسرة في نبي شغل على عيني أتيت ورأسى
 مستشراً رجلاً إلى ملك له في كل فصل مسودد بأحاس
 أرجو القبول ومن يفر بقبوله قال السعادة غالياً من بأس

وقد التحق الشاعر خدمة الديوان ، وصدر عنه من المكاتبات الرسمية
 ولأماليب الديوانية ما استفاد منه كتب لديوان بعد ذلك ، وخاصة
 عهد أخيه باشا فكري الذي عهد بحق الأستاذ الأول للكتابة الديوانية في
 العصر الحديث . وقد ظل الشاعر على ولائه لعباس باشا ، وذهب مع
 إدهابين في حركة الدعوة لإنشاء إلهيم إلهي بولاية أحمد بدلا من سعيد
 باشا ، وصار الشعر يدعو « إلهي باشا » في شعره « بأندبنا الصغير »
 « ووارث الملك الثابت » ويدعو لبني العباس بقوله :

فلا زال هو العباس مالكة مفتاح الملك في عز وإعظام

وهو بهذا الانعدام لبني «السياس» يشترك مع الرغبين في تنحية سعيد باشا عن ولاية العهد. ولكن الشاعر غير موقفه حينما صرح عداس باشا بمصرعه الأليم العارض في حادثة نهب، واشتغل بذلك عرش مصر إلى الخديو سعيد باشا. فزاده في رلى شحنة سعيد باشا بالحكم سنة ١٢٧٠ هـ سنة ١٨٥٤ م من قصيدة يقول :
 يا مصر يا هذا السرور العظيم قالت سعيد قلت هذا التعميم

فأهلك نادى يوم تاريخه عزيز جاهي ذو مقام كريم
 ولما لم تغل بالشاعر الحياة في عهد سعيد فقد مات في العم نفسه

مراتبة مع رجال عصره :

كان في المرويش ظرف جعله محباً إلى كثير من رجال عصره ، وكان على أحسن الصلات مع أكثر أدياء ذلك التجموعاته كالسيد حسن أباطة والشيخ مصطفى العروسي والشيخ عبد الرحمن الجمبري المؤرخ المشهور ، والشيخ عبد الرحمن الصفقي المصحح بالمطبعة الأميرية ومنقح الصبغة الأولى من كتاب «كيلة ودمية» ، والشيخ مصطفى البدري ، والشيخ علي العليان ، والشيخ عبد الفتاح الحريري ، والشيخ أحمد المسيري ، وأحمد أفندي لأذكارى . وكانوا كلهم من أدياء عصر محمد ص باشا ، إلا أن آثارهم لم تطبع ولم تنشر . وأغلب في المكتبات الخاصة التي كانت بدعة الأدب في ذلك العصر .

وقد ساعد على توثيق العلاقة بين المترجم له وبين هؤلاء أنه لم يكن بينهم وبينهم مظلة التناقض الشعرية ، فقد غلب النثر عليهم أكثر مما غلب الشعر

بل غلب التاريخ على الشيخ الخبزي ، فأشاع ما جانب المسافة منهم .
إلا أن شاعراً واحداً قد أقض مضجعه ... وقد حاول صاحب أن يصرفه
عن باب الخديو عباس بإنشأ الأول فلم يفتح . . . وهو « الشيخ محمد شهاب
لدين » شاعر عباس أيضاً . .

وقد كان هذا الشاعر الأخير أرق بهساً وأعف قلباً من « الدرويش »
لثى ربه ، أفتح ألفاظ الهجاء . وقد اشتدت الخصومة بين « الدرويش »
و « للشهاب » والمترجم له يورى نذر العداوة ، والنام من حوهم ما يتبعون
بلون من الهجاء يحسون أن بسهمه ، وأب يشعروا منه بهم طائفتهم . على
أن أسكنه « الشهاب » بأهجية يقول فيها .

عاش دهرأ وجهه فى ازدياد	لينه بعد لم يكن ليميشما
يحتنى الكرم يابداً وهو يابى	يحنائاته ويرعى الحشيشما
إن تبنى خياله تغدير	خاف منه وخال فيه جبرش
وهو فيما داخله خارجى	رافضى يدعو به الدرويشما
كان مثل البانوش فى الرجل لكن	جعلته أيدى الغلا سريوشما
قر به لم يكن لنا منه يد	لو صرفنا فى البعد عنه قروشما
هتوخى يا نفس صبرأ عليه	فى ليالىك مايثل العروشما

وشاء الله أن يتقرب المترجم له بعد هذه الأهجية مادحاً للشهاب ،
ببضع من القصائد . . يقول فى إحداها .

وسبح بفظك الأكبر بردأ مرصعه معاك العبدان
فجعلها عن قوم نعيان وتجمعها على أخرى عذاب !!

أغراض من الشعر

ظم ، المدروش ، في أكثر الأغراض التقليدية التي عرف بها الشعر العربي . فصح وبها ورثنا وأصبح وبها ، إلا أنه اشتهر بالتاريخ الشعري الذي كان شائما في ذلك العصر ، مما أفاقه ، ولم يدع ساحة من حوادث مصر إلا أريخ لها شعرا ، وبعد شعره من هذه الناحية سجلا تاريخيا تحفظ فيه الناحية التاريخية العامة بالنواحي الاجتماعية الخاصة التي توجهها مناسبات العلاقات بين الأصدقاء .

وله قصائد كثيرة في المدح البوية ، ثم مدح بعد ذلك عظام زمانه كـ محمد علي باشا وإبراهيم باشا وعباس باشا ، ونقيب الأشراف السيد البكري ، وشمس خان حسن المطار والفويسقي والعباسي المهدي مفتي الحنفية والسيد حسن أباظة وغيرهم . ولما نزل بمصر السيد السنوسي الكبير — مشيخة الطريقة السنوسية — مدحه الشاعر بعض القصائد .

على أن أعرب في مدح المدروش ، هو مدحه لأبنته مرة ، والملكة مكتوبيا وبمسكها مرة أخرى . والممدوح لدمري فقصص النجدة في مصر ثلاثة . وزول وجه الغاية من هذه التسمية في شعر السيد هلي المدروش ، ذا عرفنا أنه كان مديرا عن ميو ، مولاه عباس باشا الأول الذي أقصى حرام محمد علي باشا الفرنسيين فلم يعد لهم نفوذ لديه ، وقرب إليه المستر دشارلومري ، فقصص برطيا العظمى في ذلك الحين — الذي كان له عليه تأثير كبير وبه عدة كلمة مسموعة ، كما يقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن ارفعي بك

فلم يكن الشاعر المدروش في هذه المداخل الإنجليزية العجيبة مخرجا على

هوى مسكه ومولاه . وله شيء من العذر حين يميل مع السياسة التي اتخذها الخديو عباس دستوراً لهذه .. ولكن ما عند شعرتا حين يغالى ويسرف في المدح حين يقول ،

الإنجليز أمة وجسودهم ومنكر العقل هم مسقية
مسيوهم لم يعمره كربة عند الملوك عديم وجه
يكفيه فخراً أنه انكترى

نيرانهم جهنم صلياً وملوكهم جبات عدن الدنيا
ها بنا إلى العجم ها في ظل لندن تستفيد الحيا
فهي الحى والفرز لمضطر

ولعل هذا لتخصيص الأخير بعونه وها بنا إلى العجم في ظل لندن ، يفسر سميول الخديو عباس الأول نحو الإنجليز ، وقطعه العلاقات مع فرنسا . وقد كان عجم باشا يرجو أن يستعين الحكومة الإنجليزية بمنع تدخل حكومه الأستانة في شئون مصر ، فقد كانت تسعى سعيها سخيلاً في تطبيق قانونها الاسامى — المعروف بالتفليات — على مصر .

أما هجومه فيشمل جزءاً كبيراً من صفحات ديوانه ، وهو في ذلك على القصص من معاصره الشيخ محمد شهاب الدين الذى خلا ديوانه من الهجاء .. والذى لم يركب هجاء السيد على السرويش إلا مضطراً ومن عجب أن صلة السرويش ، بالخديو عباس الأول ، ولقبه بشاعر ، وخدمته في ديوانه لم تمنعه أن يظيل ويعيش في باب يرفع عن ولوجه شعراء الملوك ... وقد كان الباعث له على الهجاء خوفه على مكانته في التسهر أن يزعجها منه صغار الشعراء في عهده . وفي صفحات ١٨٠ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٧ .

٣٠٩، ٣٢٦، ٣٢٧ من ديوانه أمثلة من أكثر صور الهجاء إقداعاً في شعره .
وكثيراً ما كان يهدد الشعراء بالهجاء قبل أن يساط عليهم لذهجات لسانه
سمعه وهو يذمر أحد هؤلاء المساكين بقوله من رسالة له (وأنى
صحتك نصيحة الشفيق ، لعلك حق العى صديق ، فإن رجعت نجوت بالهروب
ولا فرحت من أحلك من الأدب ، وجعل شعرك صحنك للعجم والعرب
أعمل فيك دققة من صناعة الآداب ، مناجها أحد على من الأحقاب ،
وما سمع سامع ولا وحفظها . ولا طرأ باظر إلا ولحظها . فإن صحت
عربك فيها ؛ وإلا فألها) ..

وبمثل لسان الدرويش ، صورة الممالك المصرية الذى لا يهجه ريف
مصر فبهجره ملك أمديته كما يعمل ملاك الأرض اليوم ؛ فقد كان له بعض
الأرض في الشرقية ؛ في صعيد مصر ، واسكنه كان يكره أريف ويكره
النزول فيه ، ويحس عليه في شعره حملات — كقوله .

درويش تلك المرام لما على شفا الرشد بلى صورك
تركت ريفاً خذاً عنيفاً من كل وجه تراه صورك
كأنما جئت من جحيم إلى أعيم أراح سرك ..

وكقوله في صعيد مصر :

سعيد من رأى عنه الصعيد

صمود ما لاله معدود

وردنا منفلوط فلا مسقاما

وردناها فأظلماتنا الورد

صناعات فنية

أغرق الدرويش في استعمال المحسنات الكلامية إغراهاً أوجت به ظروف ذلك العصر ، وفوق استعماله لأنواع الخناس وأسورية والطاق في شعره كان يعيل إلى عمل « الدبكات » ، مقبداً « اس حجة » في بديعته المشهورة ؛ كما كان يكثر من استعمال الآيات المحمّدة تارة ، والمهملة تارة أخرى ، واستخراج قصيدة من رسالة نثرية أو من قصيدة أخرى ، وما يقرأ صرداً وعكساً ، وهرباً سمية بعض البديعيين ما لا يستحيل بالانعكاس ، وغير ذلك من أنواع اللعب اللفظي الذي لا يدل على شرف في المعنى ، ولا روعة في المعكرونة ، ولا عمق في الخيال ، وإنما يدل على مهارة في الصناعة اللفظية . والأدلة على ذلك ماثورة في ديوانه

أما التراخي الشعري فقد برع فيه براعة جعلته إمام هذه الصناعة في ذلك العصر . وقد بلغ من براعته فيها أنه كان يسأل كرامتها في إنشاء أماني والماسجد والفتاخر . . . ولم تخل قنطرة أشأها محمد بن أبي بشار من تزيين تسرى له من نظم الدرويش .

تعبيرات بلادية

ويمتاز شعر الدرويش باحتوائه على التعبيرات « البلدية » أو العامية التي كانت تدور على ألسنة أبناء البلد ، في ذلك العهد فغمره من هذه الناحية سجل اطائف من الاستعمالات العامية التي لا تزال تجري على لسانه إلى اليوم . وإذا كان هذا يضع من رصانة الشعر من ناحية ، ويذهب روعة القريض فإنه من ناحية أخرى يهوى شأ لجة أبناء البلد في ذلك العصر . وكثيراً ما تجد في قصائده أمثال هذه العبارات : « لا يعرف الصبا من العمى ،

« ست الحسن واجمال » ، « ينفون في قنبر بيض » ، « على عيني وراسي » ،
« وكلوه علقه » ، « كسرو وجهه » ، « رجل مكبظ » ، « عصل في الطريق » .

تأريخه وأخباره

اشتهر الدرويش بوضعه أسماء بعض الاحياء الوطنية بتكليف من
الوالي ؛ فقد أمر من الخديو عباس بوضع اسم لحي « قيسون » ، فاقترح
عدة أسماء منها اسم « حى حليبه » الذى وقع عليه اختيار الخديو ؛ كما أمر
أن يسمى « أورمان بنها » اسما آخر ، فاقترح اسم « مناظم الصديق » وبمجموع
حروجه يساوى تاريخ إنشائه سنة ١٢٦٦ هـ . كما اشتهر بوضع أسماء للسفن
المصرية تتار بخفة النطق واحتواء تاريخ إنشائها ؛ فوضع من ذلك بضعة
عشر اسما .

مؤلفاته فى الكتابة

يعد الدرويش أول من « عرب » الكتابة الديوانية فى مصر الحديثة
بعد أن كانت العجمة والعامية غالبة عليها ، وله فى خدمة ديوان عباس
الأول مجموعة من الرسائل والمكاتبات الديوانية مهدت السبيل لكتاب
الدواوين بعد ذلك . وقد كانت طريقته فى الكتابة تجرى على السجع
والمحسنات البديعة ، إلا أن رسائله تتار بوضوح القصد وعدم طعنان
اللفظ على المعنى ، ويكتفى حرا فى الكتابة أنه ألحج من التلاميذ الشجع
مصطفى سلامة النجدي ، الذى كان المحرر الأول « للوقائع المصرية » فى عهد
الخديو سعيد باشا .

أول رائد في تحرير النظم العربي

الشيخ حسين المرصفي

٩ — ١٨٨٩

الشيخ المرصفي في كتب التراجم

إن مكان الشيخ حسين المرصفي من أعلام النهضة الأدبية في عصر
إسماعيل مكان متفق عليه بين المؤرخين ومؤرchi الأدب ، وهو ذلك
المكان الذي ارتفع بحق شيخ صريح ، شيوخ الأهر فأصبح بلقب
— جديراً — بلقب شيخ الأدباء في عصر إسماعيل ،

وإذا كان عصر إسماعيل قد زخر بطائفة من الرجال امتاز كل واحد
مهم في فنه كعبدالله فكري ، شا في صناعة النرسل ، وأحمد فارس السدياق
في اللغة ، وعبدالله السديم في الخطابة الوطنية ، والشيخ حسن الطويل في
المتنطق ، ومحمود صفوت السعاق في الشعر ، ومحمد عثمان جلال بك في
القصة ، وعبدالله أبو السعود في الصحافة ، فإن الشيخ حسين المرصفي قد
امتاز في الأدب وتاريخه بصورة لم يتارعه فيها متارع من رحالات عصره ،
على رسوخ أقدامهم وعلو مكاناتهم .

وعلى ما أمداه الشيخ حسين المرصفي إلى دراسة تاريخ الأدب الحديث
فإن تصنيفه من كتب التاريخ الأدبي والتراجم هو نصيب لمجاهدين
المتواضعين . . . فلم يظهر بترجمة واحدة مطولة مفصلة كما ظهر كثيرون من

أقرانه في الفضل وأدبه في العلم؛ ولم يجد له إلا بصعة أسطر في كتاب
 الخطاط التوفيقية « أهلى باشا مبارك وهو يتحدث عن قرينة « مرصفي » في
 الجزء الخامس عشر من هذا الكفر التاريخي الثمين
 ويظهر أن الترجمة للشيخ حسين المرصفي كانت شاقّة لمن جاءوا بعده
 على «شا مبارك» فأغفله المرحوم جورجي زيدان وهو يترجم بقراءة تسعين
 ملياً من أعلام النهضة في كتابه المشهور « تراجم مشاهير الشرق » كما تركه
 الأستاذ حسن السندوني في كتابه « أعيان البياض » أدى ترجم فيه لطائفة
 من أعلام الأدب والشعر منذ عصر محمد علي؛ وأعجب من ذلك كله أن
 أن يتركه المعهور له أحمد تيمور باشا وهو يترجم لأربعة وعشرين عيلاً من
 أعيان العلم والأدب في كتابه : « تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل
 الرابع عشر » الذي طبع بعد وفاته .

ومارال حظ الشيخ المرصفي بضوئ من الأسطر التسعة التي تهدر بها
 على «شا مبارك في «حظته» حتى نسخ نصيبه ثلاثة أسطر من الترجمة في
 كتاب « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » للأب لويس شيخو
 اليسوعي . وهو نصيب لا يقوم كفاء ما أسداه الشيخ إلى دراسة تاريخ
 الأدب من خدمات ... على أن مؤرخاً المصنف عبد الرحمن بك الزاوي
 م يفته وهو يترجم لأعلام الأدب في عصر إسماعيل أن ردد «ضعة
 الأسطر التي جاءت في كتاب علي باشا مبارك . وهي لمصدر الوحيد
 في ترجمة الشيخ الجليل

والحق أن الشيخ المرصفي لم يترك لنا ترجمة تفي بطلبات المؤرخ أو
 تلقى صوماً قوياً على حياته . وأكثر من هذا أنه لم يبد المؤرخ بما يكنى
 لدرسته دراسة لا تشق على الذين يأتون من بعده . فقد كان معاصراً

لعلى باشا مبارك وكان صديقاً له . وقد كان في مقدوره أن يمدّه بطرف من أخباره ليذكر في كتابه الخطأ كما كانت طاعة على باشا مبارك مع رجالات عصره ، فقد كان يرجو أن يمدوه بأندرهم ليدوم في كتابه .

منع العلماء

هناك بلاد احبها الله وإنتاج صنف من الناس يشربون عذبة مشتركة ، اخص الله بعض البنات والقطع المنجوت من الارض بألوان متشابهة أو غير متشابهة من الثياب والعلاب . . . هذه أرض تجود فيها الكروم ، وتلك أخرى تصح فيها الحيل . وهكذا الناس من البلاد . فهذه لدة تخرج العبداء ، وتلك أخرى تعجب الشعراء . وقد أخرجت قرية « سيك » من أعمال المويفية أجيالا من العلماء والفقهاء عن رأسهم « النسيكي » صاحب « الطبقات » ؛ كما أخرجت قرية « مرصلى » أو « مرصف » أجيالا من علماء والأدباء ، وانسب إليها عشرات من أعلام الفقه والحديث والأدب والنصوف مثل بضعة من القرون .

و « مرصاء » قرية من قرى مديرية القيوية بمركز بسا ، وقد اشتهرت — فوق إلتحها العلماء — بأنها مصطبة أثرية ، وتدل الحفريات غير العلمية التي كانت بها في أوائل القرن التاسع عشر على أنها من المدن القديمة التي كانت عامرة بالسكان قبل الإسلام بزمان .

وقد ذكر صاحب الخطوط التوفيقية أنه وجد بها في القرن الماضي حندق يشق من المشرق إلى المغرب ، ولا يدري إلى أين ينتهي ، ووجد بها مصانع

تمتلكه جداراً وخزناً ، ولم يزل يظهر بها آثار ذلك إلى الآن — أى إلى الوقت
لدى كتب فيه على يدك ، مبارك خطه الجديدة .

وقد ظلت ، مرصفاً ، إلى أخريات القرن التاسع عشر يتنافس أهلها
في تعليم أولادهم ، ويتم ذلك في المكتب أولاً حتى يحفظوا القرآن ، ثم
يخرجون من القرية إلى 'جامع الأزهر' ، فيكملون فيه تعليمهم ويخرجون
للتدريس فيه على طريقة العلماء في ذلك القرن .

ولقد كانت العقيدة السائدة بين أهل 'مرصفا' أن فيها كنوراً خفية
نحت الأرض ، وقد أوحى هذه العقيدة بعض القطع الأثرية التي كان يعثر
عليها هناك من حين إلى حين ؛ وطناً أنتع كثير من أهل القرية أنفسهم
في التفتيش عن الكبر المدفون في غير جدوى . ولكن للعقلاء منهم انجذبوا
إلى كنوز العلم بالتمسوها في الأزهر على قدر ما كان مألوفاً من العلم في ذلك ،
ومن هؤلاء العقلاء الشيخ حسين المرصفي

مرصفا ، كثره

والمرصفيون أو المرصفة في التاليف العربي لبسوا أبناء أسرة واحدة
كما قد يخطر على البال لأول وهلة ، ولكنهم أبناء قرية واحدة ، وقد
لا يكون بينهم من القرابة أكثر مما يكون بين أهل القرية الواحدة . وسكن
هذه النسبة بعضهم جميعاً في الفصل إلى صلات واحد ، وهم يرجعون بذلك
إلى مئات من السنوات منذ قام للأزهر جدار للتعليم الديني في مصر ، فهم
الشيخ نور الدين خبيل المرصفي المدفون بقرب ضريح السيدة عائشة رضي
الله عنها ، وهو والد الإمام الصوفي الشيخ علي خليل نور الدين الذي

اخضر رسالة الإمام الزاهد المتصوف عبد الكريم القشيري المشهورة
بالرسالة القشيرية ، وكان هذا الزاهد شيخ حراسان وعلمها في القرن
خامس الهجري

وقد لمع منذ عهد محمد علي الكبير نجم جماعة من المرصفيين منهم الشيخ محمد
ابن أحمد المرصفي الذي توفي في عهد الخديو سعيد باشا سنة ١٨٥٥ بعد أن
اشتغل بالتدريس وباعمل في مجلس الشورى والحقانية ونصبه المرحوم
إبراهيم باشا بالقصر العالي منفصل في القصاب اشرفية المسلسلة بدائرة ، أما
ابنه الشيخ أحمد شفي المرصفي فقد أجاز من الأزهر للتدريس على مذهب
الشافعي كأبيه وأهل بدته ، وعين مدرساً للغة العربية بالمدارس الأميرية
وألف في ذلك كتاباً عنوانه : «تقريب من العربية لأبناء المدارس الابتدائية
» طبع في مطبعة المدارس سنة ١٨٦٩ م .

ولا ننسى ونحن بعد المرافقة للشيخ أحمد شرف الدين المرصفي انني
كان زميلاً مترجماً له في التدريس بدار العلوم ، فقد حظيت دار العلوم
في أول إنشائها سنة ١٨٧٢ بالمرصفيين الاثنين . . . هـ . يدرس التفسير
والحديث وصاحبنا يدرس تاريخ الأدب العربي على هيئ جديد . والمرصفي
أفسر هذا كتاباً هما : - المطبع السعيد لارشاد المريد في علم التوحيد ،
و « محبة المقاصد ومعدن الفوائد » في فقه الإمام الشافعي .

وهذه انشيوخ زين المرصفي لدى كان معنياً للأمر حسين كامل نجمل
الخديو إسماعيل ؛ وهو الذي صار سبطاً تابعي مصر فيما بعد . وقد ترجم له
محمد تيمور باشا ترجمة وجيزة في كتابه « تراجم أعيان القرن الثالث عشر »
وكان يجيد اللغة الفرنسية التي تعلمها حين ذهب مع الأمير إلى فرنسا ليكون

معلماً له وعضواً بالبعثة التعليمية . ولم يذكر تيمور باشا كنية الثلاثة التي أنفها وهي : « آداب البحث » ، « التحفة الحسينية في القواعد النحوية » ، وقد نسبها إلى الأمير حسين ، و « حاشية على بيتي المقولات للشيخ أحمد السجاعي » .

ولا يذكر المراجعة من غير أن يعرج على الشيخ « سيد » على المرصفي ، شارح الحاشية لأبي تمام ، والشيخ محمد حسن نائل المرصفي الذي كان مدرّساً لغة العربية بمدرسة الميرير بالقاهرة ، وهو صاحب كتاب « أدب اللغة العربية » المطبوع سنة ١٩٠٨ ، وصاحب مجلة « الجديد » ، التي كانت تحفة من تحف الصحافة الأدبية المعاصرة إلى سنة ١٩٣٢ .

وفاته وولده

كان الشيخ حسين المترجم له ابناً لعالم من علماء الأكره اسم الشيخ أحمد حسين المرصفي ويكنى بأبي الخلاوة . وهي كنية لم تقف على تعليل لها . وكانت حياة نواله من أعجب العجائب كما روى ابنه . فإنه لم يدحس المكتتب إلا بعد سن الثامنة عشرة ، فاستدأ به طلب العلم في سن يتقطع فيها الطلاب عند كثيرين . ولم يكن صبره على طلب العلم في سن كهذه أعجب من حفظه للقرآن الكريم في سنه أشهر ... وعنى الرعم من تأخر الزمان به في طلب العلم فقد تقدم به الجند فيه حتى صدر إماماً في زمن قريب . ولست صفة الإمامة هنا مبالغة ما ؛ ولكنها بما سجله مؤرخ معاصر لم يعرف بالأسراف في حلق الألقاب أو مجاملة الصحاب . وكان الأزهر في ذلك الحين تردهر حقائقه بالشيوخ الأجلاء : عبد الله الشرفاوي والقويسني والفضالي ، والدمهوجي والصاوي . وما منهم إلا به في العلم مقام معلوم . فالشرفاوي كان شيخنا

للأزهر بعد وفاة الشيخ العروسي؛ وحديثه مع حلقة الفرنسية معروف مشهور؛ والقويضي تقلد مشيخة الأزهر بعد الشيخ المطار، وكان كفيف البصر كثير التحقيق مهييا عند الأمراء والعظام، والمدهوسي كان شيخا للأزهر كذلك بعد الشيخ محمد العروسي، والقلمعاوي والفضالي كانا من أكبر العلماء وأرثق الشيوخ في ذلك العصر. وقد أخذ الولد عن كل واحد من هؤلاء الأساتذة أطيب ما فيه؛ فأخذ عن القويضي شرف النفس وعلو الهممة والمهابة التي تسو على سمعه وتشيع في مجلسه، وأخذ عن الدهوسي الزهد والفتاوة. وقد بلغ من فتاوته أنه لم ير في ولية إلا نادراً وكثيراً ما كان يسعده الأمر إلى مبارهم فلا يجيبهم [الخطط ج ١٥ ص ٤٠] ويبلغ من مهابته أنه كان بحيث لا يستطيع الطالب أن يربح صوته في درسه ولو بالنساعمال، وإذا احتري أحد أمهم السعال تحو وأخفى ذلك ما أمكن - [المصدر السابق].

وكان في والد المترجم له عربة عن الناس وقلة مخالطة لهم، وورث منه عنه ذلك فكان قليل الإيام بالناس إلا في درسه، وكان قليل الإكثار من الأصدقاء إلا ما كان بينه وبين عبد الله باشا فكري؛ وهي صداقه وكنتها الألفة فارفعت بهما الكلمة كما سرى في مداعبات كتابية بينه وبين عبد الله فكري الوزير الأديب،

وقد أشبه الولد أباه فاطم؛ واختصته بالأقدار بحافظة ذويه كحافظة أبيه فقد كان أبوه حافظاً، وكذالك كان الابن؛ وقل من يسمع شيئاً ولا يحفظه. حفظ المتون جميعها، وزاد عليها المتون التي لم يبال الناس بحفظها؛ كتن د جمع الجرم مع الإمام السبوطي في علم البحر، وكتن د تلخيص المحتاج، للحطيب نقزوين في علوم البلاغة.

من الأزهر إلى دار المعلمين

ظل الشيخ حسين المرصفي مدرسا بالأزهر الذي تعلم فيه ولاقى العلم عن رجليه إلى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٨٨ — يوليو سنة ١٨٧١. ففي ذلك التاريخ وفي عهد نظارة علي باشا مبارك الثانية للمعارف المصرية، زادت دروس عمومية « بالآتقنيات » التي كان يسمى دار العلوم بسراى حرب الجامع^(١) وكان يحضر هذه الدروس طلبة المدارس العالية وفريق من طلبة الأزهر؛ كما كان يحضرها علي باشا مبارك نفسه؛ ومعه طائفة من كبار موظفي الحكومة وديوان المعارف، واحتج لإلقاء المحاضرات جماعة ممن اعتدت لهم شهرة في نواح من العلم سواء أكانوا من المصريين أم من الأجانب. وعين المترجم له ليقبض محاضرتين في علوم الأدب في يوم الأحد والأربعاء من كل أسبوع، وكان من المحاضرة الواحدة ساعة ونصف ساعة لهذه المائدة. وكان من زملاء الشيخ في هذه المحاضرات العامة المسيو فيسندال « باث » لمن السكك الحديدية، والمسيو جيجون بك لفن الآلات، والمسيو هنري بروكش « باشا » للتاريخ العام، والمسيو نكتيت لعلوم الطبيعة. والمسوفرانس « باشا » لفن الأبنية، والشيخ أحمد المرصفي مواطن صاحب الترجمة للتفسير والحديث، والشيخ عبد الرحمن البحراوي مفتي الحقانية لفقه أبي حنيفة النعمان، وإسماعيل باشا عدلي ناظر أمانة سجناء لعم العلاقات. وأحمد ندى « بك » لعلم النباتات.

وكانت هذه المحاضرات هي الثروة لإشياء مدرسة « دار العلوم » يوم علي الخامس من علي باشا مبارك بتاريخ ٣٠ يوليو سنة ١٨٧٣. ومن هذا

(١) التعليم في مصر لأدين باشا ص ٢٢.

لتأريخ ترك الشيخ حسين المرصفي التدريس بالأزهر الشريف . ليكون أول
أستاذ للأدب العربي وتاريخه بدار العلوم .

ودروس الأدب في دار العلوم

عند أن اختير المترجم له ليكون رائد الأدب الأول في دار العلوم ،
أخذ يعد العدة ليُجعل من تدريس الأدب العربي والبلاغة العربية منهجاً
جديداً لم يُجر على قراره قبل ذلك . فأخذ يلقي دروسه مبتدئاً ببيان أهمية
العلم ومعرفتها بعلوم اللغة والاشتقاق والنحو والمصانف والبيان والتبيين
والعروض والقوافي والإشياء والكسابة والتأريخ . ثم مضى بقية الأعوام
شارحاً لكل علم من هذه العلوم لأنها الأسس التي يصح به لأدب إلى
مكاتب في الأدب . ولذلك أطال المرصفي في عرض هذه الآلات الأدبية ،
فخرجت في كتاب صحم تزيد صفحته على ٩٠ صفحة في حزين أسماها
« الوسيلة الأدبية » .

وللشيخ المرصفي طريقة فريدة في تدريس الأدب وتاريخه ؛ فهو لم يجر
على الطريقة الرمنية Chronologique ، التي تسود معاهدنا اليوم ، ولكنه
جرى على الطريقة التحليلية ، فهو يشرح النص الذي يورده في موارد
الاستشهاد ، ثم يذكر طرفاً عن قائله ثم يستطرده إلى شيء آخر ؛ ثم يعود إلى
موضوعه . ولكنه على كل حال لا يخرج عن المقصد الذي يتكلم فيه من فصل
أو وصل ، أو ذكر أو حذف ، أو إيجاز أو إطالة .

وكان للراحل ذوق رفيع في اختيار النصوص الأدبية وعرضها ؛ مما جعل
« الوسيلة لأدبية » مجموعة من المختارات الأدبية العالية شمرأ وثراً ؛ فوق
ما له من القيمة العلمية في جمع أدوات النحو والصرف والعروض ولغما

والبيان والبدیع فی کتاب واحد . وإذا کذا اختیار الرجل قطعة من عقله فإن عذرات المرصی فی « وسئل » تدل علی رقة فی الطبع ، وإلى هذه الرقة أشد علی « أشامبارک » فی وصفه بقوله « مع رقة المزاج وحدة الدهن وشدة الخلق » .

وقد جرى المرصی علی الطريقة الحديثة فی دراسة المعاصرين وتحليل آثارهم ؛ ولم يمتنع من ذلك نصح العصر ولا اعتدال الزمان وهی فی محاضراته يتحدث عن « محمود سامی البارودی » ، وهو معاصره ، وكان ذلك قبل الثورة العراقية بعشر سنین ، وقيل أن يكون البارودی وزيراً أو رئيساً للوزارة ، فكان من تلك المعاصرات أكثر من ثلاثين صفحة فی كتاب « الوسيلة الأدبية » ، أفص فیها الشیخ الحديث عن حائقة من معارضات البارودی المشهوری الشعراء^(١) .

وكذا المرصی معجباً أشد الإعجاب بالبارودی فی الشعر ، وصديقه عبد الله فكري « أشام » فی النثر ؛ وهو إعجاب انعقد علیه الإجماع فی عصرهما . فقد كان لكل واحد منهما الإمامة فی بابہ . وی الوسيلة صوص من تتر عبد الله فكري « أوردها المؤلف مع كثير مما أورد من صوص النثر العربی علی مختلف العصور » .

هـ اطرحفی شاعر ؟

لم يعرف عن الشیخ حسن المرصی أنه دخل ميدان الشعر أو حرم حوله . وكان بالطلع قادراً علی النظم ؛ لأن عدته من علی العروض والقوافی كانت مستوفاة ، إلا أنه رأى أن إملاکة إذا لم توات امرأ فلا خير من

(١) الوسيلة الأدبية للمرصی ج ٢ ص ٤٧٤ - ٤٠٥

معالجة القريض حتى لا يكون غثا بارداً وكثيراً ما جعل في محاوراته عن
الشعر العث البارد وقد اعترف هو على نفسه بنفسه حين اضطر إلى أن
يمدح صديقه محمود ماسى البارودى باشما شعراً ، حتى تكون الملامدة آتم
في مدح شاعر بالشعر لا بالثر . فقال في عبارة صريحة : - «وعنى أن
ليس من طبعي أن أقول للشعر إما لهوت أو أن تحصيل وسائله ، ولم تكن
إذ ذاك دواع ترشد إليه ، وإنما لأن الاستعداد الذي سلف النسيه على أن
لا يد منه لم يكن في خديقتي . أنطقى حبه ، أى حب البارودى ، بآيات
أجملت فيها صغته وهى هذه » .

زكا أميرى طبعاً واعتنى شرفاً فصار حيث تدور الشمس والقمر
وعال ما نال عن كد الرجال فلا من عليه لشخص حين يشتر
بفضله كل أهل الأرض معترف كما تصادق فيه الخبر والخبر
لا يجمل اربة العلياء يدمره ولا يتيه بها ما أعظم الخطر
محمده وهو سر في مخايله حتى تخبر من علانه الكبر
ها أخذت عليه شبه بدرة ولا تخيلت أمراً منه يستدر
أدمه الله نقي من فضائله ومن هواضه ما أنبت الشجر
وأظن أن هذه آيات من كل ما قاله امرئى نطا ، وهى كما ترى نظم
اعتد الشيخ مه - كما سلف قوله - «سوت أوون التحصيل أو عدم
الاستعداد . وم أجد في كتب أدب نالك العصر بيت آخر للبرصى يدل على
أنه حاول ما ليس إلى محاولته سيق . ولقد أنصف الرجل حين عرف
طبعه في الثر ولم يجاوزه إلى ما ليس من طبعه ١٠٠٠

في عضوية المجلس الأعلى للتعليم

في عهد الخديوي محمد توفيق باشا وفي ٢٧ مايو سنة ١٨٨٠ وافق بمصر على تأليف «فومسيون» للتعليم برئاسة علي باشا وزير المعارف حينذاك ، وعضوية عبد الله فكروي باشا وكيل المعارف ، ولاري باشا ، وسالم باشا مدير مصلحة الصحة ، ودور بك مفتش المدارس ، وروجرس بك وكيل أخلاك الثبني ، وبيدال بك ، باشا ، ناظر مدرسة الآلس . والغرض من هذا الفومسيون اقتراح الوسائل لتحسين طرق التعليم بالمدارس المصرية وفي سنة ١٨٨١ اقترح هذا الفومسيون تأليف مجلس عال للمعارف وفي ٢٨ مارس من السنة نفسها صدر الأمر العالي بتأليف المجلس الأعلى للتعليم برئاسة علي باشا مبارك - وكان في ذلك الحين ناظراً للأشغال . وقد ضم هذا المجلس جماعة من الأجانب كالجنرال ستون باشا رئيس عموم أركان الحرب ، ولاري باشا ناظر لمدرسة الحرية ، والعالم مسيرو مدير الآثار المصرية ، والمسيو موجيه ناظر مدرسة المعلمين ، ومسيو جلايردو بك ناظر المدرسة الطبية . وبيدال بك ناظر الحقوق ، وجيجون بك ناظر مدرسة الحقوق والصنائع ، وسيت بك ناظر مدرسة الكتبخانة الخديوية كما ضم جماعة من أنه المصريين ذكر آ في نهضتها ، وهم حسين خري وانشاء . وعدداً من فكرى باشا . وسالم باشا ، واسماعيل إلهلكى بك ، باشا ، وعثمان غالب باشا ، وصادق شين بك . وكان عنصر الشيوخ ممثلاً في هذا المجلس لخصير أحسن ممثل ، فاجتمع في عضويته المترجم له الشيخ حسين المرصني لمدرس (٤) بدار العلوم ، والشيخ زين المرصني من علماء الأزهر ، والشيخ

(٤) الشيخ في مصر ، لأدين مامى باشا من ٥ .

حسونة النواوي مدرس الشريعة في مدرسة الحقوق يومذاك ، والشيخ محمد عبده الذي كان حينذاك رئيس تحرير « الجرنال الرسمي » المعروف بلوائح المصرية .

وكان من مطالع الخير لهذا المجلس أن افتتحت في دورته الأولى مدارس المنصورة وقلوب والجيزة وطوح الابتدائية . كما أشبه قلم الرحمة في بطاره المعارف في ١١ أكتوبر سنة ١٨٨١ وعين أديب سحوق باطراً له (١) .

الأديب المصري في مدرسة المنصورة

كان الشيخ المرحوم من الأدباء الذين فقدوا مصرهم ، ويس لدينا مصدر عن الشيخ هل ولد أكد أم أصيب بفقد مصر بعد مولده . إلا أن ذلك لم يمنعه من ملامته الخلدن من أن يحتل مكانه في بناء النهضة لأديبة لمصر الحديثة . وقد قضا إنه حفظ كثيراً من المون حتى التي لم تكن موضعاً للحفظ . وكان رحمه الله يقرأ الخط العربي على طريقة تعميم غير المصريين عن طريقة الجلس باليد وهي الطريقة التي تعلمها في مدرسة الصبيان والخرس التي أنشأها الخديو إسماعيل العظيم في ٢١ فبراير سنة ١٨٧٠ تحت نظارة المرحوم محمد أنسي بك . وكان الطلبة يتعلمون فيه القراءة والكتابة على صريقة بريل BRAILLE لأول مرة في تاريخ التعليم في مصر . وقد رأى الشيخ الفرصة مناسبة ليعلم الفرنسية على الطريقة نفسها ، فأنتقل الفرنسية كتابة وقراءة وكلاماً . ومن عاملاً نفسياً من الخبرة هو الذي

(١) مجلة الكتبة جرد فبراير سنة ١٩٤٨ راجع ترجمة أديب اسحق في اعلام

النهضة من ٢٧٢ ، وناسد السابق ٤٩

دفعه إلى تعلم اللغة الفرنسية ؛ فإنه رأى موطنه الشيخ زين المرصفي ورميله في عصرية المجلس العالي للتعليم ورميفه في الأدهر يلم ببعض اللغات ويحيد الفرنسية ^(١) فأثر أن يتعلم ذلك اللسان الذي كان يعرف به الشيخ زين المرصفي على شيوخ الأدهر ^(٢) وقد اشتغل المرحوم مدرساً للغة العربية في مدرسة العميان والخرس بجانب تدريسه للأدب العربي في دار العموم .

مقابلات مع رجال عصره

قلنا إن المترجم له ورث عن أبيه الشيخ أحمد صفات العزلة والحياء والحد عن مخالطة الناس ، فلم يكن يعرف بدوات القاهرة وبجاسمها كما كان يعرفها مثلاً الشاعران علي اللبثي وعلي أبو النصر ، وكما كان يعرفها علي الأقل رميله وبلديه الشيخ زين المرصفي ، ولم يكن له غير محاضراته في دار العلوم ومسكراته في منزله ، ولكنه مع ذلك لم يعيش عن الناس بمنزله تام ، فصادق سمي البارودي الشاعر ، وصافي عبد الله باشا فكري ، واتصل بعلي باشا مبارك أخص المعترف بالفصل . وكان بينه وبين عبد الله فكري باشا حدسات في المكاشات ؛ ترجع إلى تسميع فكري باشا وسماحته في الود أكثر مما ترجع إلى روح المرصفي بهمه ؛ فإنه كان يبدو مترمناً متنبهاً ؛ ولم كان عبد الله فكري يشير الدعاية فيه وهو يكتب له من الأستاذة سنة ١٢٨٨ ١٨٧١ مشتاقاً : — (. . .) . و لحق أني ابتدأت في تحرير هذه السطور ، وقد قريب لإرسال البوستة إلى الوابور . فقصدت إلى احتصار الكلام ، وبدأت باختصار السلام ، ثم أردت أن ألعب ، وادو الشيب يلعب ، فأنجز الكلام وانفسح المقام . . . ثم إلى بعد أن حررت ما حررت ، وجعت فتذكرت ،

(١) تراجم أعيان القرن الثالث عشر المرحوم أحمد تيسر باشا ص ٨٧

(٢) المصدر السابق ص ٨٦

أن الشيخ ربما يقول : م م تسكتب في سعة لزمان ، وحالة وجود الإمكان
وقدعت أنفكر طرد في عدد ألفقه فما تبس ، وجواب أنفه عن هذا
السؤال فتعذر ! فالمرجو من التسمح آدم الله حفظه ، أن يتفكر لما في
هذا الأمر قدر لحظة ، ويسألنا جملة أعذار لهذا الشأن ، نعتذر بها في بعض
الأحيان ، من يلوم علينا من الإخوان (١) .

مؤلفاته

ترك الشيخ حسين المرصي كتابه الخالد - « الوسيلة الأدبية »
إلى العلوم العربية ، في مجلدين كبيرين وهو مجموع المحاضرات التي
ألقاها على طلبة دار العلوم في أول إنشائها ، وقد طبع الكتاب أول
طبعته في مطبعة المدارس المسيكية سنة ١٢٨٩ - سنة ١٨٧٢ وتم طبعه
في سنة ١٢٩٢ هـ . وم يطبع بعد الطبعة الأولى طبعة ثانية . وقد
أشرف عمر هذه الطبعة على تدوينها وله كتاب بعنوان « الكلم الثمان »
طبع في مطبعة شرف سنة ١٢٩٨ هـ ، وهو يدخل في باب الاجتماع .
وقد شرح فيه الشيخ معنى الألفاظ الدائرة على ألسن شبليان العصر
في وقته وهي : - الوطن والحريية والأمة والعدالة والظلم والسياسة
والثرية والحكومة . ويعد هذا الكتاب من أول الكتب العربية في التربية
الوطنية والسياسة . أمثالث مبركة من الكتب وهو كتاب درهرة الرسائل
الذي طبع في مصر على الحجر في تاريخ غير معلوم

(١) الآثار الفكرية لأمين باشا مكرمه ص ٧٨

وكان في الرجل نزعة دينية قوية فأنشأ في العاصمة التركية مجلة «الإسنان» سنة ١٨٨٤ . وكانت تصدر في كل شهر مرتين في أربع وعشرين صفحة لخدمة الإسلام أولاً . وخدمة للعلوم والفنون والزراعة والصناعة ثانياً ، ولكن الحوادث دفعتها إلى الاحتجاب بعد أن ظهر منها ١٩ عدداً ؛ ولكنها عادت بعد سنة تقريباً إلى الظهور في شكل جريدة أسبوعية وظلت إلى سنة ١٨٩٠ ، حينما عطاها صاحبها بنفسه بخياراً ليعود إلى مصر مستأنها جهاده في سبيل الصحافة العربية .

ومن الصحف التي حررها لمترجم له في القسطنطينية جريدة «الاعتدال» وعاصم أول إنشائها . وجريدة «السلام» . والأولى كان يملكها أحمد قنبري المرحوم العربي للسطن عبد الحميد ؛ والثانية كانت للحاج صالح الصانعي . وهما عربتان . أما الجرائد التركية التي انشأت في عهدها فأهمها «ارتقاء» و«زمان» .

وكان لمترجم له نشاط عجيب في إصدار الصحف وتحريرها كما كان نشاطه في التأليف أعجب . وما ظنت برجل صحافي يشتغل بالسباسة والتحرير ومشكلات عصره . ويطلع نراه كل يوم أو كل أسبوع أو أسبوعين تنقل في الصحيفة التي يعمل فيها أو يملكها . ثم يجد من الوقت ما يتسع لتأليف ستين كتاباً في اللغة العربية وعشرة كتب في اللغة التركية ؛ وبعض هذه الستين مطبوع وبعضها مخطوط ، وبعضها في مجلد واحد وبعضها في ستم مجلدات ، مثل كتابه «حسنة القلم في دولة الحكم» .

ومناحي أوجر في التأليف تنصب عليها الروح الإسلامية القوية ، فقد كان مسقيماً العفيدة منين الدين ، وكان فيه حكمة مصبنة وبطرة إصلاحية

صحيحة . أليس من كتب (النصيح المأم) في لوازم علم الإسلام) ؛ ثم
لا يذكرنا هذا الكتاب بكتاب لأمر شكيب أرسلان (لم دا تأخر
المسلمون وتقدم غيرهم ؟) . وله فوق ذلك كتاب (الصديق واللائم .
أسباب انحطاط وارتقاء الإسلام) وكتاب (الأخاء العام ، بين شعوب
أهل الإسلام) ولكن هذه الأخوة التي سعى إليها صاحبنا كانت في ظل
الحكم التركي حتى عني نساوته وظلامه فقد كان داعية له في كل ما يكتب
مدافعاً عنه في كل مناسبة .

فلما قام الشيخ إبراهيم البارجي الغري المشهور في إثارة العراية
لمصرية داعياً إلى تنقص الترك والإشادة بذكر العرب في قصيدته السيئية
لمشهور قام محسن محسن أنطون إلى يرد عليه بقصيدة من البحر والقافية
يقول فيها :

دع عنك حادثة الوسائوس قالل علقبة السائس
واحش الكلام لكم جئت حرب السوس وميق داحس
مانا تريد بشئها ذهبا توحش كل آنس ؟ ؟

ولكن قصيدة البارجي كانت قاسية على الترك شديدة اللهجة فنيهاً يقول :

هوم نفسد حكمواكم حكم الجورح في الفرائس
كم تأملون صلاحهم ولهم فساد الطمع سائس
ويهرصكم برق المنى جهلا ولبل ليأس داس
أو ماترون الحكم في أيدي المصادر والمالكس
وعلى الرشى والورق قد شادوا المحاكم والمخالس

وكان البارجي في أثناء الثورة العرابية واقفاً للترك بمرصاد يحط من

أقدارهم ويصف من أقدارهم ما ينسبهم إلى العرب ولعل أعزب فصائد
 إليزجى - والثنى ناشىء يذكر - قصيدته البتية التي يقول فيها :
 أقماركم في عيون الترك الرثة وحفكم بين أيدي الترك معتصب
 فليس بدري لكم شأن ولا شرف ولا وجود ولا لاسم ولا لقب
 فيا القومى : وما قومى سوى عرب ولن يصيغ فيهم ذلك النسب
 والقصيدتان في ديوان العبد لإبراهيم إليزجى ص ٥٦ ، ٥٩ .

وكان في أخلاق الطويراني شدة وحدة في المزاج ، ولعله رحمه الله كان
 قليل البقاء على حال واحدة ، فكنت تراه اليوم في جريدة وتراه غداً في
 غيرها ، لا قلباً منه في مبدئه ، ولكن تعصباً منه في رأيه أو ترفعاً منه عن
 ليلتي لحاكم أو الخضوع لدى جاد ، وذلك هو السر في تعطيل بعض النصح
 التي أصدرها .

ولا يزال بين الصحافة المصرية - إن كان لها سجن - يذكر لصاحبها
 جريدة « النيل » ومجلات « الشمس » ، « الزراعة » و « المعارف » ، والأولى
 أنشئت في القاهرة في أواخر سنة ١٨٩١ أى بعد عودته إلى مصر من
 القسطنطينية بعام واحد ، أما الشمس والزراعة فقد أنشأهما سنة ١٨٩٤ ،
 والثانية أسبق من الأولى بيضعة أشهر في الظهور .

كان لصاحبنا علاقات طيبة مع أفاضل الرجال في زمانه ، كما كان له صلات
 ود مع أعظم الأدباء في عصره ، ولم يكن في قلبه تلك انصرمة والسلطة
 التي استأثر بها رجل كآحمد فارس السديقي صاحب مجلة الخواشب . إلا أن
 العلامة بين لرجلين الكبيرين كانت أمثلاً تكون صبة ، وأحكم ماتكون
 لرتباطاً ، فقد رث الطويراني أحمد فارس السديقي حين وفاته سنة ١٨٨٧ م

بقصيدة بائية من لحر السيّد، وأرخ في القطار الأخير منها وافته سنة ١٣٠٥ من التاريخ الهجرى . كما نراه في مجلة (الإبصار) التي كان يصدرها في القسطنطينية يومئذ في عبارات من السجع الذي كان طبع الكتابة العربية في ذلك الحين . إلا أنه في بعض مواضع من النسخة عدل إلى الكلام المرسل (غير المسجوع) كقوله : « حكيم السكوت » وورد الكلام مترادف لجانب عميق الفكر قرى الحجة كبراهمة . . إذا رأته رأيت علما متحسبا ، ومكادما أخلاق قد حلت فاستعانت إنسانا كاملا ،

ولما مات حسن حسنى الطوراني باشا رثاه الشعراء ، ولم يرثه أمير البين شكيب أرسلان مع أنه رثى فارس الشدياق قبله ورثاه الشاعر الرقيق ولي الدين بك يكن بقصيدة تتبع مبيعة عشر بيتا كان فيها

يا قبر حسنى طية عرصت لم استصفت فزحزح السقا
قد كنت قبل اليوم أقصده أهدى إليه الظم والنثرا
لا نظر حس وإن ثرى ، حسن ، بمد مدائح فرقة الصحرا
أبكيت ماذكر الردى أثرا ووعى الخلود لفاضل دكرا
أبكيت ما جرت البراعة في مبدائها واستطردت سطرأ
والقصيدة في ديوان ولي الدين يكن ص ٦٩ ، وفي البيت السابع منها
نقص وصحته :

قال العامة طوى الردى حس قلت ابدوه ففد طوى لدهر
وبعد هذا البيت بيت ثامن لم يرد في الديوان ، والتصويب عن السكوت
فيليب طراذى وهو :
وطوى الطبيعة بمدى وطوى ما بعدها حتى طوى البشرأ

وهو ان الطويراني ضمن الحجم مملوء بكثير من القصائد الطويل
والمقطعات ونبوشحت والأدوار والرجل ، وقد طبع بمطبعة إدارة
الوطن سنة ١٣٠٠ هـ ، ثم سمر الشاعر في الآسفة في الغم نفسه ، ووكل
أمر لإشراف على طبع الديوان إلى نائبه ، فلم يعثر تصحيح الجزء
الثاني ، فحصلت غرائب في لتحرير والتصحيح والسهر ، وفقدت أصول
الديوان حين وصل أصبح إلى صفحة ٢١٠ . وهنا علم الشاعر بما حصل
بهذه نسخة أخرى من الأصول لتتيمم الآيات . وبقي في الآسفة ثمان
سنوات والديوان لم يكن ضعه . فعد إلى الإسكندرية في ٢٠ ذي الحجة
سنة ١٣٠٨ ، ووصل إلى القاهرة في الثاب والعشرون من الشهر نفسه ، ولما
استراح من السفر أهدى تصحيح الديوان استنجاذا لإخراجه (ولكنه وجد
أن تصحيح الأخطاء يسألهم صرف الأوقات المديدة وتحمل اشتاق العبيدة
وأن الاهتمام بتصحيح ما وقع فيه من الخطأ والحصل . شى زائد على الأمل
والعمل) ، فغتمه بعسرة إلى القراء ، وأنجزه وأخرجه في ٢٠ محرم
سنة ١٣٠٩ هـ .

ويظهر من شعر الديوان والإمعان في مطالعته أن الشعر متأثر بالمدى
التقليدى إلى حد كبير ، فهو محدود وشدو شعر عصره ليس كانوا أصدا
بالية للشعر العربى لتقديم ، فأغراضهم أغراض السابقين ، وأبوابهم
ومناهم هي أبواب الأولين ومدى فهمهم مع اختلاف الأحوال وتبدل
المقتضيات .

ولم لا يكون شعراء عصر الطويراني كذلك . وإمامهم محمود سامى
البارودى بش كان مقلداً إلى حد بعيد حتى في مطالعته ومواقفه وتشبيهاته

بل في عباراته ؟ ويسكن الدرونى كان يمتد عندهم حيداً ، انطسع العربي
الأصيل في قرص الشعر ، فهو يرفع في المحاكاة ، حتى ليحيل إليك وأنت
مقرؤه أنك تقرأ شعراً قديماً لم تعد له لونه الأعاصير وهدوء المنكبات

ويظهر المذهب التقىدي في شعر الطويراني واضحاً ، حتى في طريقه
تدوينه للديوان ؛ فقد قسمه إلى أربعين مائة ، الأولى منها في الإلهيات
وقدمه لشرف موصوعه ، وهو الحمد والثناء على الله تعالى مهيمن هذا
لوجوده ، ولم يمدح هذا الباب أن يكون ، هظهاً ، لا شاعراً ؛ فلم يصل إلى
أعماق الوجود ؛ ولم تنجل عليه ميوض الحكمة وإشراقها ، ولم تزد إلهيات
على أن تكون حطسرات عبرة مهابي قلب من قرأه عصره ، وقد
حاولت أن أعرض أحسن ما في هذا الباب ، فلم أجد غير هذه الأبيات .

يا مالك الروح يشقيها ويسعددها وحافظ الجسم رضاء وإنقا
أوجدت من عدم روجي وكنت لها أوقات أد فيها الطين والماء
متعني في صفاء النفس مفرداً مطهر أ لم أحب رجساً وأساء
أما الباب الثاني في المذائع السوية ، وسميها «البويات» كما سميت قصائد
الكهيت «بامسميات» وهي قصائد ليس لها في الشعر من شرف إلا أنها
صعدت للرسوب عليه السلام فلا يجد فيها قوة حب الكهيت ولا مناه
الوصيري وحكمتها في ثبات المديح

والباب الثالث في الحماسة والفجر ، وقدم هذا الباب (لعله وفاء حقوق
المنس التي لا تعرف حق غيرها إلا بعد معرفته ناعوسها) فإن ننس إدا
جملت حقها جملت حقوق غيرها بالطلع فم تقم بها (وهذا تعديل لطيف
لشعر الفجر ، ولكن يشترط ألا يغالي فيه ، وإلا صير إسرافاً وكذباً .

ولقد أسرف الطويراني في هذا الباب إسرافاً كثيراً ووصفه ما ليس منه،
كالآيات التالية التي هي أشبه بشعر الحكماء منها شعر الخمسة :

الناس في الدهر أبناء وأحبار والكون كوثان أعيان وأنار
لا خير في العيش إن لم يسطح شرفاً ولا اقتحام لردى دون الملا عار
اعمل مع الصبر ما يرضى لك وكن مع الصاب في الدهر دوار
لا يرغم الدهر إلا من بطش له فاعتز بالنفس من حاتك أضرار
وقد يكون في هذا الكلام غر خفي ، فهو يأمر الناس بما كان هو به
نفسه من اصطحاب لشرف واقتحام لردى والصبر وكتياف المضايقات
والاعتزاز بالنفس حين يخون النصير

وأكثر ما يفتخر الطويراني في هذا الباب بآثاره الترك ، فهو يتعصب
لهم على العرب الذين حفظ لهم و آمن بدينهم ، وقد يصل به التعصب إلى
إنكار كل فضيلة للعرب وتجردهم من كل مكرمه . ولا شك أن الأحوال
السياسية في عصره ، والخلاف بين العرب والترك ، ومحاولة الأولين للحصول
من حكم الآخرين ، وقيام الشعراء من العرب بمهاجرة الترك ، لاشك أن ذلك
كله كان حافزاً للطويراني على الاحتذاء على العرب وتنقصهم . ووجد في
صحفه ومجلاته التي أنشأها أو شتركت في تحريرها مجالاً للكلام راسخاً ،
فأحفظ ذلك عليه كثيراً من الشعراء العرب كالشيخ إبراهيم اليازجي .

ولقد نقل الطويراني الخلاف بين العرب والترك إلى خلاف بين الأصل
السامي والأصل الأياقي . فهو يقول :

أرى الفخر للأتراك من عهد يافت ومن عهد «أفراسياب» ليس مرسلأ
فلا شهم في الدنيا «كجنكيز» قاهر ولا تار أعنى من وطماجل ، إذ طلى

ويقول من قصيدة أخرى .

إنا سر عثمان لا الصيم عندنا يعان ولا يوم على جارنا يقضى
وهو هنا يرد على ما دام به العرب من الظلم ونقص الجوار ، ولما
استغزه اليانجي بالشعر لم المومج في تصاد مطام الترك رد قصيدة
ميمية طوية شائته فيها لبقته . فرمى لعرب بما لا يلق أن ترمى به أمة
كريمة عزيزة من دولة كان يرتفع فوقها علم الخلافة الإسلامية .
حيث يقول .

ملكناكم حيناً سرانم جهلا تبهرو في دو الهوان معتما
ظنا الكذي الماري وأشيع جائع وأصبح محسوماً فق كان خادماً
جهلتم حقوق الترك وهي حلية ولم تحسبوه ، شينة الحر ، أنبا
وشوهتم الحسنى بم قد بد لكم ، وقلتم كذا وكذا وكنتم ونس ما . .
وقد طالت هذه القصيدة وجميع نظم من يد صاحبها ، ولكنه عاد في
النهاية فنظم الكلام بقوله :-

وعد أنزل الله المؤاخاة بيننا فلا تجعلوها أحوة نسمك الدما
وأت بكم حقاً كما أتمم ب كلاًنا أح في الدين يبعي التلازماً
ولا فضل إلا بالتق وهو بينف سواء وفضل الله خص وعمدا
وكل أبوه في الحقيقة آدم فمن شاء تذليل لأصل فأدما
وأما بي لله فالكل قوم وأكرم من لم يسه وأكرم
نصحت بني مصر وحدت كلهم وقلت المفضل الحق لكن تجرما
ولو سلك الطويراني هذا اسلك الرقيق من أول لأمر ما أوجت

نار امها جاف بين شعبين أحويب مسدين ، يرجي من تألفهما للإسلام
جبر كثير .

أما قصيدته السيفية التي رد بها على سيدي الشيخ ، ابراهيم البارحي ، فيها
من الفخر كثير ، وسكن فيها على العرب تحنياً صارحاً . ومنها هذه الآيات .

والترك نيران الظلي فاقم ورم إن كنت قانس
والترك قد تركوا أنا ك ومثله ما جرى أكس

* * *

لولا بنو عثمان ما نعت لشرق بواس
سهررا ونتمم والتفوا وحشاً وأسيتم أوس
برزوا لساعة الوغي وهماكم كانظي كاس
ولكن هذه الأيام قد ولت وانتهى ، ما من الملاحاة ، ونرجو أن يكون
المسود ، على اختلاف أجناسهم ، قوة بعمل حسابها ويحشى بأسها
ولعلمهم فاعلون ذلك إن شاء الله .

أما في الطوراة بنصه ، لا يجده ، فكثير في شعره ، وقد أعانه على
ذلك نفس أية وصمة قوية فقد تنفس في البلاد وطوف في الاطلاق ، ونفي الخير
والشر ، وشرب الخلو والمر ، ولكنه ظل عزيز لنفسه . اسمعه يقول :
على أني من لاه قوي ظالم وإن طابوني ناستل طالم
وأني لاستلق الكربة باسماً وأجل صفاها وأني لعالم
إلا أنه قد يدرق في الفخر ويمانيه على عادة شعراء عصره . فترى
الإسراف فيه واضحاً ، والكذب فيه ظاهر آكقوله
حلقت للسيف والفرطاس والقلم طاهر عدى وأهل البهر من حدى

والشطر الثاني سخيـف مرذول ؛ وما أشبهه في السخف بقول أبي
سناه الملاك

وأناك عبيدى يا رمان وأنتى على لرغم منى أن أرى لك سبيـاً
وسحاح من غير هظر شعراء ليوم إلى الفجر . هو أن واحداً منهم
قال مثل هذا القول لقال الناس : هذا ناظم كذاب !

أما باب المديح فيشمل جزءاً كبيراً من الديوان فقد منح السلطان
عبد العزيز والسلطان عبد الحميد والحديد إسماعيل باشا ، والحديد توفيق باشا ،
كما كانت له مدائح وصلات أدبية ومكانات ومساجلات مع سعديين بك
عاصم والأديب الشيخ أحمد أبو المرح لدمهورى والشاعر الأديب عبد الله فرج .
أما غرنه فيظهر فيه التصنع والتقليد للتقدماء حتى في الوقوف على
الأطالال والبكاء عليـه ؛ وذكر المراجع والعيس والأماكن العربية كتمرح
النوى . فيقول

تعرفت أطالال لمى بعد مجمل فأوقفت عيني بعد طوب الترحل
ويقول :

سقى الله صوب القطار منمرح للنوى وحسى به در الشيشة والطوى
ويقول .

أمس دار سلمى دارسات المعاهد بكيت طويلاً بَعْدَ بُعْدِ المعاهد
ويقول .

بانت سعد فرغ العيش منكود وودعت فبيد القلب منكود
وشتل بين الحماكة والطبع ، وبين الصوت والرجع !

° ° °

وشعر الطويرانى لم يسلم من الرسافات والتعلل والضرورات الشعرية التى

لخا إليها لجوءاً كثيراً . فهو يمد المقصور ويقتصر المسدود ويجزم المرفوع ،
ويمسك أواخر السكات فلا يمسحها . ويقطع همزة الوصل ، ويصل
همزة القطع ، ويأتى بصيوب السناد ويمنع المصروف من الصرف ؛ كقوله
في صفحة ٢٤٢ .

ولورق تسجع في النصور كأنما هاتيك غيد وتلكم الأوتار
فمنع من الصرف كلمة غيد وحققا التنوين .

وقوله في ص ٩

لأن التلازم بين ذات وحارص من الكون لا يخفى لمن ينبر
بإسكان الميم من كلمة «التلازم»

وقوله في ص ١٧

يا بني الهندى عليك سلام لا اتشدهاء له ولا إنتهاء
يقطع همزة الوصل من كلمة «إنتهاء»

وقوله ص ٨

يا به الخلق لإرحم عاجزاً من الألفاظ نحو الباب يد
يقطع همزة الوصل من الفعل لإرحم ،

وقوله

ولا والله لا فى العلم خير ولا فى الجهل شر ولا مخاوف
فمنع كلمة شر من التنوين وذلك قبيح ، ولو قال «ولا فى الجهل شر أو
مخاوف» سلم من الضرورة القبيحة .

والطويرافى نسبة إلى طويران وهى ؛ بلد وكان يكتب ان عمه على بك
عطا الله وهو فيها .

شوقي وحافظ

بين الكتب

لما ظهر المتنى من الدنيا وشغل الناس ، كما يقول ابن رشيق القيرواني ،
واحتجب الناس فيه بن متعصب له ومتعصب عليه ، فتعصب له أبو الفتح
عليان بن جني ، وتعصبه بن هبذ ، ووقف القاضي علي بن عبد العزيز
الخرجيني موقفاً قوالياً بين المادحين والمعادحين في كتابه «الوساطة بين
المتنبي وحصومه» .

وإذا شغل شوقي وحافظ الناس بالحدث عنهما حين وميتين . . . وإن
يقف مدى الكلام عنهما ، وإن يكون القول فيهما معاداً مكروراً مع قصر
العهد بهما ، وقرب الزمان عنهما .

ورداً أنت قلنت المكتبة التاريخية لرجل مثل «دبلون» وإسك وأحد
فيها مئات من الكتب تتناور هذا الرجل من جميع نواحيه . هي كل يوم
يطهر عنه بحث جديد . ويقول انقراء هل من مزيد ، وآخر هذه الأبحاث
ذلك الكتاب القيم الذي أخرجه المؤرخ الفرنسي لويس مادلين . في
أحريات سنة ١٩٤٨ : Louis Madelin ، بعنوان « الأمة الفرنسية تحت
حكم الأباطور » "La Nation Sous L'Empereur"

ليس ردى بالكثير على المتنبي أن تظهر فيه عشرات من الكتب ،
وليس كثيراً على شوقي الشاعر أن تظهر فيه بضعة من الكتب ، وليس

كثيراً عليه أن ظهر فيه عدد خاص من مجلة « السياسة الأسبوعية » سنة ١٩٢٧ . وهو العام الذي احتفل فيه بتكريمه ومبايعته أميراً للشعر العرب . وليس كثيراً أن ظهر به وفي زميله الشاعر محمد حافظ إبراهيم عدد خاص من مجلة « أبولو » سنة ١٩٣٢ . وليس كثيراً أن خصصت له مجلة « الكتاب » عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ بأجمعه ، إحياء لذكراهما ومغليد آثارهما

إن هذا الأدب الأدبي هو قرن للثب القوي ونتيجة له ، ونرجو أن يحور هذا الأدب المباشر إلى وعي عرب الأصول عميق الأسس والنس صيب من الشهرة في حياتهم ومزتهم كنصيبهم من العنى المقدور ، التراث الموهود . فهذا شوقي قد طفر من المكتبة العربية بأحد عشر كتاباً تناولت شعره ومسرحياته وحياته . على حين لم يظهر زمينه وصديقه حافظ إلا بكتاب واحد ظهر في عام ١٩٤٧ ، وتعرض له من ناحية واحدة هي الشعر السياسى .

ومنضع هنا أمام القارىء الكريم صائفة من الكتب أخرجهما الشاعران ، ولم تعرضها النقد الحديث بماهى جدية به وأهل به ولعل طول الزمان عليها رقد المهدى قد صرط الداس عرب - أو عن كثير منها - حتى ات الحصول على تلك الكتب أسراً أدا ومطبا صعبا . كما سنضع عما تليس في الباب نفسه صائفة من الكتب تحدثت عن الشاعرين أو أحدهما حديثاً مخصاً في بحث قائم مستقل ؛ أو في خلال محووث تتصل بالثقفا والشعر . نعرف من كتب شوقي المطبوعة : مسرحياته الست ، وشوقياته في أجزائها الأربعة ؛ وأر حورده في دول العرب وعطاء الإسلام ، ووصوله

لثرية في «أسواق الذهب» التي جرى فيها لمخبري في «أطواقه»
والأصمعي في «أطباقه». ونعرف أن مسرحياته من الشعر. إلا مسرحيه
«أميرة لاندلس» التي أخرجها في سنة ١٩٣٣ قبل وفاته بقليل. وأحسن
نص الجليل الناشء الجديد أنه قرأ هذه المسرحيات، أو شهد ما مثل منها
على المسرح لعرفي، «وسمع بعض أبياتها تنعق بها بلايل لم يستح أمثاله
لصطفه...» أقرأ على الأقل نقد مسرحية «فيس» حينها وصعبا لأستاذ
العقاد في كفه إيمان.

ولكن شوقي له فرق ذلك روايت ثلاث: أسدل الستار علي من زمن
معيد، ولم يعرف إلا لأقل من أسماءها وجن الأكترون موصوعتها، ولم
ينعرض هامؤرخ الأدب الحديث بحديث حتى أعنيها الأستاذان
«أدوار حسين» و«محمود حامد نسوكت» في كتابهم. «شوقي عني
المسرح» بيروت سنة ١٩٣٦، «والمسرحية في شعر شوقي» القاهرة
سنة ١٩٤٧. فقد كان بحثهما عن المسرحية لاهن الرواية. وكان بحث الثاني
عن المسرحية في شعر شوقي، فلم يكن من الملائم عنوان الكتاب أن
يتحدث عن رواية أثرية

ولا بأس هنا - رفاة لذكرى شوقي - أن نعرض تلك الروايات
لثلاث، حتى لا نهرتها بصيها من النقد الحديث.

وأولى هذه الروايات «عذراء طيد» وقد ظهرت في سنة ١٨٩٧، واستمدت
شوقي عناصرها من التاريخ المصري القديم وترجع جودها إلى زمن
رمسيس الثاني المعروف باسم سنوسرتيس ثم إلى إدمن أوب محاولة من
شوقي المصغر في معالجة الفن الروقي، وهي محاولة لم يقدركم نجاح الاستهلال.

في الأعمال ؛ ولم نعلم الشاعر مكانته من العصر واشتغاره بالشعر في ذلك الوقت ؛ أن يتحصر للنقد النقيض من الشيخ إبراهيم الياحي سموي الشهير . أما الرواية الثانية فهي « لاديس » و « آخر المراعنة » وقد نشرتها مجلة لموسوعات مستقلة سنة ١٨٩٩ - أي بعد لأولى بمائة واحد - واحتفظت بحقوق نفلها إلى « التشخيص » ؛ فكان شوقي كان بعدها تتمثيل حينذاك وبطل هذه الرواية « حماس المصري » وبطلتها الأميرة « لاديس اليونانية » بنت ملك بونقراط صاحب « ساموس » إحدى ممالك اليونان . ولم يكن للأميرة « لاديس » كعب من أبناء جندسها فازواجها ، حتى بن عمها الأمير « بيروس » الذي شغفته حباً ، حتى استحال عراسته بها وصحطها عليه إلى اقتحام منها . وقد شرط أبوها الملك أن يكون صهره ملكاً سواه نال الملك تكده أم توارثه عن أبيه وحده ؛ فتوارث الأمر من مصر وفارس وأحد ؛ فخطبة الأميرة التي سترث عرش ساموس . ووجرت بعد ذلك أحداث تخطف فيها الأميرة « نأمرها » عصية من الأشقياء بأيعاز من ابن عمها « بيروس » الذي لم ترض به الأميرة عاصداً عليها ، ولا قريباً لها

وهنا يظهر « حماس » بطلاً في البحر كما كان في مصر بطلاً في البر ؛ وهو في له هم لا ينتهي سكبارها . . تحيها خطوط مشقة ودولة موتية . فينقذ الأميرة من أسرها العبد ، بعد أهوال حسام ، ويهم أن يردّها إلى أبيها . ثم يعادها لحظاتها يتمتع فيها لوحاً من الخشب كان رفيقه في البحر إذا ركب ؛ وفي الغول إذا اضطرب . ويعود فلا يرى « لاديس » في مكانها حيث تركها . وإذا بها تقع في يد الأمير هرام الفارسي الذي كان أحد حطبا فيوهم أنه هو الذي أنقذها ؛ وكان بينه وبين « حماس » المصري

مضاهيه وملاحج ، فلا تصدق عيها ولا يطمئ قديها ، وصر الأمير الفارسي
بهرام أمام أبيها الملك وأمام نظائره أنه هو منقدها وخلصها من الأسر ،
وأنه أصبح له زوجا بحق للشرط الذي اشترطه أبوها . . . فتأتى الأميرة
ولا تزال الحوادث تتوالى حتى يظهر حماس ، من جديد . فيكشف
الستار عن خدمة الأمير الفارسي ، ويثبت بذلك أنه هو منقدها وأنه
أحق الناس بها . . ويعود حماس إلى وطنه مصر بعد أن سبقته إليها
أنباء شجاعته الحارقة وطولته النادرة ، وبعد العدة لا تقراخ الملك من يد
الملك « أبريس » المصري الذي كان (ساقط الشأن في الدحل ميت المذكر
في الخارج) ص ٦٨ . فانتصر حماس بحيله على الملك « برام » المصري وبعث
في طلب الأميرة اليونانية لتكون مسكنة على مصر وشريكة له في عرشه
الجديد . . .

والحق أن شوقي قصد من هذه الرواية أن يصور حالة مصر بعد عهد
بسمياتك الثاني في القرن السادس قبل الميلاد ، وما « أبريس » الملك المصري
في رواية شوقي إلا « أبريس » أو « Apris » الذي يقابل له بالمصرية
« حبرع »^(١) . وما حماس ، بطل رواية شوقي إلا الملك « أحس » الذي
سمه هيرودوت المؤرخ : « ماريس » (Amasis)^(٢) . وقد كان « ماريس »
موالياً لليونانيين الذين كانوا يتمتعون في مصر بامتيازات عظيمة . وكان
بعدهم « أصدقاء مصر » حتى كلفته تلك الصداقة — في خيال شاعرنا شوقي —
أن يصرب في عرض البحر المتو سط معامرا ليطفر بالأميرة لاديس اليونانية
لينقذها زوجة له

(١) انظر كتيب « تاريخ مصر » للأستاذ جايخس هدى برستد ص ٢٩٥

(٢) للمصدر السابق

ولكن شوقي الرواقى قساعى الملك «أبريس» المصرى فاتهمه بمصطوط
 لشان رموت النكر ، وهو لم يكن كذلك ، فقد كان بعد الأمل فى استرداد
 مستعمرات مصر^(١) وسكن المخطوط لم تروا به . وذنب «أبريس» عند شوقي
 أنه كان عدواً للروح المصرية الموالية للأجانب وخاصة اليونانيين ، وهو ذنب
 يشرف هذا الملك فى نظر المصرى الوطنى الصميم . وقيل «أمازيس» أو
 «حماس» عند شوقي أنه استعبد اليونانيين ليعتصب الملك من «أبريس» .
 على أن هذا الملك المصرى «أبريس» لم يكفه ظلم أنواعه المصريين من السلام
 والقوادحين أثروا عليه جيشه حتى جاء شوقي بعد أكثر من ألقى عام ليظلم
 هذا الملك ظليماً جديداً . . . ولكن المنصفين من المؤرخين قد أنصفوا لذلك
 الملك المصرى المظلوم ؛ وأولهم المؤرخ «برستيد» - Breasted - فى كتابه
 «تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى» إلا أن أنصافنا «لأبريس»
 لا يمنحنا أن نصف الملك «أحمس» على الرغم من ميوله اليونانية . . .
 فإنه لم يمل مصالح مصر التى ازدهرت فى عهده . حتى قال هيرودوت المؤرخ
 إن أنططو وثمئذ كان يحوى عشرين ألف مدينة .

وهذه النظرة العربية من شوقي فى رواية «لادياس» لم تغت أعمقاد وهو
 ينفذ مسرحية ، قبيح «لشاعر شوقي فى كتابه» رواية قبيح فى الميراث ،
 ويظهر أن شوقي تأثر فى حوادث لتاريخية لمصر القديمة بما رواه اليونان ؛
 «هم يدرك موضع اهوى والعرض من نفوس هؤلاء» كما يقول العماد .
 بنى أن يقول كلمة فى أسلوب رواية «لادياس» ، فقد كانت كلها تروا
 إلا بعض آيات يرسلها الشاعر هنا وهناك ، على أنه شعر دون ما وصل

له بصح الشاعر بكثير . وأين من شعر شوقي هذه الأبيات التي يشده
(بيروس) ابن عم لادياس ؟

يا ابنه العلم زريدا ككتبت البستون كينا
أنت للعين سواد أنت للقلب سويلا
كان لي في الدهر تاح صار ذاك التاح قيلا
ككتبت مولى صرت عبدا ككتبت عمروا صرت زيدا

وقد دخل على الرواية السجع من أوشا إلى آخرها ؛ وكان هذا من مذهب الكتابة
في ذلك العصر — أعني قبل مطلع القرن العشرين . اسمعه يقول في وصف
الأميرة لادياس بطلاة الرواية : (وكانت لادياس ، فتاة الحسن ، «البحر
الطالع في العين الميس ، لا من طينة البشر ولا من أديم الشمس والقمر
ولكن صورة آية في الصور ، فوق مبيع الخواطر ومناد الفكر ، وكانت
لايسة حلة بيضاء ، هي بها حرير تحت حرير وصياء في صيد . وعليها من
عطر الورق وسبع الزهر ، في الرأس وفوق البحر ، ومكان المنطقة من
الحضر . ما يتجمع منه ناقة راهرة ، لادياس فيها الزهره النادرة) .

على أن استجابة شوقي للسجع لم تكن ألا مطاوعة لإمائه وجرأا على
دوق عصره . فله ذهب أو ر السجع في العصر لآخر رأينا شوقي يخرج
نقرا مسرحية « أميرة الأندلس » ولا تكاد تقع فيها سجمه واحدة .

أما الرواية النائية لشوقي فهي « ورقة الآس » . وقد طمعت في مطبعة
الشعب وأصدرتها دار « مسهرات الشعب » للرحوم حسين صادق وليس
عليها تاريخ طبعا ، وأحب الظن أنها ظهرت بعد رواية « لادياس » وأنها
كانت من إنتاج القرن العشرين ، فقد قل فيها السجع عن سابقاتها . وتدور
حول قصة « الصغيرة بب الصيرون » ملك الحضر حينما دخلت تلك البقرة

من الأرض في ملك سابور القارسي ، فقد أحببت هذه الأميرة الملك سابور ، على أثر نظرة نظرتها إليه من مكان عال ، وهو مصتصب أرضها ومحاصر دارها . وكانت الصغيرة امرأة ككل النساء لا يدوم لها عهد ، ولا يبقى لها ود . فلما نال سابور منها حبه الهوى وتحكم فيه حتى صار له شعلا شاعلا ؛ فتزوجت منه وله الملك والسيطان . لا أن قلبها انقلب للغرم مرة ثانية . فأحببت أردشير أبا الملك سابور . ولكن عفته ونزاهة نفسه أثبتا له أن يقع على حب أحبه . . .

وقد تابع شوقي القصة التاريخية في تطوار الصغيرة ، تطير المرأة الخائفة المتقلبة التي تحوكت الدساتر إشبهاء لشهوتها وإرصاد لعاطفتها ١٤ . وسكبه أصبر بجانبها الفتاة ، هندا - وهي إحدى وصيفاتها - في مصر الطاهر والعفاف . فقد وفقت هذه لابن قومها « ابن بكر » حتى على المحبة حينئذ ، الدهر بالآرزاء دقاغا عن أرضه وزيادته عن حماه ، وآثرته على أردشير أخى الملك سابور الذي حن بها غراما وفنن بها هياما . ولعل شوقي قد خلق هذه الشخصية الطيور - شخصية هند - ليظهر فرق ما بين المرأتين وسعد ما بين الاثنين .

هذه هي . وإيات شوقي الثرية التي استهل بها حياته القصصية ، والتي لم يتعرض لها النقد الحديث بشيء ، ولعل حديثنا اليوم عنها في هذا الإيجاز يلقى بعضا من الضوء عليها . وهناك رواية « أميرة الأندلس » وهي مسرحية ثرية بما أخرجه الشاعر قبل وفاته بقليل ؛ فكان بينها وبين رواية « عذراء الهند » خمسة وثلاثين عامًا ، وهي حقبة من الزمان تم فيها أصبح الشاعر المسرحي ؛ وهذه رواية هي الوحيدة التي أوحى بها إلى الشاعر بقية إلى الأندلس أوحى الفردوس الإسلامي المفقود .

وإذ كانت مصر قد أوجت إلى شوقي بأربع روايات هي «عنداء
الذهب» «ولادباس» «ومصرع كيو» «و» «فبب» فإن الأندلس
أوجت إليه بمسرحية «أميرة الأندلس» كما أسلفنا .

وليسك هذه الكتب هي كل ما شوقي من نشر ؛ فله كتاب «أسواق
الذهب» الذي طبع على عينه في سنة ١٩٢٣ ، وهي فصول عن النثر في
أغراض من الكلام كالحرية ولوطن والأمة والمثل والشباب والموت
والحياة ؛ وفي آخرها خواص هي أشبه بأسكت المأثورة والآفاق
الموجزة التي لا تعدو القولة منها سطر أو بعض سطر ، وقد حاول شوقي
أن يجمع فيها تجارب حياته وعظات أمانه ؛ وفيها يقول : «تكشف ذلك
أو يمتزج» حكم من الأيام تنقيتها ، ومن التجارب استميتها ،

ولا نستطيع أن نرد هذه الخواطر الشسوقية إلى زمن معين ، فقد
نبعث من قلب شوقي على فترات من الحياة بين الكدر والصفو ، بين
العام والصحو .

وقد بلغ شوقي القمة في فصوله عن الوص والجندى المجهول وفناء
السويس والموت والأهرام ، لأنه جمع فيها بين عمق الخيال وصدق الواقع .
وما أصدقده وهو يقول عن الأخيرة : «ما أنت يا أهرام ؟ أشواحق أهرام ،
أم شواهد إهرام أو صاح معالم ، أم أشباح مظلم ، وجلال أبايقو آثار ،
أم دلائل أمانية واستلار»

وبو خلا الشعر عند لعرب من ميزت وسرح على الأوزان فكانت
«أسواق الذهب» شعرا من أنسقى العالى ، ففيها الخيال والصورة التناطق
وفيها ذلك الأثر الذي يتركه في النفس كل شعر جميل .

وما يمتنع أن نسميها « شعر » مثلاً ، وهي تكاد — في سجعاتها وفقرها القصور والطوال — تكون شيئاً من الأوزان ، وموسيقى في الأذان . حتى استقامت بعض فقراتها شعر « موزوناً » ، مثل قوله في الجندى المجهول :

« ذلك الحفن في ارم ، صار ناراً عى علم » . فهذا بيت من بحر وء الخفيف . ومثل قوله : « جهاد طويل وصبر جميل » . فهذا شطر من بحر المتقارب . ومثل قوله في فتاة اسويس : « ماذا على هذه الرمال » فهو شطر من مخلص السيط . ومثل قوله « فإلك من دار ، لعبت على عرصات الأقدار » . فالعمرة الثانية شطر من البحر الكامل . ومثل قوله في الوحش : « ومراد الرق ومطبه ، وطريق الحمد ومركبه » فهو بيت من بحر المتدارك .

ويعاب السجع على فصول « أسواق الذهب » كما علب على رواياته الثلاث الأولى فكان شوقي رحمه الله بدأ حياته الأدبية ساجعاً وحنماً ساجعاً . ولم يتخلص من السجع إلا حين كان يدوى خاطراته على شكل حكم ، على أنه في ذلك الحين لم يتخلص من السجع حننه فقد أثّر له قوله : « المتبحر لا يميز . وما تقتضيك الشجاعة ، أن تجهن ساعة ولد البخين من حوم ، وولد الميزحروم . من استقام استدام » . وهي سجعات تذكرنا بحكم العرب في الجاهلية من أمثال : « من صبر ظفر ، من جاد ساد ، من حم سلم » .

وما حصل من السجع من حكمه وخاطراته قوله : « في العمر تستوى الأعماق ، آس ثم اصبح » العاقل من ذكر الموت ولم يمس الحياة » .

ولم يسلم كثير من فصول شوقي النثرية وأمثاله من المحسنات البدئية والصناعة اللغوية ، وخاصة الجناس الناقص الذي أغرم به شوقي كثير : كقوله في الحقيقة الواحدة ، « ما للأعشى والمرأة ، وللمتعمد والمرقة » . وقوله

« ولا تعلم من المواقف وإن كن عواصف » ، وقوله : « ما هذا وصع
للنبوة لمهد ، وأبدأ بها العهد » .

كما كان يعمل الطبق « من المعاني المصادرة كقوله : « الوطن شركة بين
الأول والآخر » ، وبين الحاضر والغابر » وقوله « إلى لعب الرصيفة » .
والسقوط الرفيعة ، وقوله في الحياة : « أحق أمها هي الحركة حتى يقطعها
السكون » .

° ° °

هذه كتب لشوقي أثرها عرسها في كفة الميزان لأنها تملأ نثر الأديب شعراً .
وقد تركنا آثاره الشعرية لمن كان من نصيبهم أن يتحدثوا عن شوقي
الشاعر . ولا بأس من قيس أن نضرب من الحديث عن شوقي النثر أن
نعرض للكاتب التي تناولت شوقي دراسة وقفاً .

ولم يكن ميراث شوقي وقدره لأدب ما يستكثر عنه أحد عشر كتاباً
ظهرت فيه ؛ وقد كان لشوقي أصدقاء وخصوم ؛ على أن هذه الخصومة
كانت كسماً للأدب العربي على كل حال . وقد خاضم العقاد والمزني الشاعر
شوقي في كتابهما « الديوان » منذ أكثر من ربع قرن ؛ وقد أعجبت صراحة
العقاد في نقده الأديب اللبناني الأستاذ ميخائيل نعيمة . فكتب في ذلك
فصلاً نشره في كتابه « العرب بال » الذي ضيع أولاً سنة ١٩٢٣ وكتب مقدمته
العقاد ؛ وطبع أخيراً سنة ١٩٤٦ في دار المعارف .

ولم يستطع شوقي — على كثرة المعجيين به — أن يرضى أصحاب
المذهب الحديث للشعر العربي ، وعلى رأسه العقاد والمزني رطله حسين
وميخائيل نعيمة . وقد أعلن عنه حسين مستخفاً في كتابه « حافظ وشوقي »
الذي طبع في سنة ١٩٢٣ — أي بعد وفاة الشاعرين . ولم يكن الدكتور

من حين ساحت كل السحت وسكبته مرج السحت بالرصي . اقرأ نغده
للسوقبة الجديدة .

قبي يا أخت بوشم حبيبا أحايث القرون العاريت
تجده منصفاً للشاعر ومنصفاً من حين يحس وحين يحائب الإحسان .
واقراً نغده لميمية حائط إبراهيم التي يندح بها المعجور له الملك فؤاد الأول
سبحان يارنه لمدرسة فؤاد الأول بقصر الزعفران، تجده منصفاً من شاعر
النيل الذي احتضنه من المودة والحب بما لم يحتض به أمير الشعراء ، فقد
أدلت في نغده أن الفصيدة ثقيلة الروح قلقة القوافي . ولم يمنعه حبه
لحافظ أن يقول كلمة الحق فيه

ولم تكن حياة شوقي الخاصة سرا من الأسرار بعد اسكتاب أو الكتيب
ابدى ألفه كاتمس سره الأديب أحمد عبد الوهاب أبو العر مصوان : « اثني
عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء » وذكر المرحوم الأمير شكيب أرسلان
أخرج كتاباً بعنوان « شوقي أو صدقة أربعين سنة » بعد ترجمة أدبية
رائعة من أمير البيان لأمير الشعر في العصر الحديث .

وإذا كان اسكتاب الأول ترجمة لحياة شوقي الخاصة فإن اثني ترجمة
للحياة العامة التي عاشها شوقي وشارك في عمارها المصطرب

أما كتاب « شوقي » لأنظون باش الجميل فقد كشف فيه مؤلفه عن
شاعرية شوقي وبيم أنها كشفت أسفله المثل وزينه أدب المقال .

وعد طهرت مرتبة شوقي لابن الدكتور هيكل بانما تحديق عميق مناتق
للدكتور محمد صدى بك نشر في كتابه « أدب وتاريخ » مع تعليق رقيق
للأمير شكيب أرسلان

في مما كتب عن شوقي كتاب « العربية وشاعرها الأكرم أحمد شوقي »
 للأستاذ إسعاف الشاشي ؛ و « الطن الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد
 أحمد شوقي » له أيضاً ، و « أمير الشعراء شوقي بين العطفة والتأرجح »
 للأستاذ محمد خورشيد ، وهو يتضمن خيراً ما قيل في شوقي شعراً ونثراً .
 أما ما كتب عن شوقي المؤلف المسرحي فثلاثة كتب « روية فيبري
 الميران » للأستاذ عباس محمود العقاد ، وهو عن عطفه ومحبه النقد سليم الدوق
 و « شوقي على المسرح » و « لمسة حية في شعر شوقي » « الأسنادين إدوار
 حنين ومحمود حامد شوكب » و « الكتمان من أكثر الدراسات النقدية عمقاً
 وأورها توفيقاً

ولقد شبه الأستاذ حسين شوقي بحس الشاعر أن يخرج في ختام خمس عشرة
 سنة كتاباً عن والده بعنوان « أن شوقي » وهو عنوان يذكرنا بقول ميار
 الديلي في إحدى غزلياته « أين في الناس أب مثل أبي » . وإذا كان الوفاء
 طعماً في شوقي كما يقول ولده : فإن وفاء من الابن أن لا يفوته في هذه المناسبة
 أن يصرده والده بريشة الولد . وأن يصحبه في حجره وهو يجبل على جرائبه
 ويصحبه في الغربة القاسية في الأندلس ، وإن كان أطال في وصفها طولاً
 كما يخرج الكتاب عن موضوعه .

والحق أن هذا الكتاب صورته سلبية سمحة جلاءها حسين شوقي لو لده
 أحمد شوقي ، وأغلب الطن أنها صورة صادقة أيضاً . وهل أصدق من أن
 يقول الابن عن أبيه ص ١٠ : « عن أن أم عيوب أبي أنيته الشديدة » ثم
 يمضي فيضرب على ذلك الأمثال .

هذه كتب شوقي وما كتب عنها في كفة الميرن . أما حافظ فقد كان

صغير الخط في كتب عنه ، فلم تظهر إلا دراسة أحيرة لشعره السياسي
للأستاذ روفائيل مسيحه . وقد كان لحافظ روح أخرى في الاجتماع
والشكوى والمدح والرشد والفكاهة ، وهي أبواب لا تزال تنتظر من يعالج
كلا منها مستقلاً في كتاب ، وهذه الدراسة لحافظ الشاعر السياسي جيدة في
بأها ؛ فهي توضح كما يقول مقدمها الأستاذ أحمد الشايب لمنهج علمي سليم لولا
أن لاحظنا فيها كثرة كثيرة من الخطأ المطبعي ، وخاصة في نقل النصوص
من شعر حافظ . كأن الأقدار التي جمعت « حافظ إبراهيم » شاعر الرؤس
في فترة من حياته حرمة العنينة بشعره حين يستشهد به الناس . . . وكان
المؤلف حين أراد أن يضبط الشعر بالشكل انفاق إلى إفده من حيث
يربع صلاحه ، كما ورد في صفحة ٣٥

كاشف الكهرباء ليتك تفي باحتراح برخص منا الطباعا
ولا أدري لماذا ضبطها المؤلف يروض وصحتها يروض ، حتى يستقيم
الشعر . وقد أجاز المؤلف أن يقدم في كلام حافظ ويؤخر فاضطرب وزنه
كأبيات الآتي من ٩

كم بعث على دولة وجارت ثم ، انت وتلك عقبى النجدي
وصحة البيت : كم بعث دولة على وجارب

وأما هذا وذلك كثير في صفحات ٢٦ ، ٣٢ ، ٥٣ ، ٩٥ ، ١٠٩ وغيرها
هذا هو الكتاب المفرد الذي كتب عن حافظ . أما كتب حافظ نفسه
— غير ديوانه الذي طبع ثلاث مرات — فهي « الموجز في علم الاقتصاد »
مشتركا في ترجمته مع الشاعر خليل بث مطران ؛ و « النساء » لفيلسوف
هيجو ، و « كتيب في التربية الأولية » مترجما عن الفرنسية لتلاميذ المدارس
و « لبالي سعيد » و « الموجز » و « التربية الأولية » هما كتبها الرخاء

والنتاج التوسعة : أحرجهما حافظ بعد منوات العصرة التي قصاه ساعياً
حتى كاد يتحصن لهم . . . وهما من السكتب المدرسية التي رثى ترجمتها إلى
العربية موسى من وزير المعارف أحمد حشمت باشا

وقد يقال : ما لحافظ إبراهيم وعلم الاقتصاد ، وما لحفيل مطران وعلم
التدبير والأعداد ، وهما شاعران أديبان انعقدت لهما شهرة في ذلك الزمان ؟
فأولهما شاعر السل وثانيهما شاعر الفطرين ، ومن عجائب المقدور أن
يكتب في الاقتصاد شاعران لا تعرف أيديهما إمساك النقود ولا ضبط
المعدود . . . فحافظ كان محتاجاً بالماء حين أبسر ، لأنه دقيق البؤس حين
أعسر ، وقد يضافه العاني فيمطيه كل ما بي يده ، حتى لو ملك الدنيا كلها بقرها
في يوم واحد ، وكذلك حفيل مطران يحمل هم غيره قبل أن يتحصن هموم
نفسه ، ويستدين لدفع غرم مدين ، حتى قال العفاد في مهرجان تكريمه الأخير :

وجمعت حوى الاقتصاد كما تنزل في كتاب

قم يعلم عبسه ويد تجود بلا حساب

في العرف والعرفاء سا تلك المؤمل مستجاب

بلوح في أن حشمت باشا كان بصيراً بالرجاء وازناً لأقدارهم . فنتب
حفيل وحافظاً هذه المهمة لما يعلم من تمكن الأول من الفرنسية ومحفوظ
الثاني من العربية ، فاجتمع بالاثنيين ما قد لا يجتمع لو واحد . وبدأ يعطلان ،
ولكن صعوبة المركب كادت تقدرهما على التخلص ، وحدثتهما الشمس
بالسكوص . وسكنهما مضيق في الشوط إلى غابته ، وفي الطريق إلى نهايته ،
حتى حال الغناء إلى لذة ، وانقلب الإحجام إلى إقدام .

وقد كان علم الاقتصاد في ذلك الوقت شيئاً حديثاً على اللغة العربية ،
وفيه مصطلحات لا بد من اللفظ العربي الصحيح السليغ . ولذا غاية تحتاج

إن أديب قبل أن يتناح إلى اقتصادي ، فأجزأ الشاعران في المهمة وتها
بها ، وسلكا في ترجمة المصطلحات مسلكين : فأقرا اصطلاح غيرهما . أو
وصفا مصطلحات جديدة عن طريق الاشتقاق اللغوي تشبها مع طبيعة
العربية وحفظ أركانها ، وإلى هذا يشير في قوله على لسان اللغة العربية .
وسمت كتاب الله لفظ ، وعاية وما صفت عن آي به وعظمت
فكلمة أضيق اليوم عن وصف آلة ونسبيق أسماء المخترعات
وقد سرت بعض مصطلحاتها وأخذت طريقها في الاستعمال ، ووقف
بعضها وحل غير محله ، كقول أحف دورانا على الألس . ولما وقف لها
من المصطلحات كلمة ، الفراع ، ترجمة كلمته « Chomage » ، والفراع عربية
صحيحة جاءت في قول الراجر :

إن الشباب والفراع والجدة مفسدة للدرء أي مفسدة

وسكن الاستعمال جرى على كلمة البطالة أو التعمل

ولما وقف استعمال كلمة « السلس » أو نائع الأشبات ، ترجمة للتعبير
الفرنسي « Marchand de détail » وقد حن منها « تاجر التجزئة »
ولما وقف استعمال كلمة « المقطورة » ، ترجمة لكلمة « Wagon » وهو
ماتجره القطورة ، ومن الخير أن تمت هذه المقطورة ، لمحاتها النوق . .
ولما وقف استعمال كلمة « المروى » أي تاجر الساعات وصانعيها ترجمة
لكلمته « Horloger » الفرنسية وقد حل محلها كلمة « الساعات » ، ولا بأس
بها ، بلغة إلى الجمع في جائزة وهناك « ابن الساعات » ، الشاعر الدمشقي
في القرن السادس .

ولما غير ذلك كثير مما وقف استعماله من المصطلحات الاقتصادية

لأعراجهما في الترجمة ووقعهما على الغريب المعجمي من الألفاظ .
 كاستعمال «أوردين» لـ "Patron" والمصنف لـ Bourse أى بورصة
 والأجارات لـ "Tickets" بدلا من تذاكر السفر التى شاعت وقت
 استعماله . وكاستعمال «الأصرة الآلية» ترجمة لتعبير "Esprit de corps"
 أى الروح الحزنى وهذا أحف كثيرا من تلك الأصرة الآلية التى أمشها
 الله إلى غير رحمة . . .

ويظهر أن هذا الإعراب في الترجمة كان بروحي من حافظ إبراهيم لدى
 عرفت له سابقة الإعراب حينما ترجم «الوئاس» سنة ١٩٠٣ . أى قبل
 ترجمة «أموجر» مشتركا مع خليل مطران بمشر سنين . فإن هذه الروح
 المغرنة ظهرت في «الوئاس» في أمش هذه الأوصاف لحسان : «كان
 عظيم السائر . مسجرا ، أدك أهنع . وهو وإن لم يكن أصيلا كان عسلا» ،
 ويجيب أن يكون حافظ الرصين المحرب المتفكر أحياء مبتذل اللفظ في
 بعض شعره كقوله :

فيا مصر اسجدي لله شكراً ونهى وانعدى طاراً وقوى
 فقد تم البناء وعى قريب زوف لك للبشر من ليم
 ولكنه لم سلم من الدكتور طه حسين ، وقوله في هذا الكلام : «أليس
 من كلام الأسواق؟ أليس غرساً أن يكون هذا الكلام من آثار حافظ لذي
 استعمال «مسلاح الشرة» وما يشبه مسلاح الشرة من عريب الألفاظ ،
 ولكن حافظ في ترجمته لكتاب التربية الأولية بجره كان سهلا سمحا
 استجابة لحاجات تلاميذ المدارس الذين ترجم لكتاب لهم بإشدة أخرى
 من أحمد حشمت باشا . وحير وصعب هذا الكتاب ما قاله حافظ نفسه في

مقدمته . ولم أنزل بها إلى منزلة الساقط المردول ، ولم أرق إلى دروة البلاغة ولكن جعلت لي سبيلا قصداً بين العائنين .

بقي من كتب حافظ إبراهيم وليلى سطيج ، وهو أشبه بمقامة نقدية اجتماعية يظهر فيها سطيج الكاهن مع مؤلف الكتاب وصاحب له ، وتدور بينهم أحاديث عبر فيها حافظ عن آرائه الخاصة في المرأة بين السهوى والحجاب والأحجاب في مصر ، وحجب المصريين للألقاب وفقرهم من اللباس . ويتقدمها بعض العادات القبيحة كالزنا ، ويهاجم الأوصياء ونظام الأوقاف . ويحرم على الصحافة الرخصة التي تشيع الهرل والمجون فتزوج سعتها وتنق بضاعتها . وما أشبه الليلة بالبارحة !

ولا يسي حافظ في ليلى سطيج ، أن يهاجم الإنجليز وسياستهم التي « هي أشبه شيء بالسكهر بام ، يدرك أمين فعلها ولا يدرك العقل كنهها ، ولا يسي أن يستقل من الإنجليز على المصريين بأهم صنعوا لهم كيت وكيت ، وأهم كانوا في دلة وأعروهم ، وكانوا في فقر فأغنوهم ولكن ما قيمة الغنى في الأرض إذا أجدهت أرواح أهلها ؟ وحافظ هنا في هذه أسيا من مصر يجي يذكرون بشعره الميسر لصريح الذي يخاطب به اللورد كرومر :

تم علينا اليوم أن أحصت الثرى وأن أصبح المصري حراً منعم
أعد عهد إسماعيل جلدا وسخرة فإن رأيت لاس أنسكي وآلك
علمتم على عر اسماد وذاك فأغلبوا طينا وأرحصتمو دم
إذا أخصت أرض وأجذب أمها فلا أظلم نبتا ولا جادها السما

وإن يجنب أهل مصر إن شاء الله ما دام فيهم وفاء لمضيفهم ، وثقة في حاضرهم ، وتطلع إلى مستقبلهم .

الشيخ محمد شاكر

١٨٦٦ - ١٩٢٩

لا أعرف عالما من علماء المسلمين في عصرنا الحديث اشتغل بالسياسة وبرح فيها كما كان الشيخ محمد شاكر . وكأنه رحمه الله - حتى ليكون سياسيا قبل أن يحق ليكون عالما . ولا يطعن ذلك في علمه ، ولا فيما بذه للدين من جهد . فإنه كان سياسيا ناصحا وعالما ناصحا . وما كان في سياسة الدنيا مضميجا نصيبه ، ولا كان عرض السياسة الدنيوية عن الدين شاعله .

وفرق ما بين الأستاذ الإمام محمد عبده وصديقه وتلميذه الشيخ محمد شاكر ، أن الأول بدأ سياسيا ، فاشترك في الثورة العربية ، وكان كما قل الورد كرومر ، روحا مديرة للحركة ، وكان موقفه محايدا كما قال عبد الرحمن الزافحي بك . موقف الوطني الذي يشور سكرامة البلاد واستقلالها . ثم انتهى به الأمر بعد النبي أن ولي القضاء ولأفقه . فاستحال هذا الشيخ الذي إلى حكم مصدح هادى . وأعرض عن ذكر السياسة جازا ، ونصرف إلى الإصلاح الاجتماعي والديني ، الذي طهر في تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية وإلى محاولاته في إصلاح الأزهر . أما التلميذ الصديق شيخ محمد شاكر فقد بدأ حياته أميناً للفتوى ، فائدا لحكمة مديرية القنوية ، فقا صلبا لقضاة السودان . فتميز بها الاسكندرية ، فوكيلا للجامع الأزهر ، ثم انصرف بعد ذلك إلى السياسة مسد السعة التي عين فيها عضوا بالجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ . فتأبى على قيادها صاقت وأعانتة بعد ذلك ثورة سنة ١٩١٩ فحب فيها ووصح ، واشترك فيها بقلم كأن أبا تمام الشعر كان يعنيه بقوله :

لك القلم ، الأعلى الذي تشبته تصاب من الأمر الكلى والمفاسد وطريق الرجلين - محمد عمده ومحمد شاكر - في الحيا و حدة ؛ إلا أن أحدهما بدأ الطريق من ألفه ، وشئهما بدأه من يائه . . هاتقيا في وسط الطريق ، ولكنهما لم يلتقيا على غاية ، وما لاحدهما في ذلك مانع ولا . . ولكنه مع المناسبات التي تلي إرادته وتحكم بمشيتها فقد كان الشيخ محمد عمده في الثورة العراقية بلغ الثانية والثلاثين ، على حين كان للشيخ محمد شاكر في ذلك العهد شابا في السادسة عشرة . وهي سن لاتسمح لصاحبها باشتراك في ثورة أو خوض في سياسة

فكان الشيخ محمد شاكر قد عرض في ثورة سنة ١٩١٩ ما فاته في الثورة العراقية سنة ١٨٨٢ ، وهو دوت لم يكن للشيخ فيه خيار ، وسكنه حكم السنين والأعمار .

وحياة الشيخ شاكر موزعه على مرحل ، كما توزع حياة القمر في منازل ؛ إلا أن القمر إذا رأيت هلا لا ناسيا أيقنت أن سيصير بدرا كاملا . أم الشيخ شاكر فقد كانت أول مراتبه كالا ، وهي دورة من الزمن الدوار ، والفلك المدر ، استوى طرفاه ، في القدر ، ولم يستويا في حساب الزمان .

فالشيخ محمد شاكر في القضاء الشرعي بمصر ، هو الشيخ محمد شاكر في قضاء السودان . وفي مشيخة الإسكندرية وفي وكالة الأزهر ، وهو في ذلك جميع الشيخ محمد شاكر في الجمعية التشريعية وفي المناشئ تختلف عليه أوجه الحياة وتتقلب عليه المناصب ، ولا تختلف له قضية لقي الدنيا أول لقي لله عليها ، حتى كان أوله كآخره ، وباطنه كظاهره .

لقد كان في الشيخ صلابة في الحق كأيما كان يضرب بعمود الله الذي

لا ينكر، وينطق باسم الله الذي لا يتخذل . ولقد أخرجته تلك الصلاة من مأزق كان الواقع فيها منتظراً وحادثاً مقدراً . .

وتظهر صلاحية الشيخ في عهد اشتغاله قاضياً لقضاة السودان ، وقد كان أول من تولى ذلك المنصب في ١١ مارس سنة ١٩٠٠ عقب انتهاء الثورة المهدية ، وهي وظيفة كانت لبلد العهد عملاً على حامليها ، وهما لشاغليها نظراً لسرور لدقيق الذي استحدثته السياسة بين القطر الشفيق وجاره الشفيق .

وكان اختيار مصري لهذا المنصب عبثاً أصيب إلى من يديم الاختيار ، ووجدت حكومة السودان في الشيخ محمد عبده حير من يهص بعبد الاختيار لما فيه من بعد النص وصدق الفرسة وتقدير الرجال ^(١) . وبتطلمت نظره لاستاذ الإمام الشيوخ واحداً واحداً ، فرأى أن يمكن للشيخ شكر في بعض البلدان حتى ينفذ آراءه في الإصلاح التي صممتها تقريره ^(٢) الذي وضعه إلى الأستاذ الإمام ، ولذلك زكاه لمنصب قاضي القضاة في السودان ^(٣) .

وهذه الصلاية قد جعلت للشيخ شخصية منفردة متميزة . كان يحسب لها صاحبها ويحس لها بأسها وهي صلاية تستند إلى الحق المدعم والدليل المؤيد ، لا إلى الحاجة في الجبال والرغبة في النقاش ، ومع ذلك أن الشيخ كان فيهما وظيفته في السودان كل المهيم . فأراد أن يكون فيها كما يريد الحق أن يكون ، لا كما يريد أهواء السياسة أن تكون . فهو في السودان رئيس ديني يستمد سلطنته الدينية من الرئيس الأعلى للبلاد . ولهذا اضطرت حينها

(١) انظر تاريخ الأستاذ الإمام السيد رشيد رضا ج ١ ص ٨٧٦ .

(٢) حد التقرير بصور صوتياً ومفوض نادر الكتب المصرية .

(٣) مجلة للأصناف ص ٨٩٣ سنة ١٩٣٩ .

فسلم منصبه في السودان إلى عادة تعيين كل قاضي شرعي تسلم مركز وظيفته قبل حضوره من مصر إلى السودان. وبذلك لكل منهم أدأ مباشرة الأحكام الشرعية ، تتصل بإدارة ما أصدره من الأحكام قبل ذلك ^(١) .

والفهم في نعمة المقول ونبطن الشرع أن شيخ القضاة في السودان هو الذي يأذن للدولتين نشر عين بمباشرة أعمالهم الشرعية في أحكام المعيشة فيه ، وهي الذي يولي قضايتهم من أحد كالتى كانوا فيها أولاً ، وهي سلطة يستمدونها في الشرع شر القضاة من أولى الشرعي للبلاد . وسكن هذه الأمة لا ترحى له انسياسة ، ومن هنا حدث بين الشيخ شاكر وبين السكرتير القضائي للسودان ما كان كقبلا بتعكير الجو ، لو لم يكن الشيخ قاضياً في مناقشته ، لبقاً في معارضة قوية في منطقته وحيثه ، ومن هنا أكره الانجليز في السودان على صلاته ، لأن الحق واستقلال الشخصية كان يكبره دائماً في نظرهم . وهم يعيرون في الرجال تلك الخلة من الحلال .

في سنة ١٩٠٢ قام القاضي الشرعي لجنحة «الراطاب» بالأجارة ، من غير أن يعلم الشيخ محمد شاكر بها أو يصرح له بممارسة مركز وظيفته . فلما علم الشيخ شاكر بها كتب إلى السكرتير القضائي لحكومة السودان — وهو إنجليزى — ينده بخطأ ذلك التصرف . ثم أرسل فية إلى قاضي «الدامر» بأمر له في مباشرة الأحكام الشرعية في محكمة «الراطاب» مدة غياب قاضيتها ولم يسكت السكرتير القضائي على كتاب الشيخ ، ووجدت فرصة سانحة لحفدة الأغراض السياسية من جديد ، فكتب إلى الشيخ محمد شاكر يأمته إلى أنه لا حظ ألع محكمة العموم ، تزداد ميلاً إلى التدخل «إدارياً» في شئون المحاكم

(١) من مذكرات خفية للشيخ رحمه الله .

التابعة لها [. وبحكمة العدم هذه هي التي برأسها الشيخ شاكِر بوصفه قاضي
قصة السردان .

واسكن الشيخ الصلب العبد في الحق لم تسكت عني ملاحظة السكرتير
القضائي ، فالتفتي النعم الذي امتطى انملة الحسن لطيف الصلاب ، ورددأ
طويلاً ختمه بيده الأسطر : « وإلى هذا الحد أرجو أن تعيدوا النظر في هذه
الملاحظات وتقروا موضوعي حق قدره غير بقدها على ما هي عليه
ينهب بكثير من الثقة التي هي عماد لا شئرك في المصاحح والتي إن فقد
الموظف شيئاً منها خير له أن يفقد مركزه ليحفظ بهب ، وأنا أول رجس
يسحو بمركزه في سبيل الثقة بنفسه » (١) .

وما كان الشيخ مازحاً حين عرض السجاء بنفسه في سبيل كرامته
الشخصية وثقته النفسية ، وما كان آسفاً على المصب لوصع ، أو على الدنيا
كلها لورسك ما دام في ذلك أخذ بالثقة لدينه ولربه ، وأخذ باكرامة
لنفسه ولقليه . وقد كان في استطاعته أن يدع الأمور تسير ، وأن يترك
« المخالفات » تمر وأن يريح نفسه ورأسه من هذا الأخذ والرد ، والجزر
والاند ، وسكته كان غير آمن على نفسه من محاطة حكومات هذا الزمان (٢) .
ومن هنا كانت عليه المناصب وصغرت في عينه المراكز وانزبت .

وقد طل السكرتير القضائي أن تسمك الشيخ بحقه تدخل منه في شؤون
الحاكم الإدارية ، فطلب إليه الانتباه — فقد الإمكان — إلى هذا وكما أتبعه

(١) من مذكرات حلية المقدم له .

(٢) من رسالة خاصة إلى أحد أصدقائه وهي مجموعة من عدة نصائح الأستاذ الشيخ

أحمد محمد هاشم .

أما - يعنى السكرتير نفسه - إىل هدم المداحلة فى استقلال محكمة العموم فى الأمور القضائية (١) .

ولكن السكرتير لم يلزم نفسه بالمهد الذى قطع ، فتدخل فى الأمور القضائية مرة ومرة . . . تدخل فى قضية ادعت فيها امرأة أمام قاضى قرية ، السكوة ، غيبة زوجها فطلقها وزوجت بآخر ؛ ثم حضر الزوج الأول واستأنف هذا الحكم ، فألحى عقد الزواج الثانى ، فطلب الروح الثانى إلزام القاضى بالمهر وما أنفقته ، لأنه انتسب ، ومن السكرتير القضاى إلى أن رد للروح الثانى امر الذى دفعه سراً ، ولكن الشيخ شاكر رد عليه ، دأى قطع على المكابرين مسيليم . فرد السكرتير يقول : « وإن أكن فاهماً بأنه لا بد من وجود قواعد شرعية إذا فسرت حرفياً حرمت إعادة أى قسم من الصداق فى هذه القضية . إلا أنه لا يعنى إلا الاعتقاد بأن الحكم بإعادة هذا القسم من الصداق إلى دافعه يكون أقرب معنى وأكثر مطابقة لروح الشرع الإسلامى العادل ، . ومن ثار الشيخ شاكر كعادته حينما يحس أن شيئاً قد مس دينه ، أو تعرض لهذا لروحه وحكمة نصوصه . فرد على السكرتير رداً طويلاً ، مبيناً له الحكمة التى لأجلها قصت الشريعة الإسلامية بعدم رد المهر الذى يطالب به الروح الثانى بعد الحكم بفسخ العقد . لم يكن عمل الشيخ إذن فى السودان القيام على تطبيق الأحكام الشرعية ولكن الله ابتلاه بمشغلة حكمة الشريعة فى أحكامه ، وقصفه بالمرصاد يرد عليه متبازمه فى صحوة المتيقظ ووثبة المتحفز .

ولم تكن هذه المكائات لتشغل الشيخ أو تقلق باله أو تصرفه عما كان

(١) من رسالة السكرتير القضاى إلى الشيخ بارح ٦ يوليو سنة ١٩٠٢ رقم ٨ سرى .

بسيطة من إصلاح القضاء الشرعي في السودان ، فقد مضى إلى غايته ، ومر
كما يمر السحاب الثقال . . لا يشغله صياح . وأجد في الشحاكم السودانية
مبادئ من المذهب الإسلامية دعت إليها الحاجة في بلد بكر في تشريع
وقوانينه . وهي مبادئ تستند إلى فكر صحيح ورأي راجح . كالحكم
بالتطبيق للقيمة والإعداد والخس والصرار ونحوها مما جرى به العرف بعد
ذلك في مصر سنة ١٩٢٠ . فسبق السودان مصر في بعض نواحي الإصلاح
الشرعي بعشرين من السنين .

وظل الشيخ شاكر في السودان أربعة من السنين ، لم يقصر فيها على
القضاء ، ولكنه كانت فيه طبيعة المعلم ، ووفرة الواعظ ، وحرية الخليل ،
فما من على أهل السودان بدرس على . ولا يحل عليهم موعظة . ولا امتنع
فيهم عن خطبة . وتوح ذلك كله بقرأة صحيح البخاري كله .

كما يظهر فضل الرجال في الأعمال حين يعهد إليهم بعمل جديد ، فهذا
يظهر فضل الإنشاء والابتكار والتجديد . وقد ظهر فضل الشيخ شاكر حين
كان أول قاضي لقضاة السودان ، فكل عمل له هناك كان سابقة ، وكل خطوة
جديدة له كانت أثرًا ؛ وكل خطوة له هناك كانت تقبلاً يتبع لمن يأتي بعده .
ولقد جاء بعده في ذلك المنصب الشيخ محمد حارون والشيخ محمد مصطفى
المراعي ؛ وجاء بعدهما عدد من خيرة نقضاة فكان للشيخ محمد شاكر
فضل الرواد .

وعاد الشيخ إلى القاهرة في أوائل صيف سنة ١٩٠٤ في عطلة سنوية
وكأما كانت تعد له الأنداد بالمنصب الجديد ، يظهر فيه فضل الإنشاء والتجديد .
فقد رأى قبل ذلك بعام أن تلحق الإسكندرية بالجامع الأزهر في التدريس

والامتحان ، وكان الجامع ، الأوبر ، الإسكندرية موقوفاً للندريس من قبل الشيخ إبراهيم باشا ، الجدا لأهني الشيخين أحمد باشا ، ومحمود باشا ، ورفض أولاد الرافق أخيراً أن يدعوا مجلس إدارة الأزهر في إدارته ونظامه ، وقرر مجلس الأزهر تعيين شيخ لعلاء الاسكندرية غير لشيخ محمود باشا . فمن يكون ذلك الشيخ الجديد ؟

فكر الأستاذ الإمام في الشيخ محمد شاكر ، وجس نبضه فوجد منه ارتياحاً للقبول ، ووقت حكومة السودان على نقله ، ورضى الحديو بتعيينه وصدر الأمر العالي بذلك في ٢٦ أبريل سنة ١٩٠٤ .

كان الشيخ شاكر في الاسكندرية رنداً كما كان في السودان . ولئن ظهرت في النقصاء الشرعي بالسودان ميزته الفقهية لقد ظهرت في معهد الاسكندرية فنيسته التعليمية . ويظهر أن خاصة الابتكار كانت فيه في كل عمل تولاه ، وما عرف التقاليد والاتباع إلا في التأسس بالرسول وصحافته ؛ وأما ما عدنا ذلك من أمور تجب فيها لأصالة ومحمد فيها الابتداع فقد كان فيها على غير ما كان غيره . وهو هنا يمتاز بعقيدة منظمة وذهنية مرتبة ، كانت ، طهر في ريبه مطلقه إذا كتب ، في ترتيب عمله إذا عمل ، وتلخص سيرة الشيخ في الاسكندرية في هذه الأسطر العزيرة المعق المستقلة الحكم التي كتبها الشيخ محمود أحمد المرأوى شيخ محمدي دسوق وأزنازق سابقاً وفيها يقول (ثم أنشأ المنصور له الحديو عباس لثاني معهد الاسكندرية ، واختار شيخنا له القاضي المعادل والمربي الكبير المعفور له الشيخ محمد شاكر فنص بالمعهد هو صواباً ، وجعل تعلم هذه العلوم — يعني علوم الثقافة

الحديثة - إخبارنا فإذ هو معهد الاسكندرية بهذا المعلوم إلى جانب علوم الدين واللغة أيما ازدهار^(١) .

لقد كان الشيخ شاكر أذن عن شيخنا الجديد في العلم الإسلامي . وهي حقيقة ما كانت لتغيب عن منصف ، ولا أدري كيف عابت عن الدكتور المستشرق تشارلز آدمز وهو يؤرخ للإسلام اعتماداً في كتابه ، الإسلام والتجديد في مصر ؟

استن الشيخ شاكر في معهد الاسكندرية لتبني سنة التقرير السنوي عن أعمال المشيخة كل عام ، برهعه على ولي الأمر أولاً ، وإلى من يهمهم أمر التعليم السني ثانياً . وقد كان بعد هذه التقارير بنفسه وكنتها بقلمه ، فيها روحه وأسلوبه وفيها دقته وترتيبه . ففيها المقدمة وبتداول الاختصاص المنظمة ؛ تارة بحسب المذاهب وتارة بحسب أقاليم اطلال ، وفيها حداول الامتحان وعدد المتقدمين له والناجحين فيه ، وفيها فوق ذلك خطبه التي اعتمد كل عام أن يلقيها في حفل توزيع المكافآت على الناجحين ، وفيها خطة للدراسة تدل على فهم سليم سياجته التعليم .

وما كانت تقويت الشيخ وهو في مشيخة الاسكندرية عطائه وتقربه إلى كل ما يمس دينه ، ولم ير في الوظيفة ثمناً للسكوت عما نال أو سبباً للاغضاء عما يندفع . ولم ير في المنصب حيراً إلا كان الحسام للحق . وعقلاً الحكامة الصبق . فقد تعرض للورد كرم مرة للإسلام ، فرأى الشيخ رحمه الله أن يحصار ادعويه يوم الاحتماء بهاية أمام . وهو يوم كان في الاسكندرية خطره وقدره ، حيث يجتمع نائب الخديو والوزير ، والعلماء والعلماء والطلاب ؛

(١) عه الرسالة العدد ٦٢٢ ص ٥٤١ .

ووقف الشيخ في ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٧ يلقي حطة الاحتفال ، فلما فرغ مما يقال في مثل هذا المقام اتجه إلى العلماء قائلا : (إن هذا الدين القويم الذي استضاء بنوره أنضاء الإنسان منذ أربعة عشر قرنا ، لا تزال مزاياه الفاضلة محجوبة عن أعين كثير من الناس ، حتى من الذين اقتضت الإرادة الإلهية أن يمتزجوا بأهله . وإن احتجاب هذه الفضائل الإسلامية عن العميون وأعراض كثير من المسلمين عن التمسك بها ، وتفاهد العلماء عن التنويه بشأنها والبحث عليها ، سوغ لرجال نظروا إلى الأحوال لأهم الإسلامية المحاصرة ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث عن حقيقة فضائل الإسلام وآدابها أن يسبوا إلى الإسلام عيوب هذا العصر ، وأن يعلنوا في مشارق الأرض ومعاربها « أن التعاليم الإسلامية هي التي وقفت تقدم المدن التي دان أهلها بدين الإسلام » (١) .

واستمر الشيخ يمر من أقوال المهاجرين ويرد عليها قولاً قولاً حتى شق أنفاس المسلمين بما تجد من ذلك التعرض المهين . واستأن الشيخ في الأسكندرية سنة لتوزيع الجوائز العلية على الطلاب الناجحين جميعا ، وكان يورعها عليهم نائب الخديو أو رئيس مجلس النظائر تشجيعاً لهم ، وكانت الجوائز كتباً ، حتى تكون بطلاب العلم أيق وله أجدى وأنفع . وروى في انتقائها وجه المنفعة لهم في دينهم ولعلمهم وتاريخهم وأديهم مثل كتب « ديوان الحماسة » و « مقدمة ابن خلدون » و « نهج البلاغة » و « تاريخ أبي الفداء » و « المثل السائر لابن الأثير » و « فقه اللغة للشعالي » و « ديوان المتنبي » وهي كما ترى من أمهات الكتب العربية .

(١) التقرير الرابع من أعمال مشيخة علماء الاسكندرية . مطبعة الملاحى ، الميمنة من ٢٠ .

وكانت إشارات الشيخ مع كرام الرجال المفكرين تعظمهم على الطلاب بهدايا الكتب ، فقد أهدى محمد طهعت حرب بك د. ناشافيا عدد ١٠٠ نسخة من كتابه ، تاريخ دول العرب والإسلام ، كما أهدى محمود بك أبو النصر المحامي تسعين نسخة من كتاب د. إدريس القاسم لسان ساعد الأمازيغ .

ولقد كان لطبيعة الشعام والتنظيم في عقلية الشيخ شاكراً لها في النهوض بمعهد الأسكندرية في وقت قصير . فألف طلاب المعهد النظام وتعدده ، وتعود شيوخ المعهد ضبط المواعيد والمواظبة على إلقاء الدروس ^(١) وتنظيم ساعات العمل والتفدي بمنهج مرسوم وبرنامج محنوم ، واختار الشيخ أربعة من علماء الجامع الأزهر ليكونوا عوناً له في الأسكندرية وهم : الشيخ عبد الله درار ، والشيخ عبد المجيد الشاذلي ، والشيخ عبد الهادي مخلوف والشيخ إبراهيم الجبائي الذي كان شيخاً لكلية اللغة العربية إلى عهد غير بعيد .

وظل الشيخ في المشيخة ، كما كان في القضاء ، يحتفظ بكرامته ممتداً بشخصيته واثقاً بنفسه في غير تنطع ولا كبرياء . وكان يشجع تلك الحلال في طلابه وفي العلماء حتى لقد كان طاب العلم في لأسكندرية يمتد بانتهاه إلى المعهد الأسكندري وإلى طائفة العلماء .

وما روي عنه في هذا الباب أن أحد مدرسي المعهد دعي من أحمد أقسام المدينة ليؤدى شهادة ، ولم يصله الاستدعاء ، إلى المدرس عن طريق المشيخة . ولكن وصل عن طريق مأمور القسم . فذهب الشيخ وصحب أن لا يذهب لمدرس حتى يصحح الوضع ، وجرى بعد ذلك الأمور على ما أراد الشيخ الكبير .

(١) تاريخ الأستاذ الإمام تأليف السيد رشيد رضا ج ١ ص ٢٧١ ،

وأراد أحد وجهاء الإسكندرية وأبو حوهمها اليوم أن يدفع زكاة ماله لفقراء طلبة المعهد الإسكندري . فثار الشيخ على توجيه ثورة علمته كيف تكون الكرامة والأمان في نفوس العلماء

اقتتل الشيخ بعد ذلك وكيلًا للجامع الأزهر في ٢٩ أبريل سنة ١٩٠٩ وفي عهد وكالته صدر قانون لنظام في الأزهر سنة ١٩١١ ، وبمقتضاه قسمت الدراسة إلى مراحل ، لكل منها نظم ومواد خاصة ، وعهد للشيخ شاكرا سطيق القانون الجديد فأشرف القسم الأول ، وعين شيخًا له مع ثقائه وكيلًا للجامع الأزهر ، وظل في الوكالة كما كان في مشيخة الإسكندرية شغلة لا تتحدد وحركة لا تسكن ، وقام يرحله إلى الصعيد يزورها مدته وكثيرًا من قراءه ، ليقف على أحوال الدراسات الدينية في مساجده ثم بدأ الإهداء معاهد عنده فيه . وفي وكالة الأزهر تنهى حياة الشيخ شاكرا الحكومية ، ليصبح عضوًا معينا في الجمعية التشريعية التي أُلحقت سنة ١٩١٢ ، وهي عضوية لا يجمع بينها وبين العمل الحكومي ، ومن هنا يبدأ هزال الشيخ في الدفاع عن الإسلام . وكان يهدف في هزاله إلى أن يكون لمسلمون أمة واحدة وعصبة منحددة ، تأياهم عن مذهب القرصية الذي رآه رحة الله بدعة تفريق الكلمة وتقطيع الأوصال . وهي امتداد لفكرة الجامعة الإسلامية التي نادى بها السيد جمال الدين الأعرجي في القرن التاسع عشر .

وقد أعدته هذه المعصية ليكرن سياسيًا من الطراز الأول ، فلما جاءت ثورة سنة ١٩١٩ وكان ما كان من حوادث الإضراب والاعتقال والنفي والمفارسات والمهادنات والانشقاقات والأحزاب ، رأى الشيخ يحول في ميدان السياسة ويصير ، حتى فسحت به حريدة المقطم صدرها ، وحصلت مقالته

بالمقام الأول من عنايتها ، فإذا ملئت دواعي الهوى ، واختلط التقائم بالتقاعد
والصحيح بالعاسد ، ويأت الشيوخ واقفاً للأحداث بمرصد وللرجال بمشهد .
يستقد آراءهم ويتصفق مصيبتهم ويرد خطيئتهم ، ولا يجاس في ذلك أحداً ،
ولا يحاق عظميا ولا يخشى سلطاناً . ولكن الرجال عنده أمام الحق سواء .
وتمتاز مقالات الشيخ السياسية بالصدق فيها والإخلاص في براعته .
كما تمتاز بقوة جدلية لم تنسج لكثير من السياسيين في عهد ومن يجب أن
شيخ أزهري لم يدرس الفنون ، ولم يتعلم علم الدسائس ولم يعرف لغة أجنبية
كان يجهد الله قسمة التاليفات للمجذلات القانونية . كأعم العلماء ما نقوا به .
ونقد أعانه على ذلك نظرة فنية ودكاء في الرأي ؛ وحسن في العرص وقوة
في البيان .

ولر أن مؤرخ أدبهم أن يؤرخ للأساليب العربية في القرب العشرين
ما أغفل من حساباته أسلوب الشيخ محمد شاكر من الكنايين فقد كان عنده
من وسائل البسط والشرح للتصية التي يعرضها ما يجعلها مبرعة إلى الفهم لاصقه
بالقلب ، حتى لقد كاد المسبون في كل قطر عربي يتفقون بمملاته ، شوقي
عظيم ، وما قاله في ذلك حاج حسين الخراج علاوى بعداد (حين يصح المقطع
في البريد نفث أعماده بالهفة شديدة وتصفح مقالاته ، لعنا نجد دقته لحضرة
الشيخ بذيله بأمضاته ، وإذا وجدنا ذلك عدده ذلك اليوم من أسعد أيامنا !
ولقد كسبت السياسة الشيخ محمد شاكر ؛ وما كان هو منها كاساً ولا فيها
طامعاً ، ولو شاء أن يجعلها تجارة نعل ، لا واجباً وطنياً يؤدي . لخرج منها
بالرج العظيم . ولكنه كان زاهداً في العنى مع ستماع أسابه له ولقد بيع
من زهده فيما يطمع فيه الرؤساء أنه كان يضع بنفسه مير نية مشيخة لأرهم

وكان يضع أمام اسم كل عالم من العلماء واموظفين ما يستحقه صاحبه من
العلاوات وغيرها ، إلا اسمه هو ، فكان يكتب أمامه : « لا يستحق شيئاً » .
ولمست هذه تقية الخائف من قلم المراجعة أو ديوان المحاسبة ، لو
كان في ذلك الزمان مثل هذا الديوان . . . وسكنها تقية المؤمن في الأمانة
يحصلها . فقد كان مكلفاً أن يضع لصرف الميراث قاعدة منظمة حسبما يراه
مفيداً للعلم والتعليم .

تقد شملت السياسة والمقالة الشيخ محمد شاكر عن التسايف ، ولو قد
تفرغ له وعكف عليه سكان له في ذلك الميدان شأن أى شأن .

ومجيب جداً أن هذه الشخصية الأزهريّة الكبيرة تتمحور عن ثلاثة
كتب صغيرة : — هي الايضاح ^(١) في المنطق ، والدروس الأولية ^(٢)
في العقائد الدينيّة ، والقول الفصل ^(٣) في ترجمة القرآن الكريم .

ولكن الشيخ نفسه — طيب الله ثراه — كان كتاباً حارياً لعنونا من
الإبداع ، وحديثاً حسناً لكل واحد .

(١) مطبعة النهضة ، القاهرة سنة ١٩٣٦ .

(٢) للطبعة المصرية ، مكتبة سنة ١٩٠٨ .

(٣) مطبعة النهضة القاهرة سنة ١٩٢٥ .

الدكتور إسماعيل أدهم

وأسلوبه في كتبه ومباحثه

كان المرحوم إسماعيل أدهم شخصية في الأدب النقدي الحديث ، تستحق الدراسة من رواح متعددة . وإذا كان عرف عنه دائماً زعيم في العقيدة ، أو بعض للنزك عن العرب والإسلام فقد عرف عنه بحجاب ذلك كثير من دقة البحث واستقصاء الدرس واستكمال عدة النقد اللارمة للنقد الحديث . وامتازت كتاباته ومباحثه ، الواسعة المنتشرة هنا وهناك بطريقة جرى عليها علماء المشرقيات في مسحهم ، وهي طريقة غير هينة ولا معبودة لأنها تسننهم صراً كثيراً وورط محكم لكل ما يقرأ وإدراكاً واسعاً يستفاد به صاحبه الحكم في صحة ، غير جاح إلى خطأ ، أو مائل إلى انحراف عن الجودة .

ولقد أثار موت أدهم — بالطريقة التي اختارها — أمور كثيرة ، تعرض فيها كثير من الناس لأمر ما كان ينبغي التعرض له ، لأنها تمس شخصه هو . وليس جراً خصوصياً من حياته ، وكان الأولى بهم لو وقفوا أمام أدبه وتراثه العسكري فاستعرضوه وبحوثه وأشبهوه درسا وتناولوه تناول الناقد — في رفق أو في عبرة — لأنه تراث لم يعد من ملك إسماعيل أدهم ، بل عاد من ملك الزمن ومن حق التاريخ .

ولا عرض هنا لما قبل في أدهم وما قبل عنه ، فليس ذلك وارداً على بحث اليرم ولا داخل فيه . ولا شك أن المغامر التي أثرت حوله ستمضي

وصديق الكلام في عقيدته مسألة حسابها بينه وبين ربه .

* * *

والكلام من آدم في أي ناحية من وجبه قد يكون شائكا ، وقد يكون دقيقاً . وقد يكون فيه غيب من الخرج ، فليس من أمهل المواقف في بيئة شرقية تحاط به — أن يطيب الكلام عن آدم المعروف برعائه الحرة غير المبالية بتقيد أو سنة (١)

وبس من أهون احواف أن يكتب عربي عن شاب تركي لأب ألمان الأم أو صقليه يكذب يرى ويؤمن باحقار الترك للعرب (٢)
وليس من أحب المواقف إلى النفس أن يكتب كاتب يريد الانصاف عن أدب تعددت فيه مذهب اراى . وأحيى عليه وعرفاه الأملانية والروية وفيهم شهاداته العلمية بكثير من الشك (٣)

نعم ، ليس الكلام من آدم سهلاً ولا ليناً ، ولا بما يروح إلى بعض الناس من يرون رأياً خاصاً ويذهبون في الحكم عليه مذهباً معيناً على أن الثابت لا ينفك عما سقيده به سائر الناس . ولا يحصع نفسه لحاطفة نكرة قد تكون لها أثر سيء في الحكم على المنقود . فقد كان في أدب العلماء المعري شك وسخرية وجرأة على الأدباء ، لا أن ذلك لا يمنع من وضعه في المعزل الخلق به في أدب العرب . أما المترمون الذين يتخرجون حتى من حفظ شعر لأن العلماء لرميه بالاندقة ، فأولئك قوم لا نكتب لهم ، ولا نود أن يقع حديثنا في أيديهم .

(١) انظر (ماذا أنا ملحد) لإسماعيل آدم

(٢) انظر (الزهدوى ، مفاخر) له من ١٧

(٣) راجع أعداد الرسالة من يوم وفاة آدم ١٩٤٢ إلى اليوم .

على أن أدم — كما قلنا — قد مات وراح في الطريق الذي روح ويعدو له في الحياة . . . وراح معه شكك وإلحادك لينقي بها وجه الله الذي سيرى عنده اليقين ؛ فمن السخف أن نخضب ونسخط على أدم ، لأن الله لم يده كما هدى غيره . ومن الرحمة أن نرثي لأدم بسبب هذه الخيرة السوداء التي سودت عليه آفاق الطريق وقد يكون من المفيد أن يتصل أحد الباحثين بمعالجة هذا الموضوع — موضوع إلحاد أدم — والكشف عن يوعنه والعرف التي هأت له ، مسههاً في ذلك بما كسه هو عن نفسه في كتابه .
لماذا أنا ملحد ؟

يحد المتبحر لأسلوب أدم أنه لم يسلم من وقوع الأخطاء النحوية فيه . وكان أصحاب الصحف والمجلات التي ينشر فيها يعانون كثير أى سبب إصلاح هذه الأخطاء وردها إلى وجه الصحة . على أن أدم في سببته الأخيرة قلت عنده هذه الأخطاء واسكنها لم تتعلم بعداماً تاماً .
وكان خصوم أدم يحذون في هذه المسألة وفي غيرها فرصة للتعريف بقيمة ما يكتبه . على أن ذلك عند المصنف لا يحط من القيمة العالية لما كتبه وصعب سماعين أدم في قواعد العربية من أسهل رده إلى شأته في بيت غريب عن العربية . وكان للسنوات التي قضاها في تركيا كما نعرف وفي دوميكا كما يقال — أثر في زيادة هذا الضعف . ولا أنه بدأ عند النصف الأول من عام سنة ١٩٤٠ يقطن إلى أخطائه . ولعله اكتسب ذلك من نشر مقالاته مصححة من قلم التحرير فلم يقع خطأ في مقالاته المقبلة .
وكان بجانب ذلك لا يحرص على استعمال الألفاظ العربية ، بل كان

يعدل عيب إلى الألفاظ لدخيلة أو غير الصحيحة ، أو الألفاظ الأفرنجية نفسها مكتوبة بحروف عربية

وفد لاحظت عليه كثرة استعماله للمعاني وما تنبكية ، بدلا من «استداعية» ، ويقول عن ترجمة البستاني للأبازة إنها «مسجمة شعرية رحمة يمشون جيتها» بدلا من أساطيرها وأكثر ما يلاحظ عليه هذه الطريقة في السكتات الأولى التي كتبها بين سنين ١٩٣٥ ، ١٩٣٨ وكتابه الموسوم «الرهاوي الشاعر» مشحون بأمثال هذه الألفاظ لأفرنجية المنبذة في حلال كتاباته العربية إلا أنه في الستين الأخيرتين قبل وفاته عدل عن هذه الطريقة إلى الطريقة الأخرى لمعقولة . وهي ذكر الكلمة العربية الأصلية مع ذكر ما يقابلها في الإنجليزية والفرنسية بين قوسين بحروف لاتينية . وهذه الطريقة تظهر بشكل واضح في أبحاثه المصنفة عن شاعر الألفاظ العربية خليل مطران ، التي نشرت تباعاً في مجلة (المقتطف) في عام ١٩٣٩ وبعض شهور من عام ١٩٤٠ . وعن سين انتيل نذكر ما يأتي : يقول في أحد هذه أبحاثه^(١) : «إن الخيال الشعري عند مطران أصفى Relative» . ويقول أيضاً في الصفحة نفسها : «وهذه أشياء يمكنك أن تحصلها كقاعدة Regle من إمعانك في مطالعة شعر ديوان الخليل» . ويقول في موضع آخر^(٢) : «وهي عن صبر العاطفة Emotion والخيال والفكرة» . ويقول في موضع آخر عن صناعة مطران الفنية^(٣) : «فإن الكمال Perfection في الشعر يقوم على أساس الاتزان بين الروح الشعرية والتعبير الشعري من جهة من جهاته» .

(١) ص ١٢٢ من الكتاب .

(٢) ص ١٢٨ من الكتاب نفسه .

(٣) ص ١٦٨ من الكتاب نفسه .

وهكذا نجد الأمثلة كثيرة على ميله أخيراً إلى استعمال اللفظ العربي والبدول به عن اللفظ الأجنبي الذي كان يشيع في أوليات مقالاته وقد لا أكون غرضاً في الطل أن السر في هذا يعدون هو كثرة مانع من له من النقد من ناحية - فقد كانت طريقة حشد الألفاظ الأجنبية على اللغة العربية لا ترضى كثيراً من القراء - ومن ناحية أخرى أراد أن يظهر لبعض القراء من عليه تمسكه من اللغتين لفرنسية والإنجليزية .

وبالرغم من ذلك كله فإن أسلوب إسماعيل آدم يتميز من غيره من الباحثين المعاصرين بطابع خاص انفرد به وحده ، وهذا الطابع تظهر فيه شخصية آدم ظهوراً مستقلاً .

وقد بلغ من استقلال هذه الشخصية الأسلوبية وتفردا أنها كانت تتم عن صاحبها حتى ولو لم يعرف القارئ اسم كاتب المقال . وهو في ذلك يمتاز من كثير من الباحثين أو الكتّاب المعاصرين الذين يكادون يذوبون في غيرهم كما يدرب الثلج في الوهج . . وهذه الميزة المريدة لآدم هي التي أعطته مكاناً طيباً في عالم النقد ، فقد كان ينظر إليه نظرة اعتبار من صاحب الحديث في حب ، وأصحاب ، المقتطف ، في مصر ، وصاحب « الرسالة » الذي قسح له صدرها غير عال . مما كان يسبح حول آدم وما يحاك له .

على أن هذه الشخصية الأسلوبية لآدم لا تعني أنها استغلت بمقومات أو حساسات فقط ، فقد كان فيها بعض العيب وسحب الكمال - نعم كان فيها شيء من لسعة الأناغم . إلا أنه لحسن الحظ أن هذه اللسعة الموروثة فيه لم تفسد معاني كتابته ، وإن كانت تضيق من عربيتها .

ويظهر أنه كان فقير المادة اللغوية العربية وهو معذور في ذلك كل

العذر لصحته ولا ولصغر سنه ثانياً . فلم يشع له عمره القصير أن يحيط بثروة لغوية وسعة وإن كنا نلاحظ عليه ازدياد محصوله اللغوي من عام إلى عام .

ويؤيد ما نقول أنه كان له كثير من الانقطاعات والتعيرات والتراكيب الخاصة به يديرها في كل بحث من مباحثه ويكررها في كل كتاب من كتبه وقد ينسى فيكررها في الصفحة أو الصفحةين المتتابتين ثلاث مرات أو أكثر ، ولما نلقى الكلام هنا من غير دليل فهو يقول في أحد كتبه (١) « تقطعت نتيجة له أو صال عقليته التقليدية » ويقول في الصفحة التالية من الكتاب نفسه « تقطعت أو صال عقليته التقليدية تحت حرث العلم والنقاه الغربية » ويقول في صفحة ١٨ من الكتاب نفسه « فتقطعت عند الكثيرين من أنحاء الشرق العربي أو صال العقلية القديمة »

وقد تكون العلة في هذا التكرير الواضح في كتاباته ضعف محصول اللغة عنده كما أسلفنا ، وقد يكون له سبب آخر غير ذلك . ولكن الذي لا شك فيه أن هذه الظاهرة في أسلوبه تدل دلالة قاطعة على عدم مراعاة الفيض الشعري عند الكاتب .

ومن أساليبه الخاصة المتكررة عنده وانفجرت في كل كتاب ما يأتي « تموج الإحساس طغت موجة وسط هذه الموجات ، استقوت على عجلة الزمن »

• • •

وفي كتابه فيض عذير من الانساق العملية الخاصة التي تستعمل في العلوم الطبيعية أو الرياضية ، ولا شأن لها بمصطلحات مباحث الأدب والتقد ،

(١) كتاب الزحوى الشاعر ص ٢٢ .

رحلة ذلك أنه كان عسى العنق ، عسى الدراسة ، ثم اتخذ الاشتغال بالمبحث الأدبية غاية له بعد ذلك ، فالسبب إلى كتابته الأدبية سبيل عرض من ألفاظ كانت تشغل ذهنه في علم الرياضة والطبيعة وغيرها .
ومقالة لائه وكتبه ملومة بهذه الألفاظ ، ونذكر من على سبيل أمثال بعضاً منها ، فهو يقول في كتابه عن مطران (ص ١٠٨) « لآب الأصل في التمهيد انطلاق الشجرات المفرعة من الأعصاب » .

ويقول في الكتاب نفسه ص ١١٢ « وهذا اجر يعمل فعله في النصوص فعل بجمل محب طبع في ردة الحديد » ، وذكر كثير أ ، التعادل ، والتقبص ، والتدب ، والطيرف ، وعالم الجريبات ، والدقائق ، والحدرات ، ويسمى قوى الحب (جاذبية) .

أما التحقيق المبني في مباحثه و تباعه وسائل علماء المشرقيات في محرمهم ، وهتمامه بالمصادر وذكرها والتعويض عليها دائماً بلاشهاد ، فذلك كله معروف عن كتابته . وهي وسائل تحتاج بغير شك إلى كثير من المعاناة والصبر والزم

وقد انتفع رحمه الله بكثير من الأبحاث التي كانت دائرة في السنوات العشر الأخيرة في الصحف العربية : كالمتنطاع ، و مأبولو ، و « لخال » و « السياسة الأسبوعية » ، و « ارسالة » . وكان يرجع إلى هذه الأبحاث مستشهداً على ما عالج هو نفسه من لمباحث . ونظرة واحدة إلى هوامش مقالاته وكتبه تؤيد هذا الكلام .

لقد أصبح أدب أدم الآر في ذمة التاريخ ، فبيكبت عنه المصنفون ليكشفوا النواحي الغامضة من أدب عاش عيشه العدمي ومات ميتة المروض ، بعد أن ترك خلفه أثراً جليله حريته في عالم القه الحديث

نخري أبو السعود

٥ - ١٩٤٠

في يوم من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٤٠ ، واخرب العالمية الثانية مدلعة
الذهب في عامها الثاني وانطلاق والمند سور مقبلون على العام الدراسي
الجديد بنفوس تهيأ لتكفاح في عهد جديد من حصرها ، وأوراق
الخريف تنساق واحدة إثر أخرى استعدادا للشقاء الذي يعزى لأنفسنا
من كسائنا الإحضر ، وفي حديقة من حدائق در أبنية صغيرة في رمل
الإسكندرية ، أطاق شاعر ودحل من رجال المعلم رصاصه من مسدسه
على رأسه ، فوقع على كرسية الطويل في حديقة لدار جنة لأحرارك فيها .
وكانت هذه المرة لمفجعة التي احارها الشعب تحت أعصاب الشجر
العابثه هارياح البحر في الخريف ، مثاراً للحديث هنا وهناك

وقدمت بحجة الرسالة ، نعى الفقيد في هذه السطور :- (تنعى الرسالة
على قرأتها أدبياً من صفوة أدباء لبنان هو الأستاذ نخري أبو السعود ،
الشاعر الكاتب ، ولما جهم لمعلم مرم رحمه الله بالحياة في ساعة من ساعات
النضيق الكارثة ، فأطلق على رأسه المسدس ، وهو جالس على كرسية الطويل ،
في حديقة داره بالإسكندرية ؛ وقد كان يعيش وحده في المدة الأخيرة ،
لأن لحرب فصلت بينه وبين زوجته الإنجليزية وولده الوحيد ، وقد شاء
القدر القاسي أن يفرق ولده مع السفينة التي كانت تحمل الأطفال الإنجليز

إلى كشداء ، وأن تنقطع عنه أجبر زوجته ، وبعل في هذه الحادثة الأليمة
تفسيراً للدوافع الخفية التي دفعت هذا الشاب القوي القى إلى الانتحار ،
وهو في سن الثلاثين ، رحمه الله رحمة واسعة ، وعرض مصر عن أدبه
وشبابه خير الموصى .

ونعته مجلة « الثقافة » في الأسطر التالية (تنسى لجنة التأليف وأسرة
الثقافة أحد أبنائها الأعمام الأستاذ فخري أبو السعود ، فقد كان رحمه الله
مثلاً طيباً للجد والنشاط ووفرة الإنساح وصف الخلق ، طالما أمد اللجنة
بعمله في الترجمة والتأليف ، والثقافة بمقالاته القيمة ، رحمه الله ، وعوضنا
عنه خيراً ، وألهمنا الصبر على فقده) .

وقد أثار استجار الأستاذ فخري أبو السعود ، واستجار الدكتور إسماعيل
أدهم قبله بشهرين موجة من التساؤل عن العلاقة بين الأدب والانتحار ،
فقد كان هذان الأدباء الشابين من أكثر الأدباء المصريين ، نشاطاً وأوفرهم
نفعاً ، وكان لهما في ميدان 'الأدب المقارن' جولات معروفة ، وكان لهما من
مرجوه المستقبل ومرتقب الأمان ما جعل الحسارة الأدبية بهما جسيمة
وكان أقل الوفاة من الأدباء والشعراء لكادراً فخرياً أن يتفصل كاتبان
فاعلان في مجلة « رسالة » و « مجلة الثقافة » بالحديث عنه ، وعرض أدبه
في معرض أتيق ، والترجمة له في إيجر ، والاستشهاد بنماذج من شعره عن
الشعريه لأصيه الكأمة فيه . تلك الشعاعية التي رادتها حقيقة فيها ، ما كانت
في الرياض زاهرة ، وما أصلى أناتام حين يقول .

ب القعيمة في رياض وأصرأ لأجل منها في لربض ذوايلا
ولقد راملت الأستاذ فخري أبو السعود في إيجرا ، وفي مقاطعة من

أجل مقاطعاتها اسمها ، ديفونشير ، ، وفي مدينته من أفنم منها اسم
« إكستر » ، على ضفتي نهر « إكس » لقصير الخيل ؛ أيام كسا عشرين في بعثة
تعليمية لوزارة المعارف ؛ والدس يعرفون في العربية أكثر مما يعرفون في
أوطانهم ، لأن أخلاقهم تظهر على حقيقتهم وطبايعهم تبدو على أصابع
رأيت من أخلاق غري أبو السعود ذلك النوع الصلب الذي لا يتكسر على
رأسه ، ورأيت من نشاطه ما لا يجد منه جو ولا وهن ، ورأيت فيه عرلة
من الناس ، وعروفا عن الفصول من القول ، فما كان دائما إلا فيها عناه
وهو ، وعن غير ما يعنيه فهو بعزل . . ورأيت أنه وهو عضو في بعثة للغة
الإنجليزية يجمع الأدب العربي ، ويعرف من مصادره وموارده كثيرا ،
لا يحرف من كان في مثل ثقافته المرسية ، ورأيت أنه يحفظ شعر البارودي ،
حتى لا يكاد يسه عنه منه بيت واحد ، ورأيت أنه يعلم من تاريخ مصر الحديث
ومن دقائق الحفنة بين من دهم التبراب الأجنبية ما لا يعلمه الكثيرون . .
وعرفت مقدرة في الإنجليزية ، وهي مقدرة شهد لها أساتذته من الإنجليز
وشهد له بها قبل ذلك نفوذه في امتحان المسابقة الذي عقدته وزارة المعارف
المصرية لاختيار حضون في بعثة للغة الإنجليزية إلى جامعة « كستر » .

تخرج غري أبو السعود في مدرسه المعلمين على سنة ١٩٣١ . واشتغل
أياما بالصحافة ، ثم محبا بالتعليم الحر ، فلما نجح في المسابقة سافر إلى إنجلترا
سنة ١٩٣٣ وعاد بعد عامين ، فاشتغل مدرساً للعربية الثانوية أولاً
وبالمرحلة الثانوية آخرها ؛ ولم يكن بين سفره إلى « كستر » وبين مصره إلا أيام
غير بضع سنوات ، ترجم في خلالها كتاب « تس » ، لتوماس هاردي ؛ ونشرته
لجنة التأليف والترجمة والنشر في عبور الأدب العربي ؛ وأهدت لجان لادبية

كالقنطاط والهلل والرسالة والثقافة بسيل من أبحاثه الجديدة ، ودراساته
الوجهية لأدبية ، وقصائده التي لفتت إليها أنظار القراء .

* * *

ولا شك أن قراء شعره — الذي لما يجمع — قد قرأوه
واسمعوا بما فيه من لذة وجمال ، فهو شعر مائع المعنى سائغ العبارة . وكل
سائغ من المعاني والآراء يحلب الالجاب ، ويحدث إليه القراء . ولا شك
أن نثرى أبو السعود ، نظم الشعر وهو طالب بمدرسه المعلمين الصبا ، ولا
شك أن هذا الشعر كل ككل محاولة تصدى لها من كشم في قرارة نفسه
عن موهبة شاعرية أو دعها الله فيه .

فلم يكن شعره أول الأمر قويا ولا أخاد — ولم يكن حاديا بالمعاني التي
تكثر بالقراءة ، وتزاحم بالمطالعة ، وتريدها السجرت في الحياة والاحاطة
بالنفس ، والاتصاح في اليبثات المختلفة والوسط المتناهي .

ولكن الشاعر يولد ومعه معرزة . . فهو يملأه بالنغم ، ويرأحه
ويغاديه من حين إلى حين بالمحاولة حتى تتم له الآداة ، وتستقر في له الصفة .
فيدهش الناس بالمطرب من الأعلام ، والهاوى من الإلهام .

وهكذا كان نثرى أبو السعود — رحمه الله — فذوق المعرف ،
وهو الناي ، وأعطى القيثارة الخالدة لينقر عليها زمعالي نفسه ، ورقة جسمه .
وينقل على أوتارها تموجات ما يجيش في صدره ويحتاج في نفسه ، ويطلع
عليها مرأى لحظه ، ومشاهد بصره . فيقنها في أمارة ودقة ، وإحكام وضبط
حتى لا تكاد تفلت من مرأيه شاردة ولا وأردة .

وسبيل الشاعر إلى إجادة الشعر والتفنن تصويره هو حساسه وعينه

ولقد كان حظ شئى منهما عظيما ؛ ولقد شاهدت ذلك منه رأى العبي ،
ويحى فى واد صديق من وديان الجبلزخ الخنوية العربية ، تلبسط على جانبيه
مبهول فيها الجعد وفيها العور ، وفيها الهضاب وفيها المهاد ؛ وتواتها شباب
شقى من ألوان أبعد الله تصويرها ، وأحسن تقديرها .

وفى هذه النفاخ لحيلة كل أجمال ، الفاتحة كل الفتون ، كان يستريح فرى
من عواء المدرس ليلسم نفسه إلى الطبيعة المرحية حيث ، العيسة أحياء ، ليتزع
منه سرها ، ويستوحى حبيته نفسه ، ويصلى إلى الأحماق منها . وهو لا يكتفى
فيما يراه بالطرفة الداحلة ، أو اللوحة الخاطفة ، ولو كان كذلك ما رأى أيضا فى
شعره القصير العمر هذا النظر العميق ، وهذه الأفكار البعيدة ، والمعادى
الذاهية إلى أعماق بعدة الغور .

وهو حين يصور الطبيعة أو يصف مطرا من مظهرها ، يوفى لوصف
حقه ، ويمضى لصورة ثوبا الخقيق به فيه من ألوان وظلال ، فيحيل إليك
وأنت تغرأ شعره أنك تنظر إلى لوحة من صنع رسام ماهر ، ويحيل
إليك - فى غير مباحة - أنك تسمع الشجر إذا حمت ، والنفس إذا التفت ،
والأعصوان إذا رف ؛ كما تسمع فى لوحات شعره الذى إذا تقاطر ، والطير
إذا تناحى ، والبحر إذا تلاطم ، والركام إذا تصادم . . ويخس إليك وهو
يصف زهرة أنك تشم المطر إذا تأرجح ، والياسمين إذا تنفس .

وهو منك صورة للياسمين أصدق وأجمل وأنى من الصورة التى حلاه
فيها الشاعر فخرى أبو السعود بقوله :

لدى الخيا إذا الصبح لاح وقد طل ليللا وقد نصرا
كان أراهـه بسبات يلاقى بها العين مستشرا

ونعم اسمير إذا الليل جن ولاحت بعيدا مجوم السرى
إذا دث في الليل أنعاسه وعطر في الجو ما عطسرا
دعاني أن أقضى الليل طرا ثواء لديه . . وأن أسمرا

* * *

ثم نصف رقة ليسانين . ووشك دهايه ، وسرعة انقراطه ، ويقول :
وشيك لذهاب إذا نظمته كاهل أورشك أن ينثرا
أعد صحبايه في كل يوم وقوة هوامد فوق الثرى
فأية صورة أرق من صورة الباسمين . وهو متأثر على الأرض ، مبعثر
المقد ، بعد أن كان يزين حروط البستان ، ويضرب جيده في عقد منتظم
وشمل منتظم ؟

* * *

والشاعر . يخشى أبو السعود ، في الجباب أبيات متظل خالده في الشعر
التصويرى العربى . لأن قليلا في أدناهم الذين صوروا الجبال . أو حملوا
بأن يفسروا أمامهم لحظات — طالأت أم قصرت — ليستشعروا صلاتهم
بالسبة إلى عظمتها ، ويمسوا أنهم أقزام صئال وحسق صغير حقير .
بالنسبة إلى جسمها المارد ، وعابوها الباسق ، ويلتمسوا في قننها المرتفعة ،
وقمها المنقطة من وشاح الجرم ، ارتفاع النفس عن صفائر الدنيا ومفاسف
الحياة . . ويحولوا أن يستلجوا منها سر الوجود ، واكتناه المصير الذى أحبا
عليها . . فضت السنون وهى تكلم لا نيين ، وصم لا تسمع . .

اسمعه يقول فى الجبال الشواحق :

قامت سوامق فى القمضاء وفوقها من يانع الأدواح صام سافق

وفردت في وحشة . . فكأها لما قرأت في الخلاء أصادق
وكأنهن من الأليس وأفسر أو من صبيح الحاضرات أو بق
وفي قصيدة أخرى يصف الروابي المنسية ، وقد حجب الأفق وأثرفت
على الكواكب : فيقول

قبل تسامت في الجواء وحجت أهن السهام إلى الكواكب توى
أى رفعت الطرف قصر شأوه إشراف مرفوع السموت جسم
وكان عطوى في دروس عورها نمل يد على سراة أديم
ثم يصف وحدته في تلك الروابي ، واستلجائها منه — كأها نورة من
الإنسان — وإنكارها هيئته :

وكأنما أسكن طاهر هيئتي وكأنما قد رعب قسوى
وأنا أعظم بينها قصيدة عربية الألفاظ والتعظيم . .
ويخلص من ذلك إلى حنينه إلى حرارة وطنه ووهج شمس في أيات دقيقة .
ولقد زار الشاعر مرة حديقة الحيوان ، فأوحى إليه بقصيدة رائعة ،
احسن فيها التصوير وأحسن التلميع ، وكشف فيها عن معاني الرحمة
والحب التي كانت تضرب بين أحياء نفسه . أما حسن تصويره فلأنه أخرج
لنا في القصيدة لوحة جامعة لخديقة الحيوان ، لا يستطيع رسام أن يأتي لنا
بها مجموعة في لوحة واحدة ؛ فهنا عرين الأسد ، وأسراب الطير المألوف ،
وأوكال الثعابين الزرقاء ، وجمادات الظلم . . قد تجاوزت هذه الأعداد في
خير هدوء ، وألفت بينها مرارة السجون ووحشة العربة . فيقول :

تجودت الأعداء لأحرب بينها وكف أذى نوب وشرة محلب
وقل شبا ناراهما وحقوقها على دغم طبع في النفوس مركب
حوتها جميعا غربة لا ترى لها إياها إذا ما أب كل مغرب

أما تفديفه أمام شريعة الحياة ، التي تسلط تقوى على الضعيف
حفظاً للحياة واتقاء للسب في الآيات الآتية من القصيدة نفسها : -
وكم من ضعيف آمن السرب وادع دمه دواهي الراسد المرقب
وكم من رصيح ليس بالدفع الأذى يفرق من أم حزن ومن أ
شرائع سديا الحياه لأهلها ومن عى عن تلك ، لما كل يسع

وله قصيدة عواها السفينة أجادفها الوصف وأنفن الصردة وكان
رقيقاً جنداً حين صور موقف الودع والوحيل في قوله :

يودعها ، انشط حرى جوارح ريرتها في البعد أهد ، جنلى
فن رحل بالشط عادر أهله رلى راكب قد يم الصبح ولأهلا
ولم ، قضوا حق الحاق وكفكفوا عوارب دمع أو أرالوه فأنهلا
وأرسن بالقبيلات فى الجومرس ولوح بالمنسدين آخر محضلا
تمادت بأهيسا تشق طريقها من انهم ، تمكل ولا استنقلت نهلا .

ثم يصف النار التي مدعها ، وعقل الربان الذي يدبرها بقوله :

يغوص بها فى بارد الماء جاحم من النار تصبى منه أحشاؤها مهلا
يبرها فى رأس حوچئها امرؤ خير بأوضاع الطريق فاضلا

وكان الشاعر يفرى أو السعور على ترمته ووجوده أحيانا ، بتبلل
للسكينة إذا سمعها ، فإذا أصابت منه موضع أصبح لا يكاد يمسك نفسه من
الضحك ، ولعل هذه العبوسة الى كانت كاملة فيه ، كانت تنفس عن نفسها
أحيانا ببعض الشعر الفكاهى ، الذى كان يصوره من حين إلى حين مناظر
مضحكة ، تثير ضحك الكثير مننا . ومن صورته المكممة الصادقة صورة فتي

اعني ينغم في القرآن ورجع الأنفاس به . ويسير يديه على عارضيه .
وكذا رآه السامعون امتصاصاً . ر دهم من حركاته وجهته : ومط من عنقه
ورفع صوته ١١ ويقول بها : -

في حلقومه نأى رحيم	تغيب النفس من طرب إليه
إذا ما رجع الأنفاس فيه	وقد دارت يئده بما رصيه
سماءك صوته صمداً ، وألقى	إليه الحسن طر سمعه
إذا رآه مدحا راد رهوا	وهو من الحسن ممكبه
ومال ترنحاً يئى ويسرى	وصغر في التغم أحده

لقد كان شري أبو السموء شاعراً حسن التصوير ، ر هى الألوان ،
وصف الطبيعة ووقف قلبه عليها ، أبداع الأداء وأحسن الوصف ومن
العريب أدك لا تعثر في شعره المتعثر هنا وهناك ، لا عنى القيد جداً
- بل الشدر - من الشعر المزلى . أما المديح فقد حاوله مرة أو مرتين
عن الأصح - في جريدة الأهرام ؛ ولكنه سكت عنه بعد ذلك سكر تاماً ؛
كما يسكت اليوم سكتته الأدبية في معفرة الله ورحوه العظيم .

محمد إسعاف الشاشي

قصي محمد إسعاف الشاشي يوم الخميس ٢٢ يناير سنة ١٩٤٨
١١ ربيع الأول سنة ١٣٦٧ وحبلاً في أحد مستشفيات القاهرة التي كان يجيها
حاجباً ، والتي كان يقد إليها كل عام من فلسطين ، فترقى سندوات الأدب والعم
بجلسه ؛ حيث يكون المصدر فيه محدثاً وراوياً ؛ كأننا وعي تاريخ هذه لأمة
العربية كله في صدره بروية كأنه يقرأ عن كتاب ؛ ويقصه كأنه يتنوء من
صحيفة . فقد خصه الله بذاكرة قوية وحافظة لم تنس منهب النسيخة
إلا قبلاً

وكانت ريادة الشاشي للقاهرة هذا التمدد هي آخر ردراته ، فهل كان
يعلم وهو يودع فلسطين المهددة في سبيل ربهما ربحها وأرضها أنه وداع
بغير عودة ، وأنها راحة لغبر رجعة وأنه تركم والبأس بغل فيه ؛ لا هرباً
من الجهاد إذا دعا داعيه ، ولا استسلاماً للمجاة . ولكنه تركها مستشفى
بطن مصر الآمنة ، ومستمعاً لسهام مصر الدافئة الصاحية . ولكن الطيب
خانته هذه المرة فلحن نأه :

والناس .. يحون الطيب وإنم خطأ الطيب إصابة الأقدار

كان مجلس الشاشي في ندوة فندق « الكورننتال » محمداً يملأ السمع

والنصر والنفوذ ، ونور الرجل في ذاته كان ضئيلا في جسمه ضخما في شكله .
ولكنه كان يشرح الرجال الطول بعوارفه ومعارفه ، كأنما كان الشاعر
المرئي يتحدث بلسانه في قوله .

إذ كنت في القوم الطوال علوتهم بعارفة . حتى يقان طويل
ولا أذكر أتى تحلفت عن مجلس النقاشيني في «السكون» فقال ، و
السنوات الأخيرة لا قليلا ، أخت به ضرورات لم أستطع لها دفعا . وكان
أحب إلى نفسي أن أستر مكاني في الندوة حيث تتحلق الحلقة وتسمع الدائرة ،
وبأني راثر آخر يتفصح بكرسيه في المجلس فيفسح له ، ثم تأخذ بأطراف
الأحدث بيننا ، كل على قدر ما وهب الله له من موهبة الكلام ؛ فإذا
النقاشين يرحل الحديث في المجلس ويديره ، وردا به يصل الحديث بالتقسيم
والحاضر بالمحاضر ، وإذا هذا الرجل الضئيل المنزوي يسحرك كأنما مسته
شحنة من كرماء . . فتشيع الكهرمانية في عينه اللامعة ، وفي صوته
الجهوري ، وفي إلفائه الذي يهتر فيه ويضطرب ويقوم ويقعد ؛ كأنه يريد أن
يجسم المعاني بهذه الحركات الانفعالية التي لم أشهد لها ضربا فيما سمعت
من الخطباء .

على أن هذه الجوانب الشخصية من إسعاف النقاشيني ليست غرضاً لي
في هذا المقال ، فعند كل أديب اتص به سبل منها لا ينقطع . وهي جوانب
لم يفقهها إلا النادر ؛ نره وأحسوا أنهم ودعوا إلى يوم النور . وما
تعطت دورة الأرض ، ولا تعوق مسير الحياة ، ولا حصف القمر لموت
مخلوق . . حتى الانبياء على جلال رسالاتهم ، طاحية ماضية ، وهذه قدوتنا
تعتقد كما هي ، فإن الناس لا يموتون لموت واحد من البشر . . ولكنها

عظمت من الشاشي وأصبحت منه نخلة . ونحن من السابقين على الأثر .
فلم يبق إلا لحساب أنعام من حمة الزحال ، وهو أبى على الأجمال .

□ * □

لقد أسهم الشاشي في مكتبة العربية ببضعة من الكتب ، تمتاز جميعها
بلا كتابه الإسلام الصحيح ، بصغر أحجامها وعظم أقدارها . وكلها تدور
حول الفكرة العربية التي مكنت على إرجل منصف حسه ، والعربية عند
الشاشي تتمثل في اثنين : لغة العرب ورجال العرب . فأبى قلبت كتبه
فمن يجد فيها غير « عرب » يغيبه الشاشي ، ويرفعه إلى مراتب مخلوطة ،
وعبر لغة يهون على الشاشي أن يميت قلب أو يشهد يوم بماتها وحسبك
أن تستعرض كتبه - أو تفراً عما فيها على الأقل - تتعرف صانع صدق
هذه النظرة فن كتبه : « كلمة في اللغة العربية » و « قلب عربي وعقل
أوربي » و « العربية وشاعرها الأكبر » و « اللغة العربية ولاستاد الريحاني »
و « العربية في المدرسة » و « من كتبه في أبطال العربية والإسلام : -
« المعطل لحالك صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي » و « العربية وشاعرها
الأكبر أحمد شوقي » و « مقام إبراهيم » يقصد به البطل العربي المجاهد :
إبراهيم هنانو .

لقد حصل الشاشي في العربية ملكة سيمية قوية لم تأت منه عفواً ولم
تهبط إليه اعتباطاً . ولكنّه ناطقاً بعد السكند والجند ، والقراءة والحفظ .
والصيرة والفهم ، ويقف في ذلك بحارته لطيفة : و (إنى لا أحري كيف
يعبرون أن يبلع الفنى ويفصح ويبد الأقران ويرع ، ويبيض في العلم بأرحب
باع ، ويحل منه في القلب اليفاع . وهو لم يدأب ولم يشق ، ولم يطل وقوفه في

الشمس ليطول وقرقه في اطل ، ومن الذي نبأهم أن الإحانة في لمدل
قرية المنان^(١).

وأ كاد حرم أن عرض الشاشيني من كتابه « كلة في اللغة العربية »
هو حث الأدياء على السر في الحصول ، وحص الثبات على لدأق قراءة
التراث العربي ، حتى لا يجهل آخر الزمان أديب مفتون أو شعر مجنون أو
كاتب ضعيف . فبرعم نفسه أديبا أو شعرا ، وهو مهمل الأداة قليل المحصول
عديم المعرفة بالأصول . ويطل المسكين أن المكانة الأدبية تسال بألفاظ
تسود بها الصفحات .

وردا كالت العربية صعبه كما يشهد الذين عدو إلى أعماقها من أبنائها ،
فإن الشاشيني كان يرى (أن الصعوبات في اللغات دليل جبر ودليل سمو)^(٢)
ومن أجل هذا سهر من أجل العربية . وعنى نفسه بها طول حياته ، ونش
— تقريرا — كل كتبها حتى لم يكن يدع عنه كتاب أو يشد عن محضه
ست من الشعر ، أو طريقة من الحديث أو حادثة من التاريخ .

ولا أدل على عناء الشاشيني في سبيل العربية رغبته في تحصيلها ، من أنه
لم يكن يملك من يديه كتاب من كتبها إلا قرأه وحفظ منه وروى عنه .
ولقد ساد ذلك جليا في مجموعة « نقل الأديب » التي كان ينشرها في مجلة
« الرسالة » على قترات تتقارب حيا وتباعد حيب آخر ، حتى بلغ مجموع
ما نشر منها إلى عدد ١٩ بمر سنة ١٩٤٨ (١٩٤٩) نزدة ؛ جمع على طول
المر كله وأخترها من بين مئات من الكتب من أمثال « عيون الأحياء »

(١) « كلة في اللغة العربية » صفحة ٢٢ . مطبعة بيت المقدس .

(٢) انظر السابق من ٢٣ .

و « الحيوان » و شرح نهج البلاغة و « معجم البلدان » و « خاص الخاص »
و « القيمة » و « تاريخ الطبري » و « زهرة الألباء في طبقات الأدباء »
و « الأمانى » و « سيرة ابن هشام » و « البين والتبين » و « نهاية الأرب »
و « محاسن الأدباء » و « النجوم الزاهرة » و « الاقتضاف في شرح أدب
الكتاب » و « ندرج بغداد » و « عيون الألباء في طبقات الأطباء » و « ثمار
القلوب في المصطفى و المصوب » و « فتح أطيب » و « بدائع المسائه »
و « السكنايات » و « وفيات الأعيان » و « الروصتين » و « المنزه اللامع »
ولا يظن ظان أن هذا الاختيار الحاصل من تراث راسخ بالاشتهار
والتواتر والطرائف مطلب يسير أو عمل هين ، ولكنه شيء يدل على
ذوق مختاره أولاً وعلى أهدافه راسخ ثانياً ، وعلى مدى بصره من الانتفاع
به ثالثاً ؛ ولعلها خيرة أية خيرة أن نقف في روضة مرهرة انحصار أطيب
منها شكلاً ولولاً وعرفاً ، ، وقديماً هجر الشاعر عن مثل هذه الخيرة بقوله :
تخير في الرياض فليس يدري أيخى الروض أم يخى لأفاحا

وسكر الشاشي وقف في روضة الأدب العربي والتاريخ العربي الحافل
بأبعده وحكاياته ، ، فلم يتخير في الرياض . ولكن مدته بصيرة عربية وفطرة
عربية وهممة عربية إلى أن يقف أطيب ما في الرياض ؛ وهو في ذلك ليس
مترماً ولا متوقراً ، ولكنه قد يطلع التوقر أحياناً فيروى أطيب الفكاهات
والد شعر المتاع ، حتى يسأل سائل كيف يروى الشاشي في ، نقله ، قولي
سعيد بن حميد :

تمتع من الدنيا هينك فاني وإنك في أيدي الحوادث على

ولا يأتين يوم عليك وليلة فتخو من شرب وعرف قيان
 فإني رأيت الدهر يلعب بالفق ويتقله حائلين تحتظان
 فأما التي تمضي فأحلام نائم وأما التي تبقى لها فأملاني^(١)
 وحتى ليسأل سائل آخر كيف يروى النشاشيبي في نقله، قول حنين
 ابن إسحاق : أنه اتفق له هذه للمظة الوجيزة الشريفة البديعة التي لم
 أسمع للبعاء مثلها في الجمع بين التحسيس والطباق والرصيع مع حسن المعنى
 وجودته وصحته وهي : - قليل الراح صديق الروح وكثيره عدو الجسم^(٢) .
 نعم ! كان لأسعاف النشاشيبي مثل هذه الروايات في نقله ، وكثيراً
 ما كنت أعدها عليه . . . ولما كنت نشر كثير أ من فضائل النفس العريية حتى
 جئ إلى أنه كان يتحدى بها نفوس الناس جميعاً من غير العرب . وكأنه كان
 يعتمد ذلك اعتماداً في نقله ، ولا أدل على ذلك من هذه الملحة التالية : -
 تذكروا يوماً محضرة محمد بن إسماعيل من موت بن نصر في الأندلس
 معنى قول المتنبي :

أيا حدد الله ورد الحدود وقد قدود الحسان القدود
 وقول امرئ القيس :

وإنك قد سمعتني حقيقة فسلي ثياني من ثيابك تسلي
 وقول إبراهيم بن سهل الإسرائيلي :

إني له من دى السفوك معتذر أقول حملته من سفك تعباً
 ففكك بدنها على حدائته . - (بينهم ما بين نفس ملك عربي ، وشاعر عربي

(٣) نقل الأديب : مجلة الرسالة العدد ٢١٥ من ٣٩٩ .

(٤) مجلة الرسالة من ٢٠٢ إلى ٢٩١ .

ونفس يهودى تحت الذمة وإنما تنفس لتفوس بقدر ههنا^(١) وهذه الموازنة الخلقية بين ههنا النفس العربية والنفس اليهودية كانت تظهر في النص من حين إلى حين ، أ فقد نشر في الرسالة سنة ١٩٤٦ عدد ٦٦٧ بعنوان : وأنتم اليهود ، هذه الطرفة الثانية : — (قال الصفي . كان أبو البركات بن ملكا يهودياً وأسلم ، وكان كثيراً ما يعلن اليهود ، قال مرة بحضور ابن التليد : نعم الله اليهود . فقال : نعم وأبساء اليهود ؛ ورجم أبو البركات لذلك وعرف أنه عناء . .)

• • •

أما تعصب اللاشعبي للعربية لغة وجسداً فقد كان يبين دائماً من كلماته وحطبه ومقالاته ؛ فقد كتب كلمة في مجلة الرسالة عن : اللغة العجمية والحروف اللاتينية ، بأعصاب « السيمي »^(٢) حمل فيها حملة من نار على الدعاة للحروف اللاتينية ، ولم يكن في هذه الحلة الثأرية خير زاد على كلام قديم للشيخ إبراهيم اليازجي في مجلة « الضياء »

وقد بانث ههنا الروح القوية في الكلمة التي عنوانها : لسان والعربية ، التي كتبها بمناسبة إعدام رئيس جمهورية لبنان عليه بوسام الاستحقاق المذهب حيث قال (وإيا أمم المسلمين الضادى لعرب ، وإن معناها العربية ، وهي الإرث الذي ورثناه . وإنما لحقيفون ، والآباء هم الآباء واللغة هي تلك اللغة ، أن بقي عربية الجنس وعربية اللغة — نبي العربيتين بما يصيرهما أويوهنهما)^(٣)

(١) مجلة الرب لعدد ٧٩١ من ٢٠٢ .

(٢) الرسالة عدد ٧٣٠ من ١٩٤٧ .

(٣) مجلة الرسالة عدد ٧٣٢ سنة ١٩٤٧ .

ولقد منى المجلس العربى بمحنة اليهود كما منى بهم قبل الإسلام وإبان انتشاره ، فصار العرب لهم وصاروا ورا بطورا لأنهم يؤمنون بأن الله مع الصابرين ، وقد لا أعرف أن للشيشي شترك مع المجاهدين بما لا لأنه لا يمانن بمكرمة . أو اشتراك معهم بسيف لأثر ثلاث علل قاسية قد اصطاحت عليه فهدته فى آخر العهد عدآ . ولكننى أعرف أنه كان يوجه قلبه فى كل مناسبة ، ونسائه فى كل برصة ، وخاصة حين أعلن قرار تقسيم فلسطين . فإذا نقل الأديب ، كله فى شهر ديسمبر سنة ١٩٤٧ يدور حول الجهاد والجلاد والامتنشهاد ، وإذا انبوس العربية الكريمة المجاهدة بطبر فى مثل هذه الرواية الشعرية عن عمرو بن رافقه حيث يقول :

كذبتهم وبيت الله لا تأخذونها
مرغمه مدام للسيف قائم
منى تجميع القلب انكى وصارم
وأنا حيا تجنبك المظلم

وإذا نقل الأديب ، كله فى هذا الأسبوع الثالث من ديسمبر ١٩٤٨ يحمل هذه العناوين ، أمثل ، فى الشجاعة العربية ، وأصيب روجها وأحواها وأبوها ، و الجنة تحت المارقة ، ونحن واقه أهل الحرب ، إلا بحيث ترى المنايا سود ، وعليكم بالجهاد ، عن أصحابكم ذوجوا ، كذبتهم وبيت الله لا تأخذونها ، نسؤهم كرمهم ، ها أنا أراط حتى أموت .

وقد برع للشاشي فى اختيار العناوين لكل فادرة من نوادر الأديب ، ليكون العنوان أدنى على الغرض منها وأبعد إلى القصد إليها . وكان يتخير لعنوان أحيان من انتص نفسه . وترى ذلك واضحاً فى كتابه

« البستان ، الذي جمع فيه — لتلاميذ المدارس — أهر ما في الروضة العربية من ورود .

وكذلك لم يكن توقيفه في عديون ، النقر ، بأقل من توقيفه في اخنوخ
« لنقل ، نفسه .

ولم يكن تعصب النشاشيبي للعربية خفلة منه عما للثقافة الأوروبية من قيم . فقد كان يعرف الفرنسية ويعرف أحسن ما فيها للعقل والعلم والحضارة وكان يرى أن الاكتفاء بما نحن فيه لا يهبطنا — كما أنه لما ماض مجيد — أن يقتعد مفاعس العرب اليوم في المزدحم السحالي ، وكان يرى أن الأخذ بأسباب العلم الصحيح — كما فعل العرب اليوم — هو الطريق الموصل ، لعرب إلى استعادة مجدهم . وكان يمان بذلك في مجالسه وفي كثير مما يكتب حتى كان كتابه القيم — (قلب عربي وعقل أوروبي) الذي يقول فيه — (تلثم مدينة الغرب فاطهر كل ، خير في أن نعرفها ، والشر كل الشر في أن جهل ، وإنما إذا عاديها وهي البائدة الساطية استعلتنا ، وإنما إذا أبداها ونسنا عليها حقرتنا ، وهي مدينة قد عمرت الكرة الأرضية . فنبس ثمة حاصم وإن أوبت إلى المريح) (١) ويقول في موطن آخر (طالعري انسى يكره ، لنا هذه المدينة — يعني العربية — . وثالث علمها ونظامها وفهم . ويسحر من رواذها لا يروم — وحياتكم — أن نحمي في هذا الوجود أو أن نسود . بل يريد أن نبعد أو أن نعود في اناس مثل العميد) (٢) .

(١) قلب عربي وعقل أوروبي . ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٥ .

وقد نظر من يرى تعلق الشاشي بقدم العرب وجنوحه إلى العريب
من الأساليب وميله إلى رواية الأخبار أنه رجل قديم البرهة رحمه الفكرة،
ولكنه - رحمه الله - كان جامع بين القديم والجديد حتى لقد استوى
منه مزاج غريب خاص يجمع بين عربة القلب وعربة العقل . . .
وما أحر جناحي هذه الأقدام إلى قلب عربة في عقول - لافي عقيدات -
أوروبية .

أحسن الله إلى إسعاف الشاشي قدره أحسن إلى العربة لعه وجنسا

أنطون الجليل باشا

١٨٨٧ - ١٩٤٨

فتشت عن مصدر حديث العهد منا أرجع فيه إلى حيلة أنطون الجليل قبل أن دعه لنال الأتم إلى مصر الوداعة، مطهنة المرتفعة الأهرام، فلم أحد إلا سطر أو سطر لا تشق غلة باحث، ولائسد حاجة دارس، وإذا « بمعجم المطبوعات العربية » سر كلس، يقول عنه ولا يزيد: (محرر جريدة البشير ومدرس البيان في كاية القديس يوسف في بيروت ومنشئ مجلة الزهور باقاهرة) وإذا « بتاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين » لمؤلفه الأب لويس شيخو اليسوعي لا يعدو أن يقول عنه في ثلاثة أسطر (محرر البشير والزهور، نشر في بيروت « البحر المتوسط » وفي مصر « أبطال الحرية »، و « مستخات الزهور »، و « السمومل أو وفاء العرب »، و « الاقتصاد والتعليم في المنزل »، و « تعريب كتاب السيدة دوبروك - الفتاة والبيت ») وإذا « بتاريخ الصحافة العربية » للفيكوت فييب طارزي تشير إليه في كلمة واحدة على أنه كان محررا في صحيفه « البشير » اسورية في ذلك الزمان أي في العقد الأول من القرن العشرين.

ومؤرخ الآداب معذور إذا وجد عموصا واضطرابا في نشأة الآداب والشعراء الذين يترجم لهم في عصور بعيدة العهد منا، ولكن أي عذر لما

نحن المحدثين ونحن نترجم لأدباء أعزة علينا قديسين منا . فنروح ، نكشف ،
التقارب من حياتهم الأولى فلا نجد لمراجع تسعيناتنا أو ثمانيناتنا مما نشتهى من
إحاطة بحياتهم ونغزو إلى عمق نشوئهم .

ولو أن الأديب أو الشاعر يترجم لنفسه على طريقة الـ *Autobiography*
عند الغربيين لاصراح المرحومون من كثير مما يلغونه من العنت . وقد صنع
ذلك الشاعر محمد الأسمر حين ترجم لنفسه في مقدمة ديوانه « تفريقات
الصباح » فعرض نفسه كما صلبه الله وكما عرت عليه الحياة ، فأراح بذلك
السائين - بعد عمر مبارك - عن تشبته ومحيطه الذي عاش فيه .

وإذا صح ما ذكر أن أطون الميلى ولد في بيروت سنة ١٨٨٧ فإنه يكون
أصغر من تولوا التحرير ، والبشير ، سنة ١٩٠٨ - أى أنه عهد إليه بتحرير
هذه الصحيفة المعتبرة الميزة وهو في الحادية والعشرين من عمره . ويكون
كذلك أصغر الأستاذة الذين تولوا التدريس في كلية القديس يوسف
بيروت ، لأنه اشتغل بالحديث قبل شغاله بالتحرير . وأطون ما ذكر أنه
نزع إلى مصر سنة ١٩٠٧ يحتاج إلى شيء من التصحيح ، لأنى الثالث من صفحات
صحيفة البشير أنه تولى تحريرها سنة ١٩٠٨ وأن الانقلاب الثماني حدث
في العام نفسه ، فتكون هجرته إلى مصر بعد ذلك التاريخ ، وإلا جزم أنها
كانت في سنة ١٩٠٩ .

ولا شك أن مواهب أطون الأدبية والحقيقية قد ظهرت في أول حياته
وجذبت إليه الأقطار من يقدرون قيم الرجال . ويدل على ذلك اختياره
لتحرير صحيفة البشير ، فقد كانت - كما يقول مؤرخ الصحافة العربية - من
أرق الجرائد التي يركن إلى صحة أخبارها ، وصفاء مبادئها وإخلاص خدمتها

للآداب وانعم والوطن . وكانت من أقدم الصحف الليبانية، أدشأها الات
أمبروسيوس من موناو رئيس الآباء اليسوعيين في سورية سنة ١٨٧٠ وكان
عمرها ديبياً أول الامر، وعبارتها ركيكة كبقية صحف ذلك العهد، وكان
لا يقرؤها إلا جماعة الكاثوليك لأنها لسان حاطم . وقد تولى لأب مسمان
قامم دباستها والادب خيل البدوي تحريرها ١٨٨٢ - ١٨٩٠ طهر تجديد
في عباراتها وتجاهب الادب حتى صارت مقروءة من المسيحيين وغيرهم .
رحلت العادة أن يتولى إدارتها أب من رجال الدين، وتحريرها ناسخ من
رجال الآداب . فإذ رأيت في إدارتها الات أنطون صلتاني والات هنري
لامنس والات لويس معروف . رأيت في تحريرها يوسف المستافى وخليل
البدوي ورشيد أنشوتوني وأنطون الخيس الذي أسلم تحريرها ممد إلى الخوري
بولس طعمه الذي كان من كتاب مجلة المشرق المحققين .

• • •

وكانت هجرة أنطون خليل إلى مصر طلباً للحرية كما نزح إليها كثير من
الأحرار الليبانيين . فوجد فوق نوى مصر السهام التي تتردد فيها أغصان حرية
طليقة من نفود . ومصر كانت - ولا يزال - ملجأ الأحرار ممن نسع
القمعة الكريمة من الأرض لأحلامهم وآمالهم . فانطلق أول نغم له الحرية
في مسرحية صغيرة أسماها ، أبطال الحرية . تولت مطبعة أمعاري بالقاهرة
طبعها على نفقته سنة ١٩٠٩ ، وحملت شعارها العلم الهلالي الواحد
ونجمته الواحدة . وتحت ذلك الباب التي تخضعت عنها الثورة الفرنسية : -
الحرية ، المساواة ، الأخاء . وقد كان أنطون الخيس معجباً بهذا الانقلاب
العثماني الذي كان الدستور يبعثه ، ومعجباً بأبطال هذا الانقلاب وبخاصة

و نازى ، و د انور ، اللذين كانا يطلن مسرحيته .

و المسرحية فى ذاتها صغيرة الحجم بسيطة الحوادث ، ليس فيها ما فى المسرحيات من براعة الحوار وحبكة الحوادث ، ولكن فيها حسن الإنشاء وسودة السبك ، والاعتماد على المنعصر الخطاى . ولكنها على الرغم من بساطة النص المسرحى فيها لقيت ترحيباً كبيراً من الصحافة العربية والتركية والأوروبية ، وأُثبت عليها مجلة «اجتهاد» التركية، وترجمت قسماً كبيراً منها نشرته مع صورة للعقيد العظيم .

وقد تمكن تطلع أنطون لحين من الفرنسية أن رافقت إليه أطراف الصحافة الفرنسية، فاشتهن محرراً فى جريده «البراميد» التى كانت تصدرها دار الأهرام وكان ذلك أول اتصال للعقيد بهذه الجريدة .

ولما كانت الصحافة قد جذبت أنطون أجعل إليها فى جريده « لبشير » بعد اشتغاله بالتدريس ، فأشاجذبه من جديد فى مصر إلى صحيفته «البراميد» ثم جذبه ثالثة إلى إنشاء مجلة أدبية فكانت مجلة « الزهور » التى طهر أول أعينها فى أول شهر «آذار» أو مارس سنة ١٩١٠ . فكان ذلك توافقاً طيباً بين اسمها وبين شهر الربيع الذى تفتحت فيه للحياة .

ولما عمل مرطعاً فى الحكومة المصرية ابتعد عن الميدان الصحفى ، إلا ما كان له من بحث أدنى هنا وهناك . ولكنه حين إلى لصحافة أو هى حنت إليه ، فأسندت إليه رئاسة تحرير «الأهرام» فى سنة ١٩٣٢ . وما زال فيها حتى لجأه الموت فى صباح الثلاثاء ١٣ بذار سنة ١٩٤٨ وهو حائذ من عمله الذى فى فيه . كما تقى الفراشة حول الضوء اللامع ، حين يمرىها بلبية البراق ونوره الوهاج .

و عجيب جدا أن يتولى « الخليل » ثلاثة ألوان من الصحافة، في ثلاثة عهود مختلفة من عمره، فيجيد كل لون ويرز فيه وتبلغ له فيه شئون ، فقد تولى لصحافة الدينية في صحيفة « البشير » اللبنانية ، وتولى الصحافة الأدبية في مجلته الشهرية « الزهور » ، فكانت روضة من رياض الأدب الرفيع العذبة العفيف في ذلك العصر ، وتولى الصحافة السياسية في جريدة « الأهرام » ، فكان فيها سياسياً من الطراز الذي سماه « حسان برث » الشاعر المخضرم بالطراز الأول

• • •

لقد صدق القول المشهور « كل ميسر ما خلق له » ، ومكلف الإنسان ما ليس من طبعه متقلب جذرة الدار في مفيض من الماء . فقد أراد (الخليل) أو أريد له أن يكون « معسلاً » أول الأمر ، ولكنه لم يفيض في الشوط إلى نهاية ، ولم يجر في هذا الممدان إلى غاية . وقد أراد « الحجاج بن يوسف » قبله أن يكون معسلاً ، فأراده الأقدار أن يكون حاكماً من طراز شديد . وأراد « حناط إبراهيم » أن يكون صابطاً في الجش ، فأرادته الأقدار أن لا يمس في الممدان إلى آخره ، وجعلته صاحب لسان لا رب سنان . ولم تكن الصحافة عند « الخليل » سياسة لحسب ، أو أعلأ الورقة الزائفة في ميدان يكثر فيه اللعب « الأوراق والأصطفاني بالأوراق » في الأسراق ، ولكن الروح الأدبية كانت تمشي معه في الصحافة جنباً إلى جنب فهو أديب مشرق المباشرة وأصبح الفكرة حسن العرض ، أعانتته على مهنته الصحافية سليقة أدبية وثروة مدحوره ، من لهر الأساليب العربية التي تعرض الحقائق في ثوب يحكم المنسج رقيق الخاشية .

وما أشبه « الخليل » في صحافة بملاح مهتر يعرف كيف يختر بسميته

عاب بحر مضطرب لحي، بعشاه موج من هوفه موج، فهو يدأور الزبح .
وبدأور المرح، ويمتال على هذا مرة وعلى ذلك أخرى، ولا يفقد اتزانة في
وسط العاصفة حتى تر بسلام . ولهذا لم يعرف بتجرب ولم يرم بتعصب ،
بل كان يفتت الحرية مقدماً شديداً، ويرى أنها مهد ما نحن فيه من الاء
واضطراب . وكان يرى الحرية قيماً للحرية . وقد أشار إلى ذلك في مقدمته
التي كتبها لديوان الشاعر « ولي الدين يكن » حيث يقول : (كنت أود أن ألم
بليدور السياسي الذي عبه العقيد في الأستاذة ومصر ، ولكي أحنى أن أقع
مرغماً في الحب القاشي بالناس . وهو أن تقسموا موتاهم حسب أحزاب
أحيائهم . هي أن أقول إنه كان حرأ في سياسته، كما كان حرأ في كتابته)

• • •

والحديث عن مقدمة « أطوار الخيل » لديوان الشاعر ولي الدين يكن،
يسوقنا إلى الحديث عن ناحية أدبية عند هذا الأديب الكبير . فقد اشتهر
بوضع من المقدمات كتبها وقدم بها بين يدي جماعة من الشعراء والكتاب
فكتب مقدمة تحليلية لولي الدين يكن، في أوّل ديوانه الذي طبع بطبعة
« المقتطف والمقطم » سنة ١٩٣٤ ، وكتب مقدمة لديوان الشاعر « إسماعيل
صبري باشا » الذي صبع لجنة التأليف والترجمة ونشر سنة ١٩٣٨ وهذه
المقدمة هي الكلمة التحسيلة التي ألقاها في تأبين الشاعر سنة ١٩٦٣ . وكتب
مقدمة لديوان « شاعر البري » الذي عنوانه « بين أحضان الطبيعة » والذي
طبع سنة ١٩٤٣ . وكتب مقدمة لديوان الشاعر « محمد الأسمر » الذي عنوانه
« تغريد الصباح » والذي شرته « دار المعرف للطباعة والنشر » سنة ١٩٤٦
وكتب مقدمة لكتاب « ما قل ودل » للكاتب أحمد الصاوي محمد . وهي

كثرة دفعت بعض الكتاب إلى تسمية النقد ، بكاتب مقدمات الكتب ، وما كان عبثاً أن يتولى الخمين تقديم الأدباء أو زماهم من زماهم فقد عرف بالنصمة في الرأي والاعتدال في الحكم، والوقفة في النقد إلى حد لا يخرج المنقود ولا يعنف عليه . ولكنه قد رقيق رقيق ، ولا أنسى أنه كان يأخذ على السهولة في عمل الشعر ويحذرنى منها : لأن السهولة في العذب ، نزلة إلى الأخطاء ، كما كتب - رحمه الله - في مقدمته لديوانى . وهذا نقد رقيق ثم بعضه بن حنظلته يدا أعنته ، الجميل .

واسمع بقده لرفيق لبعض ألعاط الشعر : الأسمر ، في مقدمته لديوانه ، أما إذا تزعت عالم الأحلام والأمانى وعت إلى عالم الخفافق المنجوده . فإنه لا ينزع عن اقتناص الفظة الواقعية ؛ وإن كان الشعراء قد تواضعوا على بهز من لغة الشعر . ثم يش لذلك بقول الأسمر في ديوانه :

واضحوا الأرسا لستم (حسرا) واطرحوا الذين فلستم (تقرا)
أليست هذه النعومة أو الـ Finesse ، هي أهم خصائص الأدب الناقد الذى لا يتخذ النقد هراوة غليظة يعصر بها رؤوس المنقودين ، فيفر الناس منه ومن نقده الثقيل الشديد كلل صاص والجذب ؟ ؟

ولم يكن دأطون الجميل ، كاتب أدباً لحسب ، ولكنه كان حطياً عرفته منابر الأدب في القاهرة في كثير من المناسبات وما عرفته برجل الكلام على المنبر أو يقوله على البديهة ، كما يفعل الخطباء المرحلون . ولكنه كان يعد كلامه إعداداً ويلقيه من فوق أعواد المنبر ، لإلقاء فصيحاً دسبب بيننا في تودة وأناة ، حتى يستطيع سامعه أن يتابعه فلا يمين . وما كان أبرعه وهو

يفضل الفكاهة الخلوة في خطابه فيثير في السامعين حاصفة من الضحك ويشبع
فيهم حوا من المرح

ألقى مرة حديثاً أو محاضرة في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية، يوم
١٦ أبريل سنة ١٩٣٦ عنوانه «صانع الجريدة»، فجمع عن الصحافة وأوعى
ولكنه كان يرس الفكاهة من حين إلى حين، فذكر من أنباء «المطبع أو
التصنيف في الطباعة أن عبارة «تجديد شباب الفضاء» قد حرق العن
إلى «تجديد شباب الفضاء»

وكان يتحدر في خطبه ومحاضراته أطرف الماسات مما توحى به بسية
حاضرة أو حاضر سمع . خطب مرة في ناين ألتاير إسماعيل صوري ناشا
وكان احفل في ليلة من ليال النام للقم، فابتدأ الكلام قائلاً . - (إذا
رأيتنا القمر ساطعاً في كبد السماء كما نراه في هذه الليلة — لا نسأل
من أين أشرف على الدنيا . .) وحاضر مرة في الجمعية الجغرافية عن
الصحافة فقال عن الصحفيين الجواين المتعدين أنهم يصرون في كل جهة من
المدينة، وفي كل مدينة من القطار . وما أشد ما تنطبق عليهم الآية السكرية
لمقولة أمامكم في صدر هذه القاعة « هو الذي جعل لكم الأرض دلولاً
فامشوا في منكبها » . وقد لفت نظر هذه الآية منقوشة على حدار القاعة
فامتثلها لموضع محاضراته .

كان « الجبل » كثير التدقيق لما يكتب كثير التدقيق فيها يطبع وكان
يحدثني أنه يود أن يرى الكتاب الذي خالها من أخطاء الطبع . وقد أخذ
نفسه بهذا حين أصدر مجلة « الزهور » سنة ١٩١٠ . وهي المجلة العربية التي
كاد ينعدم فيها الخطأ للطبعي . وتماكبها في ذلك مجلة « الفضاء » للملاحة

الشيخ إبراهيم البازي . وقد ظهرت هذه الدقة في كثير من نواحيه . فقد كان دقيقاً في مجلس الشيوخ حينما كان مقرراً للجنة المالية ، وكان دقيقاً في التعبير حين يعالج مسألة سياسية في الأهرام ، وكان دقيقاً حين يستشهد بأشعر . فيتحرى أصح الروايات فيه ويسميه إلى قائله نسب صحيحاً مهما كلفه ذلك من عناء في البحث عن قائله . ولا أظن النوفيق ضاه في نسبة شعر إلى شاعر إلا مرة واحدة في المقدمة التي كتبها لديوانه « ولي الدين بك » ، فقد نسب بيتين إلى « ابن الرومي » وعما من شعر « ميار الديلمي » ، في قصيدته البائية التي يقول فيها :

لا تغضالي نسب يخلفني أنا من يرميك عند النسب

. . .

ولا أعرف من أنطون « الخليل » أنه نظم شعراً أو حاول أن ينظمه . ولكنه كان في مجموعه قصيدة شعرية منسوقة النظم . وإذا كان الوزن في القصيدة العربية ركناً من أركانها . فقد كانت حياة « الخليل » مترنة في كل نواحيها ، فاعرف عنه إسراف في شيء أو ماسة في أمر . . . اتزن في الأدب فكان أديباً وناقداً خطيراً الرأي ، واتزن في السياسة فكان رجلاً معتدلاً يحبه رجال الأحزاب وقد فرح كل حزب بهم بمالديه . . . واتزن في علاقاته مع الناس فأحبه الكبير والصغير . ولا أعرف أنه أسرف في شيء إلا حين أسرف على نفسه بالعمل حتى بات شخصته . فكان مستجيباً لدعوة « يوسف كورناد » الكاتب الإنجليزي حين قال « اعمل حتى تموت » . Do ordie . ومن عجب أنه لم يقل الشعر على حين نبغ فيه ثلاثة من رفاقه في عهد السلطنة بستان وهم « شيلي ملاط » و « بشارة الخوري » و « الأنطون

الصغير ، والمرحوم ، ودبح عفن ، اذ ين معنى آثارهم عن أن خبرهم
على أن جلده من الرفاق قد أخرج جملة من الأدباء هم : مسعود
درويش ، و إبراهيم المدر ، و شكرى لقر داحي ، و إبراهيم سيم
التجار ، و يوسف البستان .

ولكن هؤلاء الرفاق تم قرا و مشيت بهم مراكب الأرض أو مشوا
في مراكبها ، فدعت أسباب الحياة ، أطوار الخيل ، إلى مصر ، و أخره
الموت في ثراها .

ومن كانت متيقنه بأرض فليس يموت في أرض سواها

أعلام من الغرب

القارئ السري

عاجز أمره في هيكल الطبيعة .

هنري دافيد ثورو

كاتب الطبيعة والعزلة والاحساس

١٨١٧ — ١٨٦٢

في مارس سنة ١٨٤٥ حينما قرص هنري دافيد ثورو فأساساً من صدقة
الأديب الأمريكي الثابة « ألكوت » واخترق الغابة إلى غدير (ولسن)
كان يسعى إلى تحقيق أمل طالما صبت نفسه في تحقيقه .

وكانت ذكرياته الأولى ترجع دائماً إلى هذه البقعة ، التي تبعد ملاح
النزيرة المتواضعة التي وبغيتها ، لأنه يذكر وهو صغير أن جدته حتملته
وطووت به في تلك الغابة . فودلو أنهاحت له الأيام أن تكون تلك الغابة
المأدبة مستقراً له ومقاماً .

وكبر الصبي ، وساقه الشوق القديم للحلح إلى الغابة . ودعاه الهوى إلى
المدير — ضيق والدن — فأنخذ يتردد عليه صائداً ، أو ساجداً في الصيف
ليبرد يمانه لرقراق حرارة جسمه أو مرفق في لشتمة على جلده المنجمد .
ولقد فتن جمال الغدير وهدوء الغابة وعن لثها قلب الكاتب ، فكان يحتضن إليهما
من حين إلى حين . وما زال كذلك حتى عمقت كثرة التردد ألفة بيته وبين
هذه البقعة الجميلة من الأرض فحبب إليه أنقام فيها فأقام . .

في جامعة هارفارد ، التقى ثورو بشباب يدرس الأدب القديم ، وقد

احترامه كوخا على صفاف عدير هادى . لعل عزلة المكان تعينه على المضى
فى دراسته ، فود و ثورو ، لو أسيح له أن يجد مكاناً مثل هذا المكان تظمن
إليه نفسه . وفى ذلك كتبت إليه دس مارجرىت فلر سنة ١٨٤١ قائلة : —
(أود أن أخبرنى عما إذا كنت على عدتك من التردد إلى ذلك الكوخ
المنفرد ؟ لعلك تكتب إلى عر . شاكسبير ، وهل كنت تفرزد فى ذلك
الهدوء الجين ؟)

ليس هذا الكوخ المنفرد هو الذى قضى الكاتب فيه أيام عزله ،
ولما هو أول كوخ اتخذته فراراً من القربة المضطربة المخلط هواؤه
بأهاس البشر ، استعداداً سكoxide الأخير فى « وادين »

ولده هنرى دايد ثورو فى كوكوررد من مدن أمريكا الشمالية
سنة ١٨١٧ ، فى بيت متواضع . من أب اتخذ صناعة أقلام الرصاص مر دأ
لعيشه ، ومن أم مريحة طروب اسمها وستيا . وبعد إتمام الدراسة الثانوية
دخل جامعة هارفارد ، فلم يكن فيها نبيها ولا داتها ، وإنما كان فيها عالياً فى
عمار الطلاب ، فأكتفى بالحصول على درجتها الجامعية . ودخل ميدان الحياة
العملية صانعاً للأقلام مرة ، ومعها مرة أخرى ، وصاحب جريدة أخرى
وكان فى صناعة التعليم زميلاً لشقيقه وحبيبته « جون » فى إحدى
مدارس كوكوررد . وفى صيف سنة ١٨٢٩ بنى هو وأخوه جون قارباً .
وقاما رحلة نهريه أسمرت عن أول كتبه الأدبية : — (أسبوع على نهرى
كوكوررد ؛ وميريك) .

لقد كانت صدقة ثورو الأولى — بعد تركه للجمعة — مع شاب نابه
من قريته اسمه « رالف أمرسون » ، فكان الود بينهما وثيقاً طويلاً الأمد .

و نقد بلع من ثور و أهله بينهما أنعش ثورو في بيت صاحبه ثلاث سنوات ،
يساعد ، في تسيق الحديقة ويدير معه شئون البيت . وكان ثورو يصنع
الأفلام ويبنى الأسوار ويمسح الأرض . ولا يبلى العمل لحقير مادم
شريفًا ، وظل كذلك حتى فاجأ جسرته وأهله قرينته — وهم غيبوب
لا يسبحون في سموات الخيل — فمراره إلى نهاية للعيش هناك وحيداً منفرداً
في كوخ متواضع حقير .

لم يسطح بثور و معه إلى الغابة إلا بدنه الصالح وعقله الأرجح
وبغسه الحديثة ، كما ظن وطى الحرم على أن يستمتع بالعبادة إلى حد بعيد . .
وكانت نظيره شبيهة بصفته واستواء ركبته أكبر عون له على العيش في
الغابات . فهو ابن ثمن وعشرين قصير يد ، مليء نشاطاً وحيوية .

ولقد وصف بقله شبيه الأول في آخر أيامه فقال : (لقد كانت حياتي
متاعاً ، في الشباب قبل أن تهد الأبدم أحاسيسي مستطيع أن أدكر أنى كنت
متوقداً للحس مشبوب العاطفة ، ولقد كانت متاعب الشباب وتكاييف حوة
إلى كراغائب ولدائه) وقال : (ليس البوغ إلا توهو الحبة واكتفاء العافية
حيى نستطيع أن ندرك الحمل في كل شيء ، حتى في هذه الحبات من التوت
نطعمها ، وفي خوار البقر حينما يردد أصداؤه الجبل اهادىء لوقور قبل
حلول المساء . وحيث التدى المتأرجح بمطر السيم ، وهناك قوة لا تزول
وصداه هادىء ، يخيل إلى المرء معها أن هذا الصباح المشرق دائم إلى الأبد ،
كل منظر أو حسوت ، وكل أريج أو طعم ، يسكر الإنسان بخمر الصحة
والعافية)

كل ثورو حاد الحواس لأنه استعملها في الأحساس بجمل هذا العالم .

وقد فويت حاسة السمع فيه حتى أصبح يميز بين الأرهاف في ظلمة الليل البهيم
بروائعها لا بأشكالها . . وكان يذوق الأشياء التي يعتقد الناس خطرا في
تذوقها . . وما ضعفت عينه عن طوب اختلاف لسين وتظارل العمر لم
تضعف فيه قوة الإبصار . . وكان حديقته « إمرسون » يدنو عيته
« بالعين المجردة » .

أما الصوت فكان له تأثير عميق في نفسه ، فهو مفرح إذا سمع نباح
الكلاب أو حوار البقر أو مرور الريح على الشجر ، وهو يطارب إذا سمع
أسلاك البرق ترن ردد ، أو أصغى إلى السحوض يظن طبنا وكثرا ما له
له أن يستمع إلى صوت واحدة من خشاش الأرض

هذه الأصوات المخيفة كانت تجعله ينهي الليل قائما مستمعاً ، أو كما
يقول هو عن نفسه : (معمورا في أمواج صوت المتلاطمة) .

وكان يقول : (أيا أحمد الله على أصوات . الصوت دائما بصعد ، ويجهلي
دنيا في صعود .) ويقول (قد كانت حياتي بلا مس منقطعة لا اتصال بها
ولا عمق في مقامها . ومنذ الساعة التي أذهقت فيها سمعي عادت لي حرقى .
وانسابي شعور روحاني) .

ولا تنس حاميته اللبس فقد كانت قوية فيه . وكان يقول ، يذوق كله
يستطيع أن يلبس . (ولقد عود يديه العمل فكان نجارا ونا . وهلاحا
ومسحاحا وعاملا في مصنع . وكان في كل ذلك جيدا كان يستطيع أن يصنع
قاربا أو يقيم سورا أو يبنى بيتا أو يرفع مدحمة ، أو يزرع حقلا أو يصنع
قبلا . . وكان ذلك سبيله إلى كسب عيشه وإقامة صله .

وحلق المني إلى العزلة في هس نورو ميلا إلى الاسفح بالنجارب ،

وأناحت له أياها في كونكورد وهارفارد أن يوسع معارفه في الأدب الكلاسيكي ، وأن يكتب بحجة وشغف بأبداع ما أخرجه الأدب الإنجليزي على مر السنين .

ولم يكن مع ذلك متوقفاً الدكاء ولا مكبا على الدرس وإنما هي طريقة هادئة تمهدها ووصفها إلى ما يريد . وأضاف إلى حبه للأدب الإنجليزي حباً آخر فأعزم بالكتب المقدمة ، ولا سيما كتب العهد ، ووجد لذة في مطالعة تاريخ أمريكا وخطوط مدينتها وخاصة مدن New England الجديدة ، واهتم بقراءة أخبار المستعمرين الأولين .

وكيف يقامى العزلة أو يتجنب مرارة الوحدة من أمثالات حرواة قلته بهذا التراث الفكري العظيم ؟

كان ثورو الطفل يجد سرور نفسه في الأدهار والطيور والحيوان ولأشجار والجبال والغدير والحقول فلما كبر تحول ذلك كله إلى عاطفة شعرية لأزمنة طول حصاته

اسمعه يقول ، (أيتها الصبغة العالية ! كم أتذكر الآن - بعد سنين قصير - عات الصوبر ، إنني أتذكر عليك ، كما يتهاك الخناثع على كسرة من الخبز) .

وكانما أحست هوام لأرض وبعات الطير يعطفه عليها . فاطمأنت إليه .. لقد كانت الطير تحط على كتفيه ، والسماك يجرى بين أنامله وبمس راحته . والروحف تنب حول رجله ، والجرد يدور حوله كأنما يداعبه في طمثنان . وما أجمل رضاه بأن يعيش عيشاً أسادجاً بين هؤلاء الأصدقاء المتواضعين . كان ثورو رجالة عظيماً لا يدانيه عظماء الزمانيين . ولكن رحلته كما

قال هو لم تتجاوز أرض قريته كونكورد ، فهو لم يركب بحراً ، ولم ينشر قلاعاً ، ولكنه مع ذلك عرف لذة المخاطرة وذات سلامة الاستكشاف والمعامرة . إنه استكشف كونكورد قريته الصغيرة ، ركب بحراً بعيدة المدى مجهولة النواطيء عميقة الأغوار ، ورجع إلى الميناء محملاً بمجائب الكثير . . . إنه ذاق اللذة التي دافها حرسنوفر كويكب وريانه حينما دفعهم الأمواج العربية إلى أرض نائية بعيدة . . إنه أحس بما أحس به المستكشفون الذين وقموا صمتين على قمة في « دريان » يشظرون بعين الدهشة والعجب إلى هظمة المحيط الهادئ . .

لم يكن ثورود مخاطراً خصب بل كان ثائراً ، « ناز على الكنيسة وأبى أن يدفع لها صريتها . . إنه ناز على الحكومة وأبى أن يدفع لها ضرائبها . . » وخير أثار على المجتمع لأنه وجد في أرواحهم أنفاسه رثمة تكراهية والنفور . ولم سجدوا في ثورته الجاحجة رآه في السجن صديقه ديمرسون ، وقال له : لماذا أنت هنا ؟ فكان رده عليه : ولماذا أنت ليست هنا ؟ وكأنه يقول لصاحبه « قديم : في مثل هذا الوقت وفي مثل هذا الطرف يكون السجن الأحرار من الرجال . .

والآن يصل الحديث عن قرية كونكورد التي ولد فيها ثورود ، فها كانت وحتى يومه لأول ، والنظر الذي تهتجت على جماله عيناه الطفلتان .

في حرب الملك فيليب لم يستطع المبرد أن يتغلبوا على هذه القرية مع أنهم أحرقوا جاراتها الصغيرة ، وتقول حرافة نازحة من رئيس اليهود أطل على القرية من حصبة مجلورة ثم قال : « لن نستطيع أن نغيب هذه القرية الفاتنة ، إنها محبوبة الروح العظيم . »

ولا تمتاز هذه القرية بمسجد أو مسجد حتى جددتها الأيصر الناصع لم
يسلم من الحصى الأغر في طياته النقية الظاهرة . . وإنما تمتاز بحاياتها
وحشايشها وحدودها المند وفي ظل هذا الهدوء نشأ «أمرسون» وثوروه
ولقد كان أمرسون صديقاً كامناً وأساسه ورفيقه في الحياة يرتاح إلى هذا
الهدوء ، الذى لا يقطعه إلا لآخرير الحاد وخور الأقدار وأعاد إنشاء ونبهة
نسيم . وكان يقول : (إن هذه الأيام اجاثمة تحت ظن هذه الأشجار
يبدو لي كأنها سابعة في بحار من الأفكار العظيمة)

وفي هذه القرية أيضاً يقول مسير بروكس Brooks مؤرخ الأدب
لأمريكي : - (كاتب هذه القرية مدرسة لدراسة الطبيعة البشرية يستطيع
لمره أن يتعلم فيها شتى أنواع المهن بالتمحدث إلى صانعها أو بدها . وقد
تجمع فيها تاريخ بشرية وتكرار . حتى لنرى العالم مصغراً في أحد أركانها
لنواصحه ، نعم ! يبدو فيها العلم الكبير مصغراً بما فيه ومستقبله)

نشأ الصديقان أمرسون وثورو كزهرتين نديتين في حوض واحد .
وكانت إحدى الزهرتين أكبر من أختها وأشد صبراً . وكانت الثانية هدهد
رائحة وأسطع ريجاً . وكان ما بينهما من مسافة يأذن للنسيم بالمرور على
كل واحدة في طلاقة وحرية . .

كان ثورو مثل أمرسون يخرج إلى العامة كل يوم ومعه ورقه يدون
فيها مشاهدته ومرائه . ومعه عيته الجبهرية يشاهدها أو أياً شئ من حضرات
الأرض وموامين ولم يكن ينظر إلى الطبيعة فحسب بل كان ينظر فيها ،
ويرى حلالها ويسأشف في إدراك ووعي كل ما وراءها . .

إنه كان يحب الرادى وهو معمور في بحار لضباب الكشيف ، حيث تبدو

فيه الأشجار كأنها السمن في غمر المحيط وما كان أحب أنظر إلى نفسه
وهو يتسقط كأنه سبل لهم ، وصاحينا واقف تحت شجرة ينظر إلى
أوراقها المتناثرة في نال تحت قدميه ، أريد حصص لحافها المنتشر
وكانت غدران والسن walden كما يصغها هو بقية (نوردا) على سطح
الأرض . ولو قدر ما أن تجمد وتصل لحات — كالأحجار السكرية —
إلى الأباطرة ليرى رده وسهم . وبكس سيرتها وكثرها جعلها قبة القيمة (
هذا هو هنري دافيد ثورو الأمريكي ، هنتي إليه الكاتبة الأمريكية
إيلين ميلر Evelyn Miller يوم أن القبا في هنري القبر والنوار هرنسا ، في
مدينة تور سنة ١٩٣٤ . سمعت في صوتها صوت الطبيعة الخبير .

يحل على الدنيا معه مرقبه

جايمس رسل لويل

١٨١٨ - ١٨٩١

لم تحتل أمريكا من بزوع شمس القرب التاسع عشر مكاناً دقيعاً في علم
الأدب العالمي فقد كانت قبل ذلك طفلة في الوجود، لا ماضى يتصل به
حاضرهما، ولا قدیم يرجع إليه حديثاً. ولما شنت عن الطوف وكادت تسوى
على قدميها شعاعها حروب استقلالها.

ولم يجوز أحد في تلك الأيام أن يثنى على شاعر أمريكي أو يقدر
مواهبه. ولئن شمرنا كثيرين ظهوروا في هذه الفترة، إلا أنهم كانوا
مغمورين كشعراء ما قبل العصر الجاهلي في الأدب العربي. حتى جاءت مجلة
(أدنبرة) الأمريكية فتكففت بتقديم الشعراء والكتّاب الناشئين إلى قرائها.

ولعل أغنى مقاطعات الولايات المتحدة بالكتّاب والشعراء الطبيعيين هي
مقاطعة ولايات إنجلترا الجديدة. فهناك على الصخور الرملية ولاية دهاشير
الجديدة، وعلى شاطئ نهر «ميريماك» الخمين كانت الحياة زاخرة بأحر
التممة. وكانت تتجاور في أجواء هذه الولاية أصدااء مبعثة، ترسبها
أجراس المصانع وجلات المعامل المشيدة حديثاً، وكانت الجلبة تردد
كل يوم تبعاً لزيادة حركة التعمير والبناء.

وسرعان ما تهتت في سماء هذه المنطقة أريج الكماش وتراحت

في الأرواح المعضة لقرى والمدائن . وأخذت هذه الأرواح لثمة سبيلها في الحياة الجديدة للعالم الجديد بسرعة ونماء

ومن عجب أنه بجانب هذه الحركة الحادية الصناعية النازغة لم تظهر حركة عقلية تسارها وتغادها . هنا النهر الخمين للفن بمأظرة ساحرة . ولكن ليس هناك على شاطئيه شاعر . .

وهناك الغابة السكيفة أو الخفية ، ولكن ليس بين أعصامها المتعاقبة عين ناظرة متأسفة .

وهناك أجناس متباينة من الخلق ولكن ليس فيهم مؤرج يقصر تاريخهم أو يسجل حياتهم .

وكان أصوات هذه الموصاء العاجية ، والجلدة الصالحة ، والمشاعص الحادية حركت عص العقول من سباتها ، ونهتها إلى مجال الهدوء في ظل الأدب ، وإلى مدعة لسكون الخلق في حوض العلم . فانتشرت المدارس وظهرت أحرار . لأنه لا يستطاع لهذه الجماعة المتدفقة في تيار المادة ، أن تعيش بغير مدارس تأوى إليها فئات أكبادها . ولا يعبر صحف يبدل التراث العسكري بينها . فامتثلت مدر « بوستون » و « كامبريدج » ، بمدارس انجوي Grammar School . وكانت هذه المدارس على تقن راجعها وقدم طرئق التعليم فيها وقسوة مدرسينها . صاحبة العصر الأولى في تعبئة الروح الأدبية بهذه المقاطعة

وتناهت السنين ، واحتلته الجديدة تسمى في سبل النهضة العلمية الأدبية بحظي سرع . ولم يزرع القرن التاسع عشر حتى كان فيها جمعة من الرياضيين والعلماء أمثال « يوسف مستوري » و « وليام برسكوت » و « بكرنج »

المستشرق المروى ، والنسوى الذى جاد عشرين لغة ، ما من شرقية وغربية
و « بلودتش » أليانتي .

وأخذت شهرة « المجترة الجديدة » New English ترتفع بسرعة عجيبة
في عالم الأدب ، وأقامت لها الأقدار السعيدة أن يجتمع فيها في النصف الأول
من القرن التاسع عشر جماعة من أعلام الأدب الأمريكى ، وسواها وشبوا
ونشأت بينهم وشائج وثيقة ، ووضعوها الثروة الأولى في كثر أمريكا الأدب
كما وضع الجاهلون بزوه الأولى في كثر الأدب العربى . وأصبح هؤلاء
الأدباء نجومها ساطعة في سماء الأدب العالمى ، يقرأ لهم ويحفظ عنهم ، ويعد
بهم وفرصه على العالم . وكان لأمن قريب معضبان أدب أمريكا -
أن يستمع إلى إلهام شعرائها ووحى كتباتها ، وإنسج أدباتها . وعلى رأس
هذه الجمعية الأدبية العالمية المتميزة « لويج فيو » ، « أمرسون » و « هنرى
دافيد ثورو » و « دانا » الاس ، و « جايمس رسل لويل » و « إسكوت »

o o o

وسدئنا هنا عن جايمس رسل لويل . وقد ازدهر في قرن مع « هنرى
ثورو » ، لأنهما شرعا من نوع من الطبيعة واحد . فهما ابتداء التعرف في بحرهما
البحرى ، ارتشفان من حلاوة حرهما . وإذا كان « ثورو » قد حرج إلى عابدة
« والدن » وإلى غديرها ، وعاش فيها أكثر من عامين بعيداً عن لباس ،
مؤتمسا إلى طهرها السائح . وسمكها السائح ، وعطرها الفائح . فإن « لويل »
اتخذ من مسالك غرقه هذا لفته مرقسا ، بطن منه على حديقة مجاورة يلاحظ
أشجارها ، ويراقب أطيافها ، ويدون أحبارها وآثارها
دشاً « لويل » في كامريدج الأمريكية ، وهي مهد كثير من الأدباء . فكان

أنكى شيائها وأكثرهم توقد دهن ، وحضورهم . وعند أدرك هو نفسه
هذا الدكان قد أحله شيء من الروع والغرور . وكاتب يران الفتنة لا تتصل به
يشه وبين أترابه إلا أنه شديداً من نفسه روح الكاهن فيه كان بلطف حرارة
هذه التأثير .

ولقد بدأت طلوع نوره الأدنى تظهر في صباه ، فهو يبان إلى الكتب
هم إلى قراءتها ، وهو يحب للأزهار ما تم بها ، وهو يصف إلى ذلك ملاحظ
السرور البادية على وجهه ، حينما تراء بقرا أو تسبحه يتكلم أو تشاهده يدس به
ولكن شيئاً من كس الشهوة لا يراه . فهو يستطيع أن يستلحق على ظهوره
أياماً طويلة ، عارفاً في أحلام لا انتهاء لها . أو سائماً في ديون من لشعره
وطالما عاودته بوبات عربية كان يقبض فيها عن حمته ويذهب إلى عالم بعيد .
وهو كان أكثر هذه النوبات حينما يتفتح شهر يراى في أمريكا الشمالية عن
عاصفة من أرهاق الصيف و « لويل » يشبه « داما » الابن في معجونة
هذه البويات

• • •

هناك في منزل ربيع كبير فناء « لويل » . وهو منزل يعرض على عيوض
وأصدة ، حقول متراصة ، مصممة في القصير راحة طشم الذي يقطعه « لويل »
هو بشأ به بين أضراب أصده . وكانت عنته دمس ملوى لويل ، نقر أله في
الحقل أسمعار ، شكس ، فيام على أوراها كأنها تراهم الطفولة عند المساء .
وكانت هذه الحمة أدمة صبعة . هي تجيد اثني عشرة لغة ، أصبحت لآلها
مؤسراً لغة الحجر وبوندة .

ولقد سعدت الظروف مجتمعة على نفضة « لويل » نفضة أدبية ، فعمته

كما عرفت أدبية لغوية . وأبوه قارى بهمهم ، يملك مكتبة تزرع نفائس الكتب ؛
وعشبات ، كما يريدج ، من أثواب «لويل» ولداته اشتهروا بذوق أدبي خاص ؛
والطبعة من حوله ساحبة جميلة حتى في ساعات عروبها . والطروف كلها
مروانية . فلم لا يقرأ ؟ ولم لا يفهم ما يقرأ ويستوعبه ؟ ولم لا يعلق تعليقات
فطنة واعية على كتاب هذا أو ديوان ذاك ؟ وفوق هذا كله فإن الطبيعة أمامه
كتاب مفتوح . فلم لا يقب طرفه بها ليستوعب ما في ذلك السر العظيم ؟
وهذه خزانة أبيه عامرة بالكتب . فأيوم لأفلاطون ، وهذا لأرسطو
و بعد غد لسنكا الحكيم . وكانت طلاقة لسانه في اللاتنية لا تغل عنها في
الإنجليزية . فإذا بدأ الكلام لم تنبه أنفاسه ولم يحتبس لسانه . وكان دقيق
المنظرة كما كان دقيق الفكرة . وكذلك شأن شعراء الطبيعة وأدبائها . فما
مرت حادثة في حديقته إلا سجلها وعلق عليها ، واتمس لها عند العلم ولعمق
تأويلها وتفسيرها . ولا قامت معركة بين صائرين إلا شاهد حوادثها وعرف
تفصيلها . ولا حظ غراب لبشر إلا عذكم من المرات بل ريشه ونفص
جسمه ، وكل من المرات ألقى منقاره . وكان أبوه يأخذه إلى مخزن النمل
يرقب القيور المهاجرة قبل أن تشد رحالها وتزعم رحيلها . وكان لا يزال
أن يقف الساعات الصوف يستمع إلى تعريده من طائر إلى أليفه . ولم
يسل أيضاً أن سهر الليل كله يسمع طائر الكوكو وهو يعنى ، كما تدق الساعة
السويسرية

ومن شباه غرفته المطلة على الحديقة ، نعم من ذلك الشباك العتيق دى
الطراز الأول كتب «لويل» كتابه « من شبك غرفة مطاعنى » . وكان أول
فصول الكتاب وصف بديع المعارف وأصدقائه في الحديقة ، ومن غير

طيور الحديقة أول بهدافة ولوين ، وبمرفته الوثيقة ٢٢
فقد وصفها وهي تحتل حبات التوت أو تلتقط حبات « الفراولة » .
ووصفها وهي تحصد حباته وتطير جماعة ، كما أنها بحجرة إنسانية منظمة .
ووصف جماعة منها وهي تغنى . (كمعاد النار حول النار في غير المسحاح
ولا تساق .)

وليس الكتاب كله صورة للطبيعة أو وصفاً للحديقة . وفيه فصول تدور
فيها ترجمة للذين قرأ لهم أو عرف أحدهم . هناك فصل تمتع عن « أبراهام
السكرتون » وآخر عن « جيمس ريسنيل » وثالث عن « هري دافيد ثورو »
معاصره . ورابع عن « تشرسبر » الإنجليزي ، وخامس عن « هوب » . فهو نوع
من كتب النقد الأدبي تخلت فيه مواهب « لويل » و « بيراته » لأدبية رسة
اطلاعه ووفرة قراءته

ولقد تلمذ « لويل » على « أمرسون » وتأدب بأدبه ، وكثيراً ما ذهب
إلى « بورتون » يسمع محاضرة منه أو يثير مناقشة معه ؛ وكثيراً ما أحده
« أمرسون » إلى « صحور الشاطئ » يقطعان الطريق في حديث طويل ؛
ولقد أعجب التلميذ بمحبته وأحبه واستشهد بكثير من عباراته . وكان أحبها
إليه قول « أمرسون » : - « أن عرفة العمل قد غطيت جذراتها وحوائلها
بكتابة غير مستتينة ولا واضحة ، فإذا شئت أن تجعلها واضحة للقراءة فاستعن
بلب شجرة . ١)

فما أن « لويل » كل دكياً ، ولكن هذا الذكاء الحارق لم يقعه به عن
العمل والنشاط ، فكان دوماً كالنحلة - إلا في ساعات كسله السعري -
صبراً على الجهد المتصل والعمل المستمر ، وكان فيه ميل إلى القديم ، ولم

يكن مبللاً إلى الجرد أو المرجعية . وإيمانهم ميل إلى الاعتزاز به ، حتى والاعتداد
بالتراث . . نظر أرمته قديم ، ومقاعده عميقة الطراز ، وهو يحس دائماً إلى
القديم من وده ، والأول من صداقته ، ويؤثره دائماً على الصريف .

ولكن «لويل» كان متناقضاً في طوأمه . وقد حبر تناقضه هذا كل
من انفس به فهو حار القلب تارة وبارده أخرى وهو صوفي في بعض
أشعاره وله أئذنى في بعضها . وهو يعطيك الحلاوة من طرف لسانه إذا
لقيته . وإذا غمت معك راح كما يروح الشعب كان غربياً في مفاشيه
وشحوا . انه . فهو حريص دائماً على أن يكسب اموالاً ولو كان محسراً
حريص على أن يكون الظاهر في حومة الجدل ولو لم يكنه . وقد يتدن من
حركات يديه ووجهه ما يعينه على هذا الظفر المحلوب وإذا انتصر على خصم
اتسم بتسامية ماكرة ، ثم اعتذر عما بدا منه في أثناء الجدل بأنه صبيح لاوب
مرة في حياته ! ولم يكن «لويل» «لويج فيسلو» انشاعر معرفة حتى
سنة ١٨٤٦ ، فقد قرأ كل منهما لصاحبه ولكنهما لم يتلاقيا ، وفي ذلك العام
جمعت لاثني عشرة غرفة واحدة هي غرفة «لويل» المعبودة . وبالطبع دارت
بينهما لأحاديث وعال الكلام ، وكانت حركة مسبح الرقيق موصوع الحديث ؛
ولما تعجب إذا تحمس «لويل» بمنع هذه الرذيلة الإنسانية فالدم لدموقراطي
يجري في شريته وأوردته وروجه الشابة «ماريا هوايت» شاعرة رقيقة
الحس مرهفة المشهور حرة الفكر ، وهي فوق ديث تبيدة «مارجريت فولر»
إحدى حرائر أمريكا وأصار الحرية فيها

هذا هو «لويل» الكاتب ، أما «لويل» الشاعر فقد أجاد أنواع الشعر
كلها . فن أعاب وأهزج ول ملاحم وله دواوين — لولا حشنة الأطالة —

ننقل أسماءها هنا . ولكنها في مستطاع من يريد الحصول عليها .

وكان شعره يمتاز بالثقل ، ورائي والسوق الموسيقي ، والمهارة التكوينية أو
إجادة الرصف . ولا يقل في شاعريته عن « تنسون » أو « هرد » أو غيرهما .
ولكن شهرة هؤلاء غطت على شهرته . ففقدوا في يد الشعر بشروط
بعيد . ولعل مما طوح بشهرته في الشعر أنه كان مقبلاً مسعاً ولم يكن أصيلاً
متدعاً . حتى لقد سماه بعضهم « شاعر الضلال » . إشارة إلى أنه في أغلب
أشعاره ظل لمن قرأ لهم .

ولا يسمى الشهرة التي نالها معاصره اشخاصاً لامرئيكى الشهير « لويخ فيلو » ،
فقد كانت عاملاً من عوامل إخفاء كل من ظهر من الشعراء في وقته . وفي
هذا المعنى يقول الشاعر العربي :

في صلصة الشمس من ذا يبصر القمر ؟ ؟

أديب في غمار المناضات

إدجار والاس

١٨٧٥ - ١٩٣٣

من قصصياً لم يصادفه بعد الصيت وديوع الاسم كما صدق إدجار
والاس ، فإنه بعد بحق أغرب الطواهر الأدبية في العصر الحديث .

لقد كان في يده قلم تنصب منه القصص الشائقة أصبأ . ويندفع القس
القصصي تماقاً . وتتكاثر المقالات ، ونشر المسرحيات القصيرة ، ويتراعى
إلى فرائه العديدين فيص و سمع من فنه الصحن الذى برع فيه البراعة كلها
ورفق إليه التوفيق كله . وكان هذا الميص العريض لا ينقطع ، بل يزيد على
الأيام ، ويقوى مع تقدم السنين .

وليس عجيباً أن يحق إدجار والاس هذه العنون الكتابية وأن
يحدد فيها اسماً اهرده . فقد كانت كتابته تمار بطابع من السهولة تجرى في
غير عنف . ولذلك وفق في تحرير الأخبار ، وإشياء القصص المسية ،
ولعامرات ولماجات ، وهى ألوان من الكتابة لا تحتاج إلا إلى حيا
خصيب ، ولا تحتاج إلى عبقرية عارقة .

ويظهر أن هناك شها غريباً بين حيا إدجار السرف وبين طبيعته
المسرفة . فاعرف عنه في حياته أنه ادخر قرشاً أو اقصدانقاً أو احتوت
له خزنة مالا . بل كان على غاية من السرف والتذير . وكانت مصارفه فوق

مراده . ولهذا عاش مدينا ومات غارقاً في الدين . على الرغم مما أغل له
فته من إيراد ، وما جتبه له قلبه من مكسب عريض .

كان بخامر وبفامر ، وبهوى ويلعب . يبعثر بالشباب ما جمع بائسين . فلم
يحسب للثقة حساباً ، ولم يبال من لزمان صداً أو أعراضاً ، بل كان يعيش
للساعة التي هو فيها ولم يفكر في لحظة واحدة من وراء الغيب الذي يتعبنا
جميعاً بالتفكير فيه والاستعداد له . وكان كل ما يقض عليه مضجعه ويطليل
عديه ليله تفكيره في نجاحه الأدنى الذي كان يرجوه لنفسه .

وقد بدأ أسرافه ولاس جنيماً في كل شيء تناوله . فهو مسرف في الخيال
إذا خال . ومسرف في الفكر إذا فكر ، ومسرف في المال إذا أنفق . وزاد
عليه جميعاً أسرافه في اكتساب القراء ، فقد كان قصارى الأدب في مطلع
القرن العشرين أن يكسب بضعة الألوف من القراء . ولكن إدجار والاس
طمع في اكتساب الملايين منهم ، وفاز أخيراً بالتزاع الثناء من ألسنتهم
والإعجاب من نفوسهم . والتزاع الثناء من الناس ليس مطلباً ، سيراً
ولا مراداً هيئاً .

ولد هذا العبقري لقيطاً في قرية جرينتش ، الإنجليزية ، ولم يعرف
له أب ينتسب إليه أو ولد يحنو عليه . ولكن أمه (جولي ريتشاردز) كانت
مثلة من الدرك الأسفل أفلت أمام هينيه جوانب الحيلة ، واعتمدت على
راتب ضئيل من أحد مسارج لندن .

واحتسنت الأم طفنها على ذراعيها الواهنتين ، ونصت به إلى كتيبة
كاثوليكية لتتصيره ، وأخفت سم والده الحقيقي لدى لا يعرف سره
أحد غيرها .

وأتيح لهذا الطفل اللقيط الشقي امرأة طيبة القلب ، فكفمت بإرضاعه والقيام عليه ، وكان حب هذه المرأة للأطفال وغرامها بهم وعطفها عليهم ، لا يقل عن حب زوجها الفقير «فريمان» ، الذي كان يكسب قوته اليومي من حمل الاممك على ظهره ، ولتنقل بها في أسواق البيع والشراء وبين جدران منزل متواضع نشأ الطفل بشاة متواضعة ، إلا أنه كان محروطاً من «فريمان» كأحد أبنائه ، يلعب معهم ، ويذهب إلى المدرسة الأولية كما يذهبون ، ويتكلم اللهجة المتدنية كما يتكلمون .

و«ستطاعت مسر» «فريمان» أن تجد لها الطفل الجديد — بعد أن يسبح الحلم — عملاً في إحدى المطابع . وما زال يشتغل من معالجة إلى أخرى فترات قصيرة متقطعة حتى أماحت له مصادفة جديدة أن يعمل في البحار طاهياً أو ملاحاً أو خادماً لرئيس الملاحين .

ويظهر أن هذه التجربة الجديدة أنصبت شيال الفتي وفتحت أمامه آفاقاً واسعة من التفكير . وفي الحق أنه لم يكن ملاحاً ماهراً ولا طاهياً جيداً ، ولكنه كان دائماً يرتو إلى لافق البعيد من فوق السفينة ، كما أنه يستطيع اللعب أو يستشف ما وراء النهم فلم يحسن الملاحة ، ولم يجد الطهي . فعضب عليه رئيسه وسخط عليه الملاحون زملاؤه . لأن صغاره لم يكن سائماً عندهم ولا شامياً لديهم .

ولقد نمت عليه الاقدار مرة في بحر الشمال والسفينة تخرق العباب . إذا بالموج يضطرب ويعلو ويفعل ، وإذا بالريح تعصف ويسمع لها زفير ، كناد جهنم تكاد تمس من الغيظ ، وإذا بالجو يرد فتصطك الأسبان ويرد الدم ويكاد القلب يقف ، وتكاد النفس تهرق ، فيصاب السلام بالهدام

ولكنه يتصور ويتجدد ، ويبدى الشامتين من رملاته اسطارة أنه لرب
الدهر لا يتصعصع ...

عاف الغلام هذه الحياة المرة القاسية ولم يستطع على الحار صبرا ،
فأنسل إلى لندن محتفيا في عربة توزع الحزن ، وصادته المدينة الكبيرة
الصاحبة فلم يجد من يعطف عليه فيها ، ولا من يرويه ، ولا من يطعمه من
من جوع . وكان ينأى إلى ستيمة في إحدى موافيه لندن ، أو جدار في أحد
محارنها . وعاش أسابيع طويلة لم يطعم فيها إلا الماء القراح واحب القماز ..
ولم يلبس ثمانية عشرة بعد أن طال عليه الهجوع في الشتاء والاسلام
إلى الاحلام . فلم يبق إلا على القعر يحيط به ، والبؤس يهدده ، وأدرك
أنه صار عرسا للأحداث ومرى للأقارب ، وأحس في قرارة نفسه أنه
يستطيع أن يعبر مجرى الأمور لو نقص عن نفسه القيل ، وأراح عن قلبه
العشواء ، وفتح عليه على المحرفة .

وكما أضمن الخط في الإساءة إلى والاس راد هو محاولة مع الاقتدار
ومصاولة لها ، في يس ولا جوع ، بل طرق كل باب ، وولج كل مدخل
وفتته الخندية فتطوع لصبح سنوت على الرغم من نوس من فرملا
والخاحبا عليه ودموعها الكثيرة التي كانت ترسلها قطرة أثر قطرة .

ويظهر أن الحياة العسكرية قد وافقت صاحبنا ووجدت محلا في نفسه .
فقد وجد في الصعاب ملاءمة ومناسبة . . . ووجد في العمل المستمر راحة
قلبه . . . واحتحال حسده الناحل العلب إلى جسم ملفوف المعطل
مكتنر اللحم .

وفي « ألدرشوت » تلك المدينة العسكرية المعروفة عالميا العسكرية

ومدارسها العسكرية استطاع ، والاس ، أن يحتل المسافة إلى لندن كل يوم اختلاسا .

وفتنته منه مرة لندن العريقة ، سارحها وملاهيها ونواحيها ومن قصباتها ومشاربها .. وليلها الذي تحيه ألوف من الناس في الشراب والصحاب ..

وكان يميل دائماً إلى استماع الأغاني ، والمخاورات والروايات القصيرة المضحكة في ملاهي لندن . وكان يحفظها لأول مرة ، ويغني بها ، ويرددها على زملائه في المعسكر ، فيحبون لها ويستزيدونه منها ، وهو يحسن الأداء ويتقن النقل فطارت شهرته بين الجنود والصباط ، وأعراه هذا النجاح بأن يصطنع هو حواراً أو يؤلف غناء أو يقش قصة فرادت شهرته بين زملائه .

والشهرة دائماً تخرى بالشهرة ، فراد طمع الشاب فيها — وهو كما أسفنا معامر مسرف في كل شيء — فألف للفتى الشير ، آرثر روبرتس ، أغنيته وأرسلها إليه فتقبلها هذا فيه لاجسناً وغناها في مسارح لندن .

ولا حظ عمله الضباط انصرافاً عن الجندية وروحها ، وميل إلى حياة اللهو التي لا تلتزم أبطال الدفاع ، وحبها في الفرار إلى لندن كل ليلة لسباع أغانيه ... فضيفوا عليه كل سعة . وأوصدوا أمامه كل باب . ولم يأتوا له بمبارحة المعسكر .

وصاق الشاب ذرعاً بهذه المعاملة التي اعتبرها إهانة لفنه وكبحها لحيته فانسل في إحدى الليالي ومعه بعض المال المدخر إلى لندن . وكان هذا المال بدأ يتجمع في يديه ثماً لأغانيه التي يبيع للمضيق على اختلاف درجاتهم . وعلم رؤسائه بالاسلالة ، وصوروا عمله في أشنع صورة يجرها لهم

قانون الجنسية، وحكموا عليه بالسجن أياً ما في العمل الشاق، ولكن طبيب
المسكر كان فيه زرع إلى الشعر وميل إلى الألب. فابتسم للجندي المسجون،
وحياه قضية التفتير والإعجاب فقعا الرساء، وأسدل على هذا الحادث
ستار من النسيان.

وتوالت بعض الشهور، وتزقق لإدجار والامس، إن صف أعلى
ورقة أرق وحصل على (مريض) زيت دراعه القوية، وجاء في النشره
الرسمية أنه انتقل عارياً في حنوك أفريقية، وكانت تعي بها مراحيل ثورة
يرشك أن يكون لها ضرام...

لمرح الشاب لأنه وجد في الحرب بحالا لإظهار ما يظنه موهبة
عسكرية وأحب رؤية تلك الحياة الجديدة على ما فيها من أخطار جسام
وأهول عظام... إلا أن أمه خب حياء علم أنهم عيوه في مستشفى
«سيمونس تون»، ماذا يصنع هناك في مستشفى يفسد إليه المرضى
والمشهور والضعفاء. إنه لن يكون له عمل هناك غير توسيع الأخذية
على المرضى، والاحتفاظ بالمعدة الصحية تحت يده؛ وذلك عمل
لا يستحق عناء الرحلة الطويلة في البحار الجنوبية.

ودع صاحبنا لندن، وودع معها الحرية البريطانية، وودع مع ذلك
كله يومى بؤسه وسعادته. فقد كان له في لندن — كما لكل إنسان في
العالم — يومان من معاده يختلف عديها للنفس، ورؤس تختلف عليه السعادة.
وركب البحر هذه المرة. إلا أنه لم يكن عاراً ولا طامعاً كما طوحت
به الأقدار مرة في بحر الشمال. ولكنه كان جندياً. كان جندياً حرمه
شرف الأول في الميدان، وأرادره أن يبرل في مستشفى. هناك يقوم على

مخارنه ومرصاه... وفي هذا المستشفى أعدت غرفة للتهديب والدين ولوعط... وقام عليها القس «وليام كالدبيكوت».

وستطاع إدجار ولاس أن يجد في مكتبة هذه الغرفة تسلياً لنفسه. فكان يقضي معظم أماسيه الطائفة على حفيف ورقاب الكتب تعبت بها أصابعه..

وم يكن والاس يحسن اختيار الكتب لمطالعاته. لأنه حديث عهد بالأدب، ولأنه كان حاطب ليل. لا يميز السرو من الصنصاف، ولا الحطب من القصب، إلا أنه وجد في السيدة (ماريون كالدبيكوت) روح القس هادياً له يصوره بكل سمير من الأدب، ويدله على اللب، ويريح عن عينه القشور. وكان في هذه السيدة ذكاء نادر، وكان به ولوع بالأدب وشغف بالمعرفة.

ولما عرفت أن والاس شاعر وأنه ينظم بعض الأغانى أمالت أذهنها إلى شعره، وأصغت إلى أناشيده وشجعت بكلماتها الساحرة على المزيد.

وعاش والاس في جنوبي أفريقية وفي بيت القس كالدبيكوت عيشة فتحت أمام عينيه آمالاً واسعة في الأدب. فقرأ كثيراً وسفاد كثيراً. وقد وجد في عطف السيدة زوج القس مشجعاً له على القراءة وسافراً على مودة الاطلاع، راحوا أن هذا الأديب الشعبي المحبوب مدين لهذه السيدة بكثير مما انتفع به في قراءاته الأولى.

وكان للقس بنت رزق جمالا. ووهين معرفه، وأوتيت خطأ لا بأس به من انعلم وأحب (والاس) إحداهن «إيني»... أحب فيها الخجل والخش، وأحب فيها السذاجة التي لا حد لها، وكانت تصنى إلى كل ما يقرأ

من آثاره ، ويزيده لحظاً ، نظراً كلما زاد تلاوة . . وقد غلب الحب فأمدت
بأدب والاس ، وبالعز في تقدير مواهبه . وخاصة عندما يحج في أن
يتقاضي ثمناً لما ينشره في صحف جنوبي أفريقية .

وأخذ والاس يمشي إلى طريق الشهرة وهو شائك ، فلا يزال بم
يعرضه ، وزادت شهرته حينما نشرت له صحيفة «الليمس» ، الأفرقية شعراً
يحيى به شاعر الإمبراطورية العظيم «ديارد كيلنج» بمناسبة زيارته . وقد
دهش النقاد لبراعة القصيدة ، ورد من دهشهم أنها صادرة من جندي
سفير في جيش الإمبراطورية . . . ومن هذه الملحظة بدأت العلاقات بين والاس
وبين شاعر الإمبراطورية . وكما ، لمست هذه التحية الشعرية مواطن التقدير
وهو فان الجليل من قلب كيلنج ، فأثنى على والاس في حفل سافل أقيم
لوداع الشاعر . إلا أنه يصححه بعدم احترام الأدب . (لأن الأدب يحجب
أن يؤخذ خلية لزوجته)

ولكن هذه الصيحة من شاعر الإمبراطورية لم تصاعف من أذن
والاس سمياً ، على الرغم من كان فيه من إخلاص الشاعر وحسن نيته .
واستمر والاس على عقيدة منه قوية بأن المستقبل بعد له شيئاً ، ورجى له
أمراً ؛ وأن «الكثافة» وحدها هي التي ستصل به إلى أقيام هذا المستقبل
المشود والامل السعيد . وظل يفضي كل يوم بأحلام هذا المستقبل إلى كل
من اتصل به أو تحدث إليه ، من النواب والمحررين وأساتذة المدارس . .

وفي مايو سنة ١٨٩٩ استطاع والاس أن يخلص نفسه من قيود الجندية ،
وعاش بعد الخلاص مديناً حراً في بيت القس «كالدبيكوت» الذي وافق
على خطبته لابنته «ليني» . وفي أكتوبر من السنة نفسها جيماً أعلنت حرب

البويرى جنوى أفريقيا احتير والاس مراسلا حربياً لشركة « ووتر »
الإخبارية . وهنا أحس أن طلائع أحمه المنشود قد بدأت تتحقق . .

والحق أن النجاح يتبعه النجاح ؛ وما يزال المقلب مقبلاً ما لم يعثر . . .
وكذلك كان والاس . فاستمر سخط في الإقبال عليه والابسام له هذه
المررة ؛ وطارت شهرته فغير مراسلا لجريدة « الديلي مابل » اللندنية بجانب
عمله في « ووتر » . وأخذ ينفى نفسه . . عندما تنتهى الحرب — بالعودة إلى
المجلة الطبع المختار من شعره .

ولم تطل الأيام حتى عاد الغريب إلى أرضه ، ولكنها كانت عودة
اليأس المنكوب ، فقد ماتت مس « غريمان » التي ربه في لندن صغيراً ،
واحتضنته في الساعة التي لم يجد فيها حصن أحمه . ولم ينتشر ديون شعره —
كما كان يرجو لنفسه — على الرغم مما بدله فيه من هناية وما أساحه به
من كبرياء . . .

لا أن الله شاء أن يعوض عنه ما خسر ، فقد قابله المستر مارلو رئيس
تحرير « الديلي مابل » وعرض عليه أن يعود إلى جنوى أفريقيا مراسلا
للمصحفة ما دامت الحرب لم تنجح بعد أوزارها .

وباد والاس إلى مدينة الكاث ، وتزوج « ليفي كالدبيكوت » ابنة القس . .
وعاشا معاً في صاحبة من صواحي المدينة في منزل صغير مؤثث ، وكذلك
كانت حياته موزعة بين هدوء البيت وصعب المرافق العسكرى .

ولقد كان لما يكتبه والاس وما يبرق به إلى لندن قصة إخبارية خاصة
رفعت إلى لرئيس لأول من المراسلين وعقدت له مكاناً علياً . إلا أن
وزارة الداخلية اللندنية لم تعجبها صراحة هذه لأخبار التي كان يدلق عليها

العدو مضيق على المراسلين جيماً ولكن والاس بنى على لزم من ذلك كله مصداً موقوفاً به لاختيار حرب البوير فاقسمت آفاق شهرته . ولما عاد السلام إلى جنوبي أفريقية عين والاس رئيساً لتحرير جريدة النيل ميل الأفريقية ثم رب قدوه ألبا جنبه في العام . ولم تلغ مسه حينذاك الساعة والمشرين .

وهكذا استقرت به الأقدار من حال إلى حال ، فمات عيشه الأمراء ، وملا قصره بالزوار من الخدم . وكان يرقاد حليات السباق ويتفق عن سعة . وما فكر لخطوة واحدة في شيا به لمرمه ، ولا اقتصاد من غناه لفقره . وعاد إلى لندن هذه المرة والأقدار مابسة والنديا ساحرة . فاشتعل محرراً عادياً في دليل مايل المندية . ولكنه روحه ظلت محفظة بقوتها وحسبها كما كان يفعل دائماً في الحسب العظيم . .

وهنا في لندن أوفى مزدحم الطريق ومفترق السبل عثرت عليه أمه التي طوحت به — بعد حطية أخطأها — في كنيسة صغيرة وهو طفل صغير وكان والاس دائماً ينكر أمومتها له . وهب يقسو والاس على أمه ، ولا يسمع لها حطيتها ، ولا ينسى لها عاد إثمها على الرغم لما ألح عليها من طول العمر وسوء التصير . . .

وهنا لا يرحم التقدر والاس ولا يسمع له هذه القساسة . فقد كان أوفى به أن يرق لها في آخر أيامها ومعدود حطياتها . وكان أوفى أن يكون بجانبها حينما لفظت أنفاسها في مستشفى (راندفورد) وهي تحمل مثله محطمة في فرق من فرق لندن الخيلية المتنفقة

ولم يكن والاس يحاسب نفسه على موقفه هذا من أمه حتى عودته

المهموم وثقلت عليه وطأتها ، وكأنه كان دائماً في خصام عيف مع صهره وعاطفته .

وأحد ينمو فيه وخر الضمير وعذب الماطفة وألم الإحساس لأنه صن على أمه انشغية السائبة في ساعات نزوحها بكلمات العفرون . . . ولأنه لقيها في لئس أحسن لقاء ، ولأنه قد عليها — لخطيئتها — فدهبت من هذا العالم الشقي تحمس بينها خطأ البشر وقصص الإنسان ، بل حيث تجد في ساحة الرحمن التمسحة الصفح والغفران . . .

وعند اللحظة ثانية يتسم للكاتب . . وجاءت الدنيا مقبلة عليه ، ونعى أمه الدنيئة . وضاعت مع ذرات جسمها الأمام ذكرياتها الشقية في نفسه . وعمل محرراً في أكثر من صحيفة ، واتجه مكنتاته إلى القصة ، وساعدته أسفاره المتعددة وحلاته إلى أفريقيا وبحرها وغاباتها وأنهاها ، عن أن يكون قصصه بلون راء بديع الصور جيم المشاهد .

كان الاضطراب والتناقض يمزجان دائماً حياة هذا الأديب المعاصر فهو في التحرير اليوم كما كان في الجندية بالأمس لم يحفل بقانون ، ولم يسأل بمعرف ولم يحصع لما تواضع عليه الناس ، فهو يحب أن يجيش ، ولو تعرض لنقد الناس وصار هذا لكلامهم .

وهو في حياته الزوجية كذلك متناقض مضطرب . . عل الرغم من إخلاص زوجته له . وغنائها في حبه وقيمتها على راحته غرام يتجدد الفتاة « دايزي » صديقة له . . . ويستر ذلك بأنه يدعوها صديقة الأسرة . . . ويتخذ الفتاة « ميوليت » زوجة له ، كاتبه له ، وهن في الحق خلية ، ولم تزل هذه الحالة حتى اتعدها زوجة له بعد زوجته الأولى « ميقي » .

وفي الحق أن زوجته أيقن ، وأنه القوم الذين وجهوه إلى الأدب في مسهل حياته لم تكن راضية عن سلوكه الأسير . وقد لاحظت عليه ، سراً في الملاء والنداء نحو السموات . وحاولت - وهي امرأة قسيس - أن تكبح قليلاً من شهواته الجامحة وحاولت كذلك - وهي مثال الزوجية الصالحة - أن تصرفه عن حياة الإباحة والفوضى ، والسير والمقامرة فلما استعصى عليها العلاج وعمر لدوام ورأت أن المقام معه شاق لا يطاق طلبت الطلاق . فافصل ، كان بين الزوجين من رباط . . . كان والاس كما أسما القول مسرفاً في ماله كما كان مسرفاً في حياته . لقد تحقق له الحلم الذي كان يحلم به ، ووصل إلى الشهرة التي كان يطمح فيها . أما إسراره في ماله فيبدو جلياً في كثير من وجوه إهماله . فهو - إذا استعنى - يبحث المال من غير حساب . وهو إذا انتشر حارق في الدين ... وينفق بسخاء من سعة إهماله أنه كان يدفع كل شهر مائة جنيه ثناً لمجاذاته التليفونية العادية .

ولقد أغرم عواهنات الخيل وسباقها ، وقتي منها الجياد الصافيات . وبلغ عددها في سنة ١٩٣٠ وحداً وعشرين جواداً ، كان ينفق عليها مرتبة من بجه ستار star . وكان هذا المربح يبلغ ثلاثة آلاف من الجنيهات كل عام وأغرم بالمال في يديه ، لا يجمعه بل ليوزعه ، وقد ساه عوامه هذا إلى محاولة كثير من المعامرات ، فقد عامر في جنوبي أفريقيا ، وعامر في الكونغو . وعامر من قبل وهو جدي صغير في إحدى طرق سندن العسكرية وقد دعى إلى هوليد والمرضى بلح عليه ، والإغياض بلب في جسمه ، فلم يردد في قبول هذا العرض البجيل المغري ، لأنه كان دائماً كثير المطامع

كثير المغامرات ، إلا أن هذه المدينة الجميلة المرسحة الصاخبة لم تستطع أن تجذبه إليها أكثر من شهر .

وراد المرض عليه إلحاحاً ، وظهر إلى جانب مرض السكر . مرض صندري عثيف ، فلم يستطع مواصلة العمل هناك ، وأعلنت صحافة أمريكا في حروف كبيرة ولوحات عريضة مرض الكاتب المسرحي الشعبي المحبوب . وعادوا به إلى إنجلترا — مسقط رأسه — على ظهر الباخرة وهو على سرير المرض الخطير . وكان يصحبه في هذه الرحلة صديقه والتر هاستون .

وأغصن ولاس عيبيه إغماضة كانت إغماضه الأبدي ، وبام النومة الأخيرة ، وقد تناثر على سرير كليل من الأرحام قدمها ركاب الباخرة . ولفوه في علم البحار الإنجليزي وأرحوا على جسده فضل دائه ، ونثروا حوله الأزهار . .

ورحلت الباخرة إلى ميناء دوتشامبتون ، الإنجليزي وقد سكبت عليها حدادا ، وردت عليها أعلام البحر حدادا بحداد . . .

ودقت أجراس لندن الحزينة معبة في صليلها الجدير ، حقوت صوت الكاتب القصص العاس الكبير . .

المصادر والموارد

ترجم الكتاب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
أمين فكري باشا	الأنار الفكرية . طبع بولاق سنة ١٣١٥
الأب لويس شيخو اليسوعي	الأدب العربي في القرن التاسع عشر بيروت
محمد حسن نائل لمصني	أدب اللغة العربية . المطبعة الحسينية
أمين فكري باشا	إرشاد الألب إلى محاسن أوروبا . المقتطف
ت. آدمز ، و ترجمة عباس محمود	الإسلام والتجديد في مصر . الاعتماد . مصر
حسن السليوي	أعيان البيان . القاهرة سنة ١٩١٤
الأمير عمر طرسون	البعثات المصرية في عهد محمد علي . صلاح الدين
جورجي زيدان	تاريخ أدب اللغة العربية . الهلال من ١٩٢٦
السيد رشيد رضا	تاريخ الأستاذ الإمام . المنار سنة ١٣٣٤ هـ
أحمد عورت عبد الكريم	تاريخ التعليم في عصر محمد علي . الاعتماد . مصر
عبد الرحمن الجبري	تاريخ الجبري . طبع بولاق . سنة ١٢٩٧ هـ
عبد الرحمن الرافعي بك	تاريخ الحركة القومية . القاهرة سنة ١٩٣٠
الكونت فيليب طرازي	تاريخ الصحافة العربية . بيروت سنة ١٩١٣
جائيس هري برسند	تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح العارضي
رفاعة رافع الصبغاوي	تلخيص ، لايريز إلى تلخيص باريز . بولاق
أحمد تيمور باشا	تراجم أعيان القرن الثالث عشر . القاهرة
جورجي زيدان	تراجم مشاهير الشرق . الهلال . سنة ١٩١٠
أمين سامي باشا	التعليم في مصر . مطبعة المعارف من ١٩١٧

اسم المؤلف	اسم الكتاب
علي مبارك باشا الميد عن الدرويش	الخطط التوفيقية . بولاق سنة ١٣٠٦ هـ ديوان الأشعار بحمد الأشعار . مصر ديوان السيد علي أبي النصر . بولاق س. ١٣٠٠ هـ ديوان محمد شهاب الدين . مصر س ١٢٧٧ هـ ديوان محمود سامي البارودي . دار الكتب ديوان محمود صفوت الساعاتي . المعارف
إدور حنين محمد عبد الغني حسن عبد الرحمن الراعي لك أبن بشر الحنبلي عباس محمود العقاد	شوقي على المسرح . بيروت سنة ١٩٢٦ عبد الله فكرى . عصره وحياته وأدبه عصر إسماعيل القاهرة سنة ١٩٣٢ عنوان المجد في تاريخ نجد . بغداد سنة ١٩١١ قبر في الميران . مطبعة الحلة الجديدة القاهرة الكتاب السهي للمحاكم الأهلية س ١٩٣٧ كنز الرغائب في منتخب الجوائب الجوائب كنز الجوهر في تاريخ الأهرام . هندية لمحة في تاريخ الأهرام . القاهرة سنة ١٩٣٦ مجلات الثقافة ، والرسالة ، والكتاب والهفت مطبوع ، والحديث بحلب مجلة الجمع العلمي العربي . مجلد ٤ مرآة العصر . المطبعة العمومية سنة ١٨٩٧ معجم المطبوعات العربية . سنة ١٩٢٨
إلياس زخوة يوسف أليان سركيس	

فهرس هجائي

بأعلام هذا الكتاب

عندنا وادب التبريدية، وادب ابن، وادب آت، رائدة على العلم، فيبحث عن
أبي الصيب مبتلا في حرف الطاء، وادب الساعات في حرف السين، وهكذا

أحمد النابا — الشيخ ١٢٠	أبراهيم لنكون: ١٧٧
الازبكوي: ٢٠٠	أبراهيم باشا: ١٩، ٢٨، ٥٧، ٦٢، ٧٧
تيمور باشا: ٣، ٣١، ٦٨، ٦٩	الباشا — الشيخ: ١٣٠
٨٠، ٧٢، ٧١	أدم باشا: ١٠، ١٥، ٢١، ٢٨
أحمد حسن الرشيدى: ١٣	أبراهيم إغدى باشا: ٥٩
حسين المرصق: ٨٠، ٧٢	الجمان: ١٢٢
حشمت باشا: ١١٢، ١٠٩	رأيت بك: ٢٥
الزين: ٢٧٠	السقا: ٤٤
السجاعي: ٧٢	سلام السجار: ٦٢
الهابب: ١٠٨	بن سهل: ١٤٨
شرف الدين المرصق: ٧٤، ٧١	عبد القادر المنزقي: ١٠٥
شفيق المرصق: ٧١	١٠٦
شوق بك: ١٦، ٩٥، ٩٦	أبراهيم مرعوق: ٤١، ٥٧
٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣	المسور: ١٦٣
١٠٣، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١٤٥	مناظر: ١٤٥
أحمد الصائم: ٢٢، ٢٨	اليازجي: ٨٣، ٨٥، ٨٦
الصادق محمد: ١٥٨	٩٠، ٩٢، ٩٨، ١١٩، ١٦١
عبد الوهاب أبو العر: ١٠٦	أبراهيم يكنى باشا: ٢٠
فلوس شدياق: ٣٨، ٣٩، ٥٢	أبراهيم الملك: ٩٩، ١٠٠
٦٧، ٨٢، ٨٦، ٨٧	أحمد بك: ١٠
أحمد أبو الفرج الدمهورى: ٩٣	
فدوى: ٧٤	

أمر وسوس موني : ١٥٥
 أمرون : ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩
 ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٧
 امرؤ القيس : ١٤٨
 أمين الرصاص : ١٤٥
 د. سامي باش : ١٥٠ ، ٧٤
 د. فكري باشا : ٣٥ ، ٣٦ ، ٨١
 أنطون الخليل باشا : ١٠٦ ، ١٥٣ ،
 ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩
 ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢
 أنطون صالحاني . ١٥٥
 أنور - القائد التركي : ١٥٦
 أوفاروف ، ٣٠
 أيفلين ميلر ١٧١
 إيلي كالدنيكوت . ١٨٦ ، ١٨٧ ،
 ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١

ب

برستد : ٩٩ ، ١٠٠
 أبو البركات بن ملكا : ١٤٩
 برودشو : ٤
 بروكمان . ٣٦
 بروكس : ١٧٠
 دكتور بررب : ٣٣
 البستاني - سميان ١٣٠
 بشاره الخوري : ١٦١
 دن بشر الخنبي : ٤٥
 طرس بكنتو ، ٤

أحمد محمد شكري : ١١٧
 د. المنيرة . ٦٠
 د. ندي بنت : ٧٤
 إيجار والاس ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
 ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
 ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١
 إدوار حنين . ٩٧ ، ١٠٧
 أدب إسحاق : ٧٩
 أرسين باشا ٩
 أردشير ، ١٠١
 أرسطو . ١٧٦
 أسطفان بك ٩
 أسكندر الثاني - القيص : ٣٤
 إسماعيل باشا - خنديز : ١٤ ، ٤٥ ،
 ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ،
 ٧٩ ، ٧٩ ، ٩٣
 إسماعيل آدم . ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩
 ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٥
 إسماعيل الخشب . ٤١ ، ٥٦ ، ٥٧ ،
 ٥٨
 إسماعيل صبري باشا : ١٦ ، ٢٧ ،
 ١٥٨ ، ١٦٠
 إسماعيل الفلكني باشا : ٧٤ ، ٧٨
 الأعمش : ١٨
 أفلاميون : ١٧٦
 إلكوت : ١٦٤ ، ١٧٤
 إلياس رحووة : ٣ ، ١٠ ،
 أمازيي : ٩٩ ، ١٠٠

ج

- جالير دو بك : ۷۸
جايس برسان : ۱۷۷
جايس رس لويل : ۱۷۴، ۱۷۵، ۱۷۶
۱۷۵، ۱۷۶، ۱۷۷، ۱۷۸
جر بجر باف : ۳۰
جمال الدين لافغان : ۱۲۴
جوتوالد - يوسف : ۳۵
جود جي زيدان : ۴۰، ۴۱، ۴۲، ۴۳
۵۸، ۵۹، ۶۰، ۶۱
جوماو : ۷
جون د. فيد. ثورو : ۱۶۵
جيحون بك : ۷۴، ۷۸

ح

- الحارث بن ظالم : ۵۹
الحجاج بن يوسف : ۱۵۷
ابن حجة الخوري : ۵۵، ۶۵
حسن بن ثابت : ۱۵۷
حسن باشا الخافط : ۲۵
ح. امانه : ۶۰، ۶۲
ح. الاسكندراني باشا : ۸۰، ۸۱
ح. حسن الطويراني : ۸۲، ۸۵
۸۶، ۸۷، ۸۸، ۸۹، ۹۰، ۹۱، ۹۲
۹۳، ۹۴
حسن السندري : ۳، ۵۸، ۶۸
ح. الطويل : ۶۷

بكتيت : ۷۴

بكر بچ : ۱۷۳

بلودنش : ۱۷۴

البهاء ربيع : ۵۴

بهرام الفارسي : ۹۸، ۹۹

بواب : ۱۷۷

بورج : ۱۲، ۱۳

بوشكين : ۴

بوشكين م : ۳۰

لبو صيري : ۵۲، ۸۹

بواس طعمة : ۱۵۵

بولس مسعد : ۸۲

بوو تسكي : ۳۹

بولي ن. بشارد : ۱۸۱

بوليفراط : ۹۸

بيروس : ۹۸، ۱۰۱

ث

- تشارلو ادس : ۲۷، ۱۲۱
تشارلو موري : ۶۲
تشموسر : ۱۷۷
ابن التميميد : ۱۴۹
أبو تمام : ۷۲، ۱۱۳، ۱۲۵
ثنيسون : ۱۷۹
توفيق باشا ... الخديو : ۴۳، ۵۲
۶۸، ۹۲
توما ديبو لجنوب : ۳۹
توماس هاردي : ۱۳۶

د

دفا ، الاب : ١٧٤ ، ١٧٥
دايري : ١٩٠
الدويجي : الشيخ : ٧٣ ، ٧٧
السيد ، دويك : ١٥٣
دورث : ٧٨
دزول : ٩

ر

رد يارد كينج : ١٨٧
رشيد رضا — السيد : ١١٥ ، ١٢٣
رشيد الشروني : ١٥٥
ابن رشيق : ٩٥
رفاعة رافع الطمطاوي : ٤٩ ، ٧٤ ، ٨٠
٩ ، ١٣ ، ١٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٥٣
رمسيس الثاني : ٩٧
روجرس بك : ٧٨
روفائيل صبيحة : ١٠٨
ربن الرومي : ١٦١

ز

الزجاج النحوي :
الزختمري : ٩٧
الزراوي — حسن علق : ١٢٨ ،
١٣٠ ، ١٣٣
زين العابدين المكي : ٥٢ ، ٥٥
زبن المرسني — الشيخ : ٧١ ، ٧٨ ،
٨٠

حسن البطار : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ،
٣٣ ، ٣٧ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٧٢
حسن الزاوي : ٢٨ ، ٦٢ ، ٧٢ ، ٧٣
حسنوة التواوي : ٧٩
حسين الخاج علاوي : ١٢٥
شوقي : ١٠٧
نظري باشا : ٧٨
السلطان حسين كلس : ٧١ ، ٧٢
حسين بن الشريف محمد : ٤٧ ، ٤٨ ،
٤٩ ، ٥٣

حسين المرسني : ٣٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ،
٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
٧٩ ، ٨١
مكاكيان : ٩
حماس أو أحسن : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠
أبو حنيفة : ٧٤
حنين بن اسحاق : ١٤٨
حواء ، هـم : ٢٨ ، ٢٩

خ

خاند بن سعود : ٤٥
خمرستوف كوليس : ١٦٩
خميل البديوي : ١٥٥
خ صادق : ١٠١
خ مطران بك : ١٦ ، ١٠٩
١١١ ، ١٣٠ ، ١٣٢
خير الدين الزركلي : ٨٣

عبد الحميد نافع بك : ٥٥٠٤٤
عبد الرحمن البحراري : ٧٤
عبد الرحمن الجهرقي : ٦١٠٦٠
عبد الرحمن الرافعي بك : ٤٤٠١١٠
١١٣ ٦٨٠٦٢٠٤٩
عبد الرحمن السعدي : ٦٠٠
عبد الرحمن مظهر بك : ٢٨
السلطان عبد العزيز : ٩٣٠
عبد المتاح الخريزي : ٦٠
عبد الله دراز : ١٢٢
عبد الله أبو السمور : ٦٧
عبد الله الشرقاوي : ٧٢
عبد الله فريخ : ٩٣
عبد الله فكري باشا : ٣٩، ٣٥، ٣٤
٤٤، ٥٥، ٥٥، ٦٧، ٧٢، ٧٦
٨٠، ٧٨
عبد الله بن الشريف عون : ٤٦
٥٢، ٤٩، ٤٧
عبد الله القديم : ٦٧، ٥٥
عبد الحميد الشاذلي : ١٣٣
عبد المصطفى بن غالب بن الشريف : ٢٠
عبد المولى السما : ٣١
عبد المؤمن الأصمعي : ٩٧
عبد الهادي مخلوف : ١٢٣
عبدى شكرى باشا : ١٢٠١١، ٨٠٦
عبدان بن جوي : ٩٥٠
د حبيب باشا : ٧٨
د نور الدين : ٦

عبد الحامد بك : ٥٠
أبو العلاء المحرق : ٢٤، ٢٨
علي إبراهيم : ٧٨
علي حبيب بك : ٢٨
علي خديج لاسيوطي : ٤٤
علي خليل نور الدين : ٧٠
علي الدرويش : ٥٧، ٥٦، ٤١
٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٦
علي ذو البعير باشا : ٥٠
علي الشركاني : ٨٢
علي بن عبد العزيز الجرجاني : ٩٥
علي عبد الواحد ولى : ٢٦
علي بك عطفا الله : ٩١
علي العبدان : ٦٠
علي الموصلي : ٤٤
علي اللبني : ١٧، ٤٤٠، ٥٢، ٨٠
علي مبارك باشا : ١٣، ١٤، ٦٨، ٦٩
٧٠، ٧٤، ٧٦، ٧٨، ٨٠
علي أبو النصر : ٤٤، ٥٢، ٥٤
٨٠، ٥٧
عمر موسون - الأمير : ٦، ٩٠
١٥، ١١
عمر بن رافة : ١٥٠

ف

فادين : ٩
فادين : ٣٨
فواد الأول - الملك : ١٠٦

عبد الحميد نافع بك : ٥٥٠٤٤
عبد الرحمن البحراري : ٧٤
عبد الرحمن الجهرقي : ٦١٠٦٠
عبد الرحمن الرافعي بك : ٤٤٠١١٠
١١٣ ٦٨٠٦٢٠٤٩
عبد الرحمن السعدي : ٦٠٠
عبد الرحمن مظهر بك : ٢٨
السلطان عبد العزيز : ٩٣٠
عبد المتاح الخريزي : ٦٠
عبد الله دراز : ١٢٢
عبد الله أبو السمور : ٦٧
عبد الله الشرقاوي : ٧٢
عبد الله فريخ : ٩٣
عبد الله فكري باشا : ٣٩، ٣٥، ٣٤
٤٤، ٥٥، ٥٥، ٦٧، ٧٢، ٧٦
٨٠، ٧٨
عبد الله بن الشريف عون : ٤٦
٥٢، ٤٩، ٤٧
عبد الله القديم : ٦٧، ٥٥
عبد الحميد الشاذلي : ١٣٣
عبد المصطفى بن غالب بن الشريف : ٢٠
عبد المولى السما : ٣١
عبد المؤمن الأصمعي : ٩٧
عبد الهادي مخلوف : ١٢٣
عبدى شكرى باشا : ١٢٠١١، ٨٠٦
عبدان بن جوي : ٩٥٠
د حبيب باشا : ٧٨
د نور الدين : ٦

كياك بك : ٩

ل

لاديبي — الأمانة : ٩٨ ، ٩٩

١٠١ ، ١٠٠

لاوي باشا : ٧٨

لامير : ٩

لورنج فلو : ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩

لويس شيخو — الآب : ٣٤ ، ٣٥

٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٥٨ ، ٦٨

١٥٣

لويس مادادين : ٩٥

لويس معارف — الآب : ١٥٥

م

مارلو : ١٨٨

ماوي لوبل : ١٧٥

ماريا هرايت : ١٧٨

ماريون كالديكوت —

ماسيرو : ٧٨

المرد : ٤٤

محمد أحمد المرمق : ٧١

د إسماعيل النشاشيبي : ١٠٧ ، ١٤٣

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢

محمد بن إسماعيل : ١٤٨

د الأسير : ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩

د أنسي بك : ٧٩

د البيلوي : ٥٤

نغري أبو السعد : ١٣٤ ، ١٣٥

١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢

فرانس باشا : ٧٤

فراهن : ٣٣

مسو فرعان : ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٨

فريتز فلجانس : ٣٣

الفضال — الشيخ : ٧٢ ، ٧٣

فرلوز : ٣٣

فيدال : ٧٤ ، ٧٨

فصل بن سعود : ٤٥

فيكتور هيجو : ١٠٩ ، ١٤

فيكتوريا الملكة : ٦٣

فيل — جوستاف : ٣٣

فيليب — الملك : ١٦٩

فيليب طرازي — الكوفت : ٨٣

١٥٣ ، ٨٧

فيوليت لنيج : ١٩٠

ق

القزويني — الخطيب : ٧٣

القشيري — عبد الكريم : ٧١

القناعوي — الشيخ : ٧٢ ، ٧٣

ك

كراتسكوفسكي — أنطاطيرس : ٣٥

٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨

كروير — الموردي : ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢١

كلوت بك : ٩

الكبيت : ٨٩

٢٨٠٢٧٠١٩٠١٧٠١٦٠١٥
٥٦٠٤٩٠٤٨٠٤٢٠٤١٠٣٣
٧١٠٦٥٠٦٢٠٦٠٠٥٩٠٥٨٠٥٧
محمد علي البقلي : ١٣
د عليش : ٢٨
د بن عون — الشريف : ٢٥
٤٨٠٤٧٠٤٦٠٤٥٠٢٨٠٢٦
٥٣٠٥٢٠٥١٠٤٩
محمد عياد الطنطاوي : ٣٠٠٢١
٢٩٠٢٨٠٢٧٠٢٦٠٢٥٠٢٣٠٢٢
محمد مصطفى المراغي : ١١٩
د المويحي : ٥٥
د هرون : ١١٩
محمود أحمد الغمراوي : ١٢٠
د الباشا : ١٢٠
د حامد شوكت : ١٠٧٠٩٧
د سامي البارودي باشا : ١٦٠
٥٥٠٤٥٠٤٢٠٤١٠٢٩٠٢٨
١٨٩٠٨٨٠٨٠٠٧٧٠٧٦٠٥٧
١٣٦
محمود صفوت الساعاتي : ٤٠٠٤١
٥٠٠٤٩٠٤٥٠٤٤٠٤٣٠٤٢
١٧٠٥٧٠٥٥٠٥٤٠٥٣٠٥١
محمود أبو النصر : ١٢٣
مربريت فولوز : ١٧٨٠١٦٥
مصعود درويش : ١٦٢
مصطفى البغدادي : ٦٠
مصطفى رشيد بك : ٥٥

محمد البكري — السيد : ٢٨٠٢٦
د بيوي : ١٣٠٩
د حافظ إبراهيم : ١٦٠٥٤٠٩٥
١١١٠١٠٩٠١٠٨٠١٠٦٠٩٦
١٥٧٠١١٢
محمد حسن ناقل الموصفي : ٤٤٠٤٢
٧٢
محمد حسين هيكل باشا : ٤٧٠١٦
١٠٧
محمد خورشيد : ١٠٧
د شاكر : ١١٣٠١١٤٠١١٥
١١٦٠١١٧٠١١٨٠١١٩٠١٢٠
١٢١٠١٢٣٠١٢٤٠١٢٥٠١٢٦
محمد شهاب الدين : ١٥٠١٦٠١٧
١٨٠١٩٠٢٠٠٢١٠٢٢٠٢٣
٢٨٠٢٩٠٣٢٠٣٤٠٤١٠٤٤
٥٧٠٦١٠٦٣
محمد صبري بك : ١٠٧
د الصديق بن عباس الأول : ٢٣
د طلعت حرب باشا : ١٢٣
د العباسي المندي : ٢٨٠٢٢
د عبد الغني حسن : ٤٠٠٤٤
د عبده : ٧٩٠١١٣٠١١٤
١١٥٠١٢٠
محمد عثمان جلال : ٦٧
د العروسي : ٢٨٠٧٣
د علي باشا : ٣٠٥٠٦٠٧٠٨
١٠٠١١٠١٢٠١٣٠١٤

ماموند: ۱۳، ۸
 مغری پروکس: ۷۴
 مغری دافید شورو: ۱۶۶۰، ۱۶۴۰، ۱۶۶۰
 ۱۶۷، ۱۶۸، ۱۶۹، ۱۷۰
 ۱۷۱، ۱۷۴، ۱۷۷
 مغری لانس — الپ: ۱۵۵
 هو: ۱۷۹
 میرودوت: ۹۹، ۱۰۰
 میراز — کلیمت: ۳۵، ۳۶، ۷

2

ولتر هاستون : ۱۹۲
 ونیج عقل : ۱۹۲
 ولی الذین یکتون : ۸۷۰۸۳ - ۱۶۱۶۳۵
 ولیام بوسکوت : ۱۷۳
 ولیام کالدیکوت : ۱۸۶ - ۱۸۷
 ویلیز : ۵ - ج : ۴

5

یوسف البستانی : ۱۵۵ - ۱۶۲
 مستوری : ۱۷۳
 نمبر سرکیس : ۴۲ - ۱۵۳
 نمبر گوناد : ۱۶۱

مصطفى سلامة النجارى : ٦٦، ٥٨
 > العروى : ٩٠
 > مختار بك : ٦٥، ٦٤، ١٨
 ١٠، ٩، ١٦، ١٢، ١٣، ١٤
 ١٥، ٢١، ٢٤، ٢٨
 مصطفى باشا مختار : ١٤، ١٥
 > لطفي المنطوطي : ٤٠، ٤١، ٤٣
 ٤٢، ٥٥
 ميار الديالى : ١٠٧، ١٦١
 موجيل بك : ٧٨
 ميتايل نسمة : ١٠٥، ١٠٦

١

٩٥: بابيون
١٤: نصر الموريق
١٠١: التضيرة بنت الصيرون
٢٨٠٣٧: نقولون سكي
٣١: نقولا — القيصر
٦: نقولا مسابكي
٧٠: نور الدين خليل الموصني
٤٥: نور الدين زكي
١٥٦: نيازى القائد

ماہون : ۹

فهرس الكتاب

أعلام من الشرق

صفحة	
٣	بين يدى الكتاب
٥	مصطفى مختار بك
١٦	الشيخ محمد شهاب الدين
٣٠	الشيخ محمد عياد الطائى
٤٠	محمود صفوت الساعاتى
٥٦	السيد على الدرويش
٦٧	الشيخ حسين المرصفى
٨٢	حسن حسنى الطويرافى باشا
٩٥	شوق وحافظ بين الكتب
١١٣	الشيخ محمد شاكر
١٢٧	الدكتور إسماعيل أدهم
١٣٤	غفرى أبو السمود
١٤٣	محمد إسماعيل النشاشيبي
١٥٣	أنطون الجليل باشا

أعلام من الغرب

١٦٤	هنرى دافيد ثورو
١٧٢	جيمس رسل لويل
١٨٠	إدجار والاس

استدراك : ورد فى ص ٨٢ تاريخ ميلاد الطويرافى خطأ وصوابه ١٨٥٠
(تم بحمد الله طبع هذا الكتاب فى مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٩)